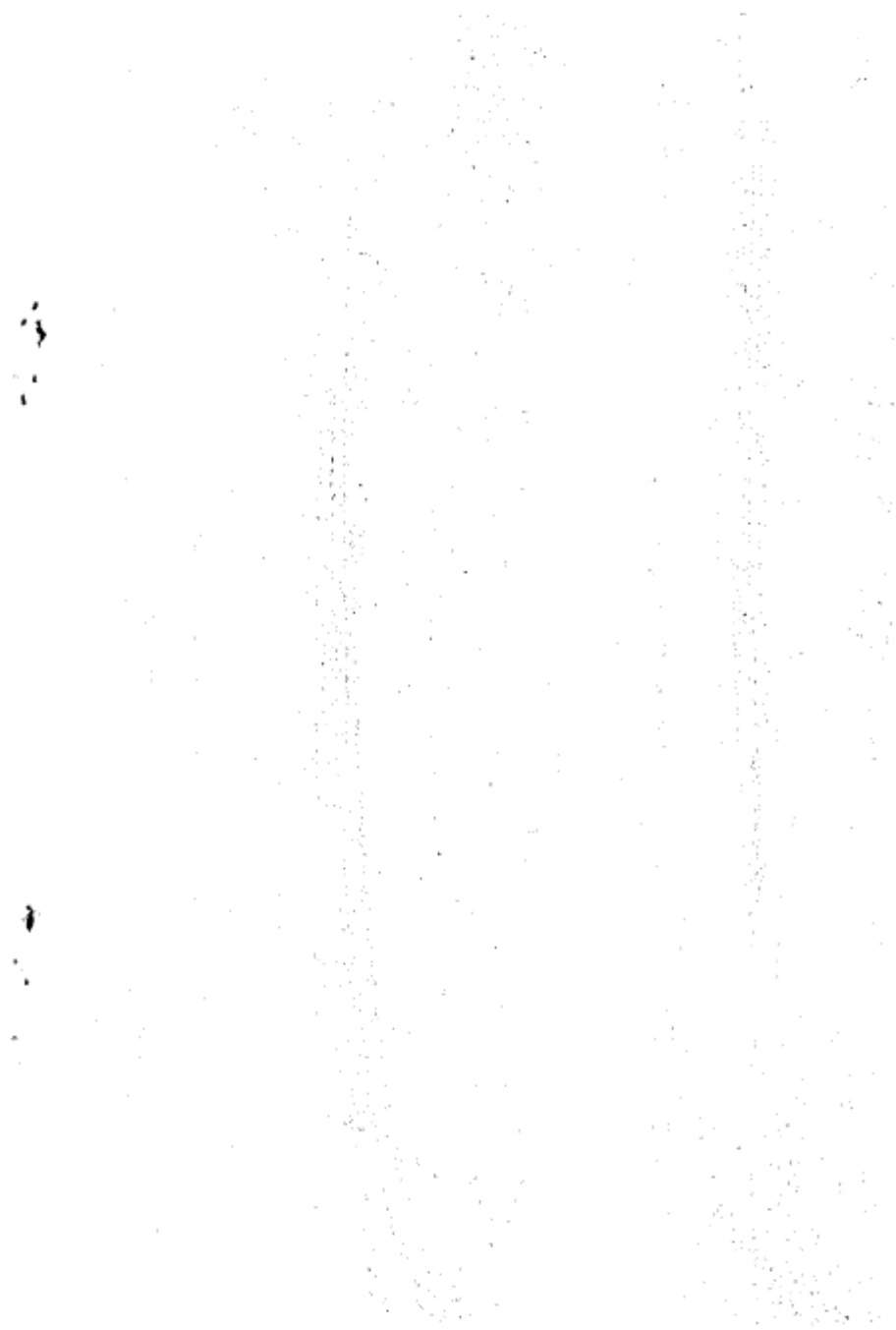


دراسات عربية وإسلامية

٢١

صفحة

٥	• القرآن الكريم بين ترتيب الفزول وترتيب التلاوة
٤٣	• قياس الدلالة وحجته
٨٧	• حجم الجملة العربية
١١١	• قضية تعريب الطب
١٢٣	• نحو خريطة إعلامية لمواجهة تشويه صورة العرب على الإنترنت
١٣٧	• لعولمة ومستقبل المجتمع والدولة
	• على الشرق الأوسط
١٧٧	• مقال في الحوار



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

كنت حريصاً جداً على صدور هذا الجزء من السلسلة ، نظراً لأنه الجزء الذى يتجاوز العشرين . والواقع أنه كلما صدر جزء من السلسلة قلت لنفسى : متى أتوقف؟ لكن الإصرار يدفعنى من جديد على المواصلة ، وكذلك سؤال الإخوة الباحثين عن أخبار الجزء الجديد، ومن قبل ذلك كله توفيق الله تعالى وعونه لى بالاستمرار .

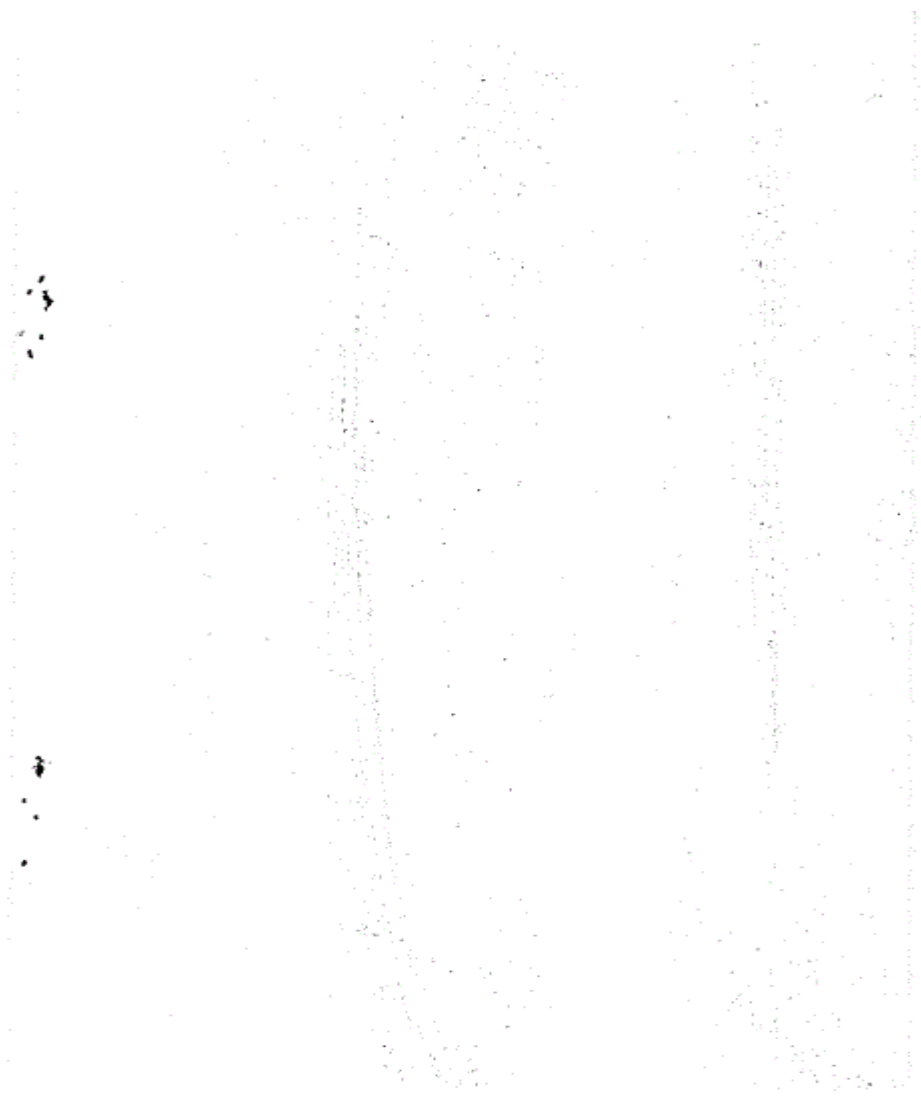
إن هذه السلسلة ، التى بدأت قوية منذ خطواتها الأولى فى عام ١٩٨٣ ، ما زالت تحتفظ بخصائصها الذاتية ، التى يأتى فى مقدمتها الصرامة فى اختيار البحوث ، وعدم المجاملة فى نشرها . حتى أصبحت بحمد الله مرجعاً لكثير من الدراسات الجادة ، وموضع تقدير من لجان التحكيم فى الجامعات المصرية والعربية .

وفى هذا الصدد ، لا بد أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل المساهمين فى هذا الجزء ، والأجزاء السابقة ، مع دعوة كل الباحثين الجادين إلى المساهمة ببحوثهم العلمية ، والتى أرجو أن تتضمن جديداً ، أو تصحح خطأ ، أو تفتح أفقاً فى مجال الدراسات العربية والإسلامية .

والله ولى التوفيق

المشرف على السلسلة

أ.د. حامد طاهر



القرآن الكريم

بين ترتيب النزول وترتيب التلاوة

أ.د. صلاح روائى *

لسور القرآن الكريم نظامان من الترتيب ، ولكل نظام منهما غاية عظيمة ، وهدف سام ، كانا وراء اللجوء إليه والأخذ به .

الأول : ترتيب النزول

ويعنى ترتيب السور بحسب ما نزل أولاً منها ، ثم ما نزل ثانياً . . وهكذا ، حتى آخر ما نزل من القرآن الكريم .

* أستاذ النحو العربى بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

الثاني : ترتيب التلاوة :

أى بحسب ترتيب السور فى المصحف الذى بأيدي الناس ، الذى يتلون القرآن ويحفظونه عليه.

وسنفرّد لكل نظام منهما قولاً يخصه ، موضحين الغاية والهدف منه ، مؤيداً بالأدلة الواضحة ، والبراهين المساطعة من الأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين .

أولاً : ترتيب النزول :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾^(١) وقد ذهب المفسرون فى كيفية إنزال القرآن فى هذه الليلة مذاهب أربعة:

أولها : أن الله تعالى أنزله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم أخذ جبريل يتنزل به على محمد ﷺ منجماً بحسب الوقائع والأحداث ، على ما أخرجه الحاكم والبيهقى ، وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.^(٢)

ثانيها : أن القرآن أنزل إلى بيت العزة فى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ فى عشرين ليلة قدر ، أو ثلاثاً وعشرين ، أو خمساً وعشرين. فى كل ليلة ما يقدر الله إنزاله فى السنة كلها ، ثم نزل بعد ذلك على النبى ﷺ منجماً على مدار السنة . بهذا قال فخر الدين الرازى ، ونقله

^(١) سورة القدر : الآية الأولى .

^(٢) البرهان : ١ / ٢٩٩ .

القرطبي عن مقاتل بن حبان .^(١)

ثالثها : أنه ابتدئ في إنزال القرآن على النبي ﷺ في ليلة القدر، ثم تكرر نزوله عليه بعد ذلك منجماً ، وبه قال الشعبي .^(٢)

رابعها : أنه أنزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة في ليلة القدر إلى السفرة الكرام الكاتبين في سماء الدنيا ، فنجمته السفرة على جبريل في عشرين ليلة ، ثم نجمه جبريل على النبي في عشرين سنة . وهذا ما حكاه الماوردي ، بناء على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه .^(٣)

نخلص مما تقدم أن القرآن الكريم أنزل على النبي ﷺ منجماً على مدى عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين سنة ، أو خمس وعشرين ، بحسب مدة إقامته في مكة بعد البعثة . وقد ثبت أن من الصحابة من كتب لنفسه مصحفاً مرتباً فيه السور بحسب نزولها كمصحف على بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، الذي كان أوله سورة (العلق) ثم سورة المدثر ، ثم ن ، ثم للمزمل ، ثم المسد ، ثم التكوير .^(٤)

ومعلوم أن من السور ما لم تكن تنزل بكاملها مرة واحدة ، وإنما كان ينزل أولها ، ثم يزداد فيها من الآيات بحسب ما يشير به جبريل

^(١) الإعتاق : ٤٠ / ١ .

^(٢) البرهان : ٢٢٨ / ١ .

^(٣) الإعتاق : ٤٠ / ١ .

^(٤) الإعتاق : ٦٢ / ١ .

على النبي ﷺ من قوله : ضبع هذه الآية بعد آية كذا في سورة كذا ؛ وفي هذا يقول ابن عباس : " كان إذا نزلت فاتحة سورة بمكة ، كتبت بمكة ، ثم يزيد الله فيها ما شاء " .^(١)

وقد ذهب بعض الصحابة والتابعين إلى سرد سور القرآن بترتيبها النزولي ، كابن عباس ، وجابر بن زيد ، وعكرمة ، والحسين بن أبي الحسن ، وقتادة ، ومنهم من نظم هذا السرد أبياتاً كابن الحصار ، وبرهان الدين الجبيري الذي نظمته قصيدة سماها : تقريب المأمول في ترتيب النزول ،^(٢) وأشهر هؤلاء ابن عباس الذي قال : " كان أول ما أنزل من القرآن سورة اقرأ باسم ربك ، ثم ن ، ثم يا أيها المزمل ، ثم يا أيها المدثر ثم الحمد ، ثم تبت يدا أبي لهب ، ثم إذا الشمس كورت ، ثم سبح اسم ربك الأعلى ، ثم الليل إذا يغشى ، ثم والفجر ، ثم والضحى ، ثم ألم نشرح ، ثم والعصر ، ثم والعاديات ، ثم إنا أعطيناك ، ثم ألهاكم التكاثر ، ثم أ رأيت الذي يكذب ، ثم قل يا أيها الكافرون ، ثم ألم تر كيف فعل ربك ، ثم قل أعوذ برب الفلق ، ثم قل أعوذ برب الناس ، ثم قل هو الله أحد ، ثم والنجم ، ثم عيس ، ثم إنا أنزلناه في ليلة القدر ، ثم والشمس وضحاها ، ثم والسماء ذات البروج ، ثم والنتين ، ثم لإيلاف قريش ، ثم القارعة ، ثم لا أقسم بيوم القيامة ، ثم ويبل لكل همزة ، ثم والمرسلات ، ثم ق ، ثم لا أقسم بهذا البلد ، ثم والسماء والطارق ، ثم اقتربت الساعة ، ثم ص ، ثم الأعراف ، ثم قل أوحى ،

^(١) الإحقاق : ١٠ / ١ .

^(٢) الإحقاق : ١١ / ١ ، ٢٥ .

ثم يس ، ثم الفرقان ، ثم الملائكة ، ، ثم كهيعص ، ثم طه ، ثم الواقعة ،
 ثم طس الشعراء ، ثم طس ، ثم القصص ، ثم بنى إسرائيل ، ثم يونس ،
 ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الحجر ، ثم الأنعام ، ثم الصافات ، ثم لقمان ،
 ثم سبأ ، ثم الزمر ، ثم حم ، ثم المؤمن ، ثم حم السجدة ، ثم حم عسق ،
 ثم حم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ، ثم الذاريات ،
 ثم الغاشية ، ثم الكهف ، ثم النحل ، ثم إنا أرسلنا نوحا ، ثم سورة
 إبراهيم ، ثم الأنبياء ، ثم المؤمنين ، ثم تنزيل السجدة ، ثم الطور ، ثم
 تبارك الملك ، ثم الحاقة ، ثم سأل ، ثم عم يتساءلون ، ثم النازعات ، ثم
 إذا السماء انفطرت ، ثم إذا السماء انشقت ، ثم الروم ، ثم العنكبوت ، ثم
 ويل للمطففين ، فهذا ما أنزل الله بمكة ، ثم أنزل بالمدينة : سورة
 البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم
 النساء ، ثم إذا زلزلت ، ثم الحديد ، ثم القتال ، ثم الرعد ، ثم الرحمن ،
 ثم الإنسان ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم إذا جاء نصر الله ،
 ثم النور ، ثم الحج ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم
 التحريم ، ثم الجمعة ، ثم التغاين ، ثم الصف ، ثم الفتح ، ثم المائدة ، ثم
 براءة " . (١)

الحكمة فى إنزال القرآن منجما :

تولى الله - تبارك وتعالى - بيان الهدف والحكمة من هذا
 الإنزال المنجم للقرآن الكريم ، حينما تساءل الكفار الذين ألفوا فى
 حياتهم اليومية أن القصيدة تلقى بكاملها جملة واحدة ، وعهدوا الكتب

(١) الإتيان: ١٠ / ١ .

السماوية تنزل على الرسل جملة واحدة أيضاً ، على ما مسموعه من اليهود أن التوراة نزلت على موسى جملة واحدة ، فقالوا : (لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)^(١) ، فقال الله - تبارك وتعالى - مبيناً لرسوله الكريم الهدف والحكمة من هذا الإنزال المنجم : « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » .^(٢)

قال أبو شامة^(٣) : " أى : لنقوى به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب ، وأشد عناية بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من الجنب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياء جبريل"^(٤).

وشمة هدف سام ، وحكمة بالغة في هذا النزول المنجم ، ألا وهو تيسير حفظه على النبي ﷺ واستظهاره له ، حيث كان أمياً لا عهد له بالقراءة ولا الكتابة ، فلو أنزل عليه القرآن جملة واحدة لعسر عليه حفظه ، وشق عليه استظهاره ، بخلاف غيره من الرسل ممن كان كاتباً

(١) سورة الفرقان : آية ٣٢ .

(٢) سورة الفرقان : آية ٣٢ .

(٣) عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدس ، فقيه شافعي ، له المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز ، وشرح الشاطبية ، توفي سنة ٦٦٥ هـ (شذرات الذهب : ٣١٨ / ٥) .

(٤) الإقنان : ٤١ / ١ .

قارئاً ، وفي هذا يقول ابن فورك ^(١) : " أنزلت التوراة جملة ، لأنها
نزلت على نبي يقرأ ويكتب - وهو موسى - ، وأنزل القرآن منجماً لأنه
أنزل غير مكتوب على نبي أمي " . ^(٢)

وقيل : لم ينزل جملة واحدة ، لأن منه الناسخ والمنسوخ ،
ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه
ما هو إنكار لقول قيل ، أو فعل فعل ، ومن ثم قال ابن عباس : " ونزله
جبريل بجواب كلام العباد أو عملهم " ، وقد فسر به قول الله - تعالى -
﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ . ^(٣)

ومن أجل الأهداف والحكم في إنزال القرآن مفرقاً ما صرح به
مكي بن أبي طالب ^(٤) في كتابه (الناسخ والمنسوخ) بقوله : " . . .
فإنه أدعى إلى قبوله إن نزل على التدرج ، بخلاف ما لو نزل جملة
واحدة ، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لكثرة ما فيه من
الفرائض والمناهي " . ^(٥)

^(١) محمد بن الحسن بن فورك ، ويكنى أبا بكر ، متكلم أصولي ، له في معاني القرآن
وأصول الفقه أكثر من مائة كتاب . توفي سنة ٤٠٦ هـ جريية - (ابن خلكان :
٤٨٢ / ١) .

^(٢) الإتيان : ٤١٠ / ٢ .

^(٣) سورة : الفرقان آية : ٣٣ ، والإتيان : ٤٢ / ١ .

^(٤) حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ ، من القيروان ، كثير التأليف في علوم
القرآن ، توفي سنة ٤٣٧ هـ . (إنباء الرواة : ٣ / ٣١٣) .

^(٥) صحيح البخاري : ١٨٥ / ٦ .

ويؤيد قول مكى ما روى عن عائشة ، رضى الله عنها ، : " إنما أنزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو أنزل (لا تزنا) لقالوا : لا ندع الزنا أبداً " ^(١) ، وما أثر عن على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه : " أنزل القرآن خمساً خمساً إلا سورة الأنعام ، ومن حفظه خمساً خمساً لم ينسه " ^(٢) ، وما أخرجه ابن عساكر عن طريق أبى نضرة قال : " كان أبو سعيد الخدرى يعلمنا القرآن خمس آيات بالخداة ، وخمس آيات بالعشى ، ويخبرنا أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات " . ^(٣)

ترتيب التلاوة :

لا ريب أن ترتيب التلاوة مرتبط ، بل مترتب على جمع القرآن ، ولا سيما مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومن ثم نرى أنه من الواجب أن نتناول موضوع جمع القرآن بشئ من التفصيل ، ومعلوم أن القرآن قد جمع ثلاث مرات :

^(١) الإتيان : ١ / ٤٣ .

^(٢) المصدر السابق .

^(٣) المصدر نفسه .

الجمع الأول :

كان ذلك في عهد النبي ﷺ ، حيث كان جبريل ينزل عليه بالآية أو الآيات أو السورة بكاملها ، فيملئها الرسول على كتبه الوحي ، فيكتبونها في اللخاف والعسب والأكتاف والأقتاب ، ثم تحفظ عند رسول الله ﷺ وكان النبي يوقف الكتبة على ترتيب الآيات تبعاً لتوقيف جبريل ، فقد أخرج الحاكم في (المستدرک) عن زيد بن ثابت أنه قال :
" كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع " .^(١)

أى : ترتيب السور والآيات وفق إشارة النبي ﷺ وتوقيفه فى شئ من جلد أو ورق أو كاغد ، مما كان يتيسر لكتاب الوحي من أدوات الكتابة^(٢) ، ويقول المحاسبى^(٣) : " . . . وكان ذلك بمثابة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ ، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شئ " .^(٤)

وقد أثر أن جبريل كان ينزل على النبي فى شهر رمضان ليستعرض معه ما نزل من القرآن طيلة العام . ولما كان العام الذى لحق فيه النبي بالرفيق الأعلى ، أتاه جبريل واستعرض معه القرآن كله ،

(١) البرهان : ١ / ٢٣٧ .

(٢) مباحث فى علوم القرآن لصبحى الصالح : ٦٩ .

(٣) الحارث بن أسد المحاسبى ، من أكابر الصوفية ، كان عالماً بالأصول والمعاملات ،

استاذ أكثر البغداديين (توفى ببغداد سنة ٣٤٣هـ ، الأعلام : ٢ / ١٥٣) .

(٤) البرهان : ١ / ٢٣٨ ، الإتيان : ١ / ٥٨ .

وقيل استعرضه مرتين ، وسميت هذه العرضة الأخيرة " (١) وأخرج الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال : " كنت جالماً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى " إلى آخرها . (٢)

ومعلوم أن النبي ﷺ قرأ سوراً عديدة بترتيب آياتها في الصلاة، أو في خطبة الجمعة بمشهد من الصحابة ، فكان ذلك دليلاً صريحاً على أن ترتيب آياتها توقيف من قبل الله ، تبارك وتعالى ، وأنه بذلك بلغ مبلغ النواتر .

نخلص من ذلك إلى أن القرآن الكريم كتب كله في عهد رسول الله ﷺ غير مجموع في مصحف واحد ، فقد أغنى عن ذلك حفظ الصحابة واستظهارهم لهم ، على ما وقفهم عليه النبي من ترتيب سورته وآياته بتوقيف من الله ، تبارك وتعالى ، وعن هذا يقول الزركشى :
" وإنما لم يكتب في عهد النبي ﷺ مصحف لئلا يفضى إلى تغييره في كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ (٣) " وقال الخطابي : " إنما لم يجمع النبي ﷺ القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله

(١) الإتيان : ٦٢ / ١ .

(٢) الإتيان : ٥٧ / ١ .

(٣) البرهان : ٢٦٢ / ١ .

بوفاته . ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك * . (١)

الجمع الثاني :

وذلك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة اثنتى عشرة للهجرة بعد موقعة اليمامة ، حيث استشهد فيها سبعون من حفظة القرآن الكريم من الصحابة ، فهال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء إلى أبي بكر يقترح عليه جمع القرآن الكريم حتى لا يضيع بموت الحفظة ؛ ويروى زيد بن ثابت قصة هذا الجمع بقوله : " أرسل إلى أبو بكر ، مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه إن عمر أتاني فقال : إن القتل استحر يوم اليمامة بقرآن القرآن ، وإنني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك . وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فأجمعه . فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي

(١) الإقنان : ١ / ٥٧ .

بكر وعمر . فتتبع القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال . . . فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر " . (١)

وروى أن أبا بكر قال لعمر وزيد بن ثابت : " اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه " . (٢)

وروى أن عمر بن الخطاب قدم إلى المسجد فقال : " من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به " ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان . (٣)

وفسر ابن حجر العسقلاني الشهيدين بأنهما : الحفظ والكتابة . (٤)
وفسرهما السخاوي في (جمال القراء) بأنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ . (٥)

وروى الحارث المحاسبى أن مصحف أبي بكر كانت طريقة كتابته مشتملة على وجوه القراءات المطلقة على الحروف السبعة التي نزل بها القرآن على نحو ما كان عليه في الجمع الأول على

(١) صحيح البخارى : كتاب فضائل القرآن ، ومسنند أحمد : ١ / ١٣ ، وطبقات ابن سعد : ٢ / ٢٠١ .

(٢) الإتيان : ١ / ٥٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصاحف لابن أبي داود : ٤ .

(٥) الإتيان : ١ / ٥٨ .

عهد النبي ﷺ . (١)

وأخرج ابن أثنّة قال : " لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق ، قال أيوبكر : التمسوا له اسماً ، فقال بعضهم : (السفر) . قال : ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوا ذلك ، وقال بعضهم : (المصحف) فإن الحبشة يسمون مثله (المصحف) ، فاجتمع رأيهم على أن سموه (المصحف)". (٢)

الجمع الثالث :

وذلك في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد علمنا أن طريقة الكتابة في كل من الجمعين الأول والثاني كانت مشتملة على وجوه القراءات المطلقة على الحروف السبعة التي نزل بها القرآن ، فلما كان في عهد عثمان اختلف الناس في القراءة ، ففزع عثمان من هذا الاختلاف ، وهذا أنس بن مالك يروي لنا القصة بقوله :

" اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون ، فبلغ ذلك عثمان بن عفان ، فقال : عندي تكذيبون به وتلحنون فيه ، فمن نأى عني كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً ، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً " . (٣)

(١) الإتيان: ٦٠ / ١ .

(٢) الإتيان: ٥٨ / ١ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن ، والمصاحف لابن أبي داود : ١٨ .

وروى عن علي بن أبي طالب أنه قال : " لا تقولوا في عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا ، قال : ما تقولون في هذه القراءة ؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفرة ، قلنا : فما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف . قلنا : فتعم ما رأيت " . (١)

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأنزيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسل لي إلى المصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش . فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان المصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق " .

(١) الإتيان : ٥٩ / ١ .

ولما كان المصحف الإمام حمّال أوجه في قراءته نظراً لكونه خلوا من النقط والتشكيل ، لم يكتف عثمان بإرسال نسخة منه إلى كل مصر ، وإنما أرسل معه حافظاً يوافق قراءته ، فكان زيد بن ثابت مقرئ المصحف المدني ، وعبدالله بن السائب مقرئ المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرئ الشامى ، وأبو عبد الرحمن السلمي مقرئ الكوفى ، وعامر بن عبد القيس مقرئ البصرى .^(١)

هل ترتيب السور فى المصحف توقيفى أو من عمل الصحابة ؟

انقسم العلماء حيال ترتيب التلاوة - أى ترتيب السور فى المصحف - إلى فرق ثلاثة :

الأول : يقول بأن هذا الترتيب هو من عمل الصحابة . ويمثل هذا الفريق الإمام مالك بن أنس ، والقاضى أبوبكر الباقلانى - فى أحد قوليه - ، وابن فارس القزوينى ، حيث يقول ابن فارس :

" جمع القرآن على ضربين : أحدهما تأليف السور ، كتقديم السبع الطوال ، وتعقيبها بالمئين ، فهذا الذى تولته الصحابة . أما الجمع الآخر ، وهو جمع الآيات فى السور ، فهو توقيفى ، تولاه النبى ﷺ كما أخبر به جبريل عن ربه ، ولذلك اختلاف مصاحف السلف فى ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على النزول ، وهو مصحف على ، كان أوله : اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ن ، ثم المزمل ، ثم تيت ، ثم التكوثر ، وهكذا إلى آخر المكي والمدنى ، وكان أول مصحف ابن مسعود :

(١) مناهل العرفان للزرقانى : ١ / ٣٩٦ .

البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، على اختلاف شديد ، وكذا مصحف أبي وغيره " . (١)

ويستدل هذا الفريق إلى جانب اختلاف مصاحف السلف بما روى عن أبي محمد القرشي أنه قال : " أمرهم عثمان أن يتابعوا السبع الطوال ، فجعلت سور الأنفال وسورة التوبة في السبع ولم يفصل بينهما بسم الله الرحمن الرحيم " . (٢)

الثاني : يقول بأن ترتيب أكثر السور توقيفي ، وبعضها يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة ، ويمثل هذا الفريق ابن عطية ، والبيهقي ، وأبو جعفر بن الزبير .

الثالث : يقول بأن ترتيب السور في المصحف توقيفي ، ويمثل هذا الفريق القاضي أبو بكر الباقلاني - في أحد قوليهِ - وأبو بكر بن الأنباري ، والكرماني ، والطبري ، حيث يقول ابن الأنباري :

" أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرقَه في بضع وعشرين ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً لمستخير ، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، كله عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن " . (٣)

(١) الإعتان: ١ / ٦٢ .

(٢) الإعتان: ١ / ٦٢ .

(٣) المصدر السابق .

وقال الكرمانى : " ترتيب السور هكذا . هو عند الله فى اللوح

المحفوظ على هذا الترتيب ، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه ، وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين ، وكان آخر الآيات نزولاً : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾^(١) ، فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدين " .^(٢)

الحكمة فى ترتيب التلاوة :

أثر عن السلف الصالح قولهم : " التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر " ، أى أن التعليم فى الصغر يثبت فى الحافظة ويدوم على مر الأيام ، ولا يمحي من الذاكرة مهما طال الزمن ، حيث تكون حافظة الطفل خالية من المعارف والمدرجات كالصفحة البيضاء ، قابلة للإمساك بكل ما يلقى فيها ، وفى هذا يقول الشاعر :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى . فصادف قلباً خالياً فتمكنا

هذا بخلاف ما إذا كان العلم فى الكبر ، فهو مظنة النسيان والمحو من الذاكرة بمرور الزمن ، حيث تكون الحافظة قد شغلت بأنواع المعارف وشتى المدرجات ، ولم يعد بها مكان للحفظ والاستظهار .

^(١) سورة : البقرة : آية ٢٨١ .

^(٢) الإتيان : ٦٢ / ١ .

ومن ثم يدفع الناس بصغارهم إلى كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم ، حتى يتسنى لهم حفظ كتاب الله الكريم واستظهاره قبل أن تشغل صفحاتهم البيضاء بغيره من العلوم الدنيوية ، والمعارف المعيشية ؛ إذ أننا - على مدى التاريخ - لم نسمع بمن حاول حفظ القرآن الكريم في سن متقدمة وسلم له ذلك مهما قاسى وعانى في سبيل ذلك ، حيث لم تعد حافظته قادرة على الإمساك بما حفظه ، والاحتفاظ بما استظهره .

فضلاً على المنهج الملزم في جميع كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم الذي يبدأ في تحفيظ الصغير بالمفصل - وهو السور القصار - ثم يتدرج معه إلى الأطول فالأطول حتى يصل إلى المثاني ، ثم إلى المئين ، ثم إلى السور الطوال ، فهذا أدعى إلى ترسيخ الحفظ في حافظته الصغير ، وتثبيت التحصيل في ذاكرته .

علاوة على تشجيع الصغير على مداومة الحفظ والاستمرار فيه ، حيث كلما انتقل من سورة إلى أخرى ، انشرح صدره ، وسعدت نفسه ، وأقبل على حفظ السورة الجديدة في غبطة وسرور ، واستقبلها بهمة عالية ، واستعداد متجدد ؛ لما أننا - على مدى التاريخ - لم نصادف من حاول حفظ القرآن الكريم بادئاً بسورة البقرة ، ومتدرجاً في الحفظ نزولاً إلى قصار السور وسلم له ذلك مهما قاسى في هذا الأمر وعانى ، لما في ذلك من مخالفة للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهي التدرج في كل الأمور صعوداً من الأسهل إلى الأصعب ، وفي هذا يقول جلال الدين السيوطي : " . . . ثم ظهرت لذلك حكمة في التعليم وتدريب

الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها تيسيراً من الله على عباده ،
لحفظ كتابه " . (١) وقال الزركشي : " فإن قلت : فهلا كانت الكتب
السابقة كذلك ؟ قلت : لوجهين . أحدهما : أنها لم تكن معجزات من جهة
النظم والترتيب ، والآخر : أنها لم تيسر للحفظ " . (٢)

وقال الزمخشري : " . . . ومنها أن القارئ إذا ختم سورة
أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر ، كان أنشط له ، وأبعد على
التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطع
ميلاً أو فرسخاً نفس ذلك فيه ونشط للسير ، . . . ومنها أن الحافظ إذا
حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها ، فيعظم
عنده ما حفظه " .

الأسرار الإلهية في كل من ترتيب النزول والتلاوة :

خلصنا مما تقدم إلى أن ترتيب سور القرآن الكريم عند نزوله ،
وترتيبها في المصحف كلاهما ترتيب توقيفي من قبل النبي ﷺ على ما
أخبره به جبريل عن رب العزة ، تبارك وتعالى ، وطالما أن ذلك
توقيف من قبل الله - عز وجل - ليس فيه ثمة تدخل من جانب البشر ،
إن لابد أنه ينطوى على أسرار لا قيل بها لبشر ، ولا يحيط بها سوى
رب القوى والقدرة .

(١) الإتيان : ٦٦ / ١ .

(٢) البرهان : ١ / ٢٦٦ ، والإتيان : ٦٦ / ١ .

ولعل من أجل هذه الأسرار الإلهية في هذا الأمر ، هو الوحدة أو الترابط والتناسق بين السور في كلا الترتيبين ، بحيث تبدو كما لو أنها نظمت في خيط واحد ، يأخذ بعضها بحجز بعض ، في وحدة تامة ، وتناسق وثيق ؛ وما علينا إلا أن نفرد قسولا لكل من الترتيبين ، نستعرض فيه شيئا من هذه الأسرار على سبيل التمثيل ، وليس الحصر ، إذ ربما من الله علينا بفتح الفرصة لاستعراض هذه الأسرار في كل سور القرآن كله على الترتيبين .

أولا : ترتيب النزول :

نعلم أن نزول القرآن كان منجما بحسب الوقائع والأحداث ، أو إجابات على أسئلة تثار ، أو تشريع يسر لإصلاح حال المجتمع ، مما قد يوحي بأنه من غير الممكن أن يكون ثمة ترابط أو تناسق بين ما نزل وفقا لهذه الأمور المتباينة ، مما حدا بواحد من كبار العلماء كعز الدين ابن عبد السلام أن يقول :

" إن ربط آيات القرآن على ترتيب نزولها تكلف لا يليق ، إذ أنه يشترط في حسن الكلام أن يقع في أمر متحد ، مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيزك يضان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض ."^(١)

(١) أسرار ترتيب القرآن للإسكندر (الدراسة) ص ٣٠ .

ولكن الشيخ ولى الدين الملوى يرد هذا الزعم بقوله :

" قد وهم من قال : لا يطلب للآية الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المفارقة ، وفصل الخطاب أنه على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً " . (١)

ونحن نضم صوتنا إلى صوت الشيخ الملوى ، فنقول وباشء للتوفيق :

نزل القرآن بعرضه بمكة ، وبعضه بالمدينة المنورة ، وما نزل بمكة نزل فى بيئة كافرة ، وأمة مشركة ، تعبد الأصنام ، وتجلها ، وتعتمد تمام الاعتقاد فى نفعها وضرها ، فحينما تنزل رسالة تبشر بدين جديد ، يدعو إلى نبذ هذه الآلهة المصنوعة ، التى على إجلالها وتعظيمها تقوم حياة القوم ، وترتب معيشتهم ، وتؤكد مكانتهم وسيادتهم ، لابد أن تمثل هذه الرسالة الجديدة منهجاً لتأسيس الدعوة الجديدة ، وتكون وسيلة إقناع بهذه العقيدة القادمة ، وطريقة مثلى للتبشير بها والنذير بسوء ما عليه القوم ، حتى إذا ثاب الناس إلى رشدهم ، ودخلوا فى الدعوة الجديدة ، صارت هذه الرسالة السماوية أسلوب حياة وبناء وحضارة ، ودستوراً يحكم العلاقات بين أفراد المجتمع ، بما يحقق لهم حياة سعيدة فى الدنيا والآخرة ، وهذا ما تكفل به الشطر الذى نزل بالمدينة المنورة .

(١) المصدر السابق.

فإذا أمعنا النظر ، وأصمنا الفكر فى أول ما نزل من القرآن الكريم ، وهو قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .^(١) وجدنا أن ذلك مما يطلق عليه البلاغيون (براعة الاستهلال) ، حيث إن من عهد إليه بهذه الرسالة رجل أمى لا عهد له بقراءة ولا كتابة ، ونزل عليه جبريل ومعه رقعة من الديباج الأخضر مكتوب فيها شئ من القرآن ، وقال له : اقرأ ، فرد الرسول الكريم : ما أنا بقارئ - مرتين ، فتلا جبريل عليه هذه الآيات ، أى " استعن على القراءة باسم ربك الذى خلق الكائنات من العدم ، وخلق الإنسان من حيوان كالعلقة ، اقرأ وسيعينك ربك الأكرم على ذلك ، فهو الذى علم الإنسان كيف يخط بالقلم ، وعلمه ما لم يكن يعلم .

وما أن أقرأ جبريل محمدا هذه الآيات ، حتى نزل محمد مسرعا إلى زوجته خديجة يرتعد ويرتجف من هول ما حدث ، وقال : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى ، ولما ذهب عنه الخوف ، وهذأت نفسه ، أخذت خديجة تستوضحه الأمر ، فحكى لها القصة .

ولم يمض إلا وقت يسير ، حتى شاع الخبر فى أنحاء مكة ، فحدث بينهم لغط شديد فى تفسير ما حدث ، ولم يجد كفار مكة ومشركوها تفسيراً لهذه الظاهرة إلا أن محمدا قد مسه شئ من الجنون ، فهاله أن يصفه قومه بالجنون ، وهو من عهدوه رجاحة فى العقل ، وسلامة فى الفكر ، وصدقا فى القول ، وحفظا للأمانة .

(١) سورة العلق : الآيات ١ - ٤ .

فأراد الله - تبارك وتعالى - أن يطمئن رسوله على سلامة عقله، وبراعته من الجنون، وأنه أعظم قومه أخلاقاً، بعد أن يعلمه أن دعوته الجديدة قوامها العلم والمعرفة واستشراف حقائق الكون، معبراً عن ذلك بأداة العلم وهو القلم، ومن ثم نزلت ثانية السور المكية وهى سورة القلم، حيث افتتحها - سبحانه - بالقسم بذاته العلية^(١)، وبالقلم، وبالكاتبة وذلك لشرف العلم وأدواته، فيقول - سبحانه - : ﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .^(٢)

ثم يحذره رب العزة من الكفار العالمين بصدق دعواه، ثم يخفون الحقائق خوفاً على جاههم وسلطانهم ومكانتهم كالوليد بن المغيرة الذى سمع القرآن فأعجبه وأثنى عليه بقوله : " إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أدناه لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه، وما هو بقول بشر "، ولما زجره أبو جهل، وذكره بالأرستقراطية القرشية، نكص على عقبيه، وعاد يحلف لهم ويقسم أن ما نزل على محمد إن هو إلا أساطير الأولين، حيث يقول - جل وعلا-: ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . هماغز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تنلى عليه

(١) انظر بحثاً لنا بعنوان (نون الوقاية . ليست للوقاية، منشور بحوثات دار العلوم - العدد العاشر ١٩٨٢، توصلنا فيه إلى أن المتكلم هو حرف النون).
(٢) سورة القلم : الآيات ١ - ٤ .

آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم ﴿ . (١)

ثم يبين الله - تعالى - لنبيه حال المشركين المكذبين في الدنيا ، وما ينتظرهم في الآخرة بقوله - تعالى - : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملئ لهم إن كيدي متين ﴾ . (٢)

ثم يأمره - سبحانه - بالصبر على نشر الدعوة الجديدة ، ويحذره من السأم والضجر منها كحال سيدنا يونس بن متى ، حيث يقول - سبحانه - ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لو لا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ . (٣)

ثم ختم السورة ببيان دهشة الكافرين عند سماعهم القرآن حتى اتهموه بالجنون ، وما هذا القرآن إلا تذكرة لهم ولغيرهم من العالمين ، حيث يقول : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون . وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ . (٤)

آمن بالدعوة الجديدة جمع قليل ، وثارت في وجهها عاصفة من العداوة والمقاومة التي من شأنها أن تفت في عزيمة أقوى الرجال

(١) سورة القلم : الآيات ١٠ - ١٦ .

(٢) سورة القلم : الآيات ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) سورة القلم : الآيات ٤٨ - ٥٠ .

(٤) سورة القلم : الآيات ٥١ ، ٥٢ .

وأشدهم صلابة ما لم يكن مؤمنا بقوة عليا قاهرة ، هي أقوى من كل القوى البشرية مجتمعة.

ومع العناية الرحيمة الفائقة من الله - تعالى - على رسوله ﷺ فقد وجهه إلى التزام منهج تربوي جديد ، من شأنه أن يجعل الإنسان على صلة دائمة بمصدر هذه القوة القاهرة ، مستعدا للوفاء بأعظم الأعمال ، والثبات أمام أشد التبعات والأهوال ، فنزلت سورة (المزمل) وفي صدرها هذا المنهج الجديد للرسول وأتباعه الذين ألقيت على كواهلهم التبعات الأولى للدعوة الجديدة .^(١)

وهذا المنهج التربوي يتمثل في قيام الليل ، وترتيل القرآن ، استعدادا لقول ثقيل سوف يلقي عليه ﷺ وهو الأمر بالجهر بالدعوة الجديدة ، وإنذار القوم من مغبة النكوص عن الدخول فيها ، حيث يقول - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نَصَفَهُ أَوْ انْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ .^(٢)

ثم عاد - سبحانه - للحديث عن أحوال الكافرين من أمثال الوليد ابن المغيرة ، وما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة ، حيث يقول : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا . إِن لَدَيْنَا لَنُكَالُهُم جُحِيمًا . وَطَعَامًا ذَا غَصَّةٍ

(١) تناسق السور (الدراسة) : ٣٢ .

(٢) سورة المزمل : الآيات ١ - ٦ .

وعذابا أليما». (١)

ثم يتم - سبحانه - المنهج التربوي الذي ارتضاه للمؤمنين بالأمر بالألّا يشقوا على أنفسهم ، فيقرأوا ما تيسر من القرآن . لأنهم سوف يكون منهم مرضى ، ومنهم من يضرب في الأرض ، ومنهم من يقتل في سبيل الله ؛ وأن يستغفروا الله الذي سوف يغفر لهم ، حيث يقول : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ . (٢)

وبعد أن أرسى - سبحانه - لنبيه ومن معه هذا المنهج التربوي العظيم استعدادا للقول الثقيل الذي سيلقى عليهم ، نزلت سورة المدثر ، التي تنصدر بذلك القول الثقيل ، حيث تبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ يا أيها المدثر . قم فأندر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ﴾ . (٣)

ثم يربط الله - تبارك وتعالى - هذه السورة بما قبلها ، حيث يأمره بالصبر على تحمل هذه التبعة فيقول في (المزمل) : ﴿ فاصبر

(١) سورة المزمل : الآيات ١١ - ١٣ .

(٢) سورة المزمل : الآية ٢٠ .

(٣) سورة المدثر : الآيات ١ - ٥ .

لحكم ربك»^(١) ، ثم يقول في هذه : « ولربك فاصبر»^(٢) ، كما يربط بينهما بالحديث عن الوليد بن المغيرة الذي عاد بعد زجر أبي جهل له ، ففكر وهذى ، وادعى أن القرآن سحر ، وأنه من قول البشر ، حيث يقول - تبارك وتعالى - : « ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له ملاما ممدودا . وبنيين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عيس وبسر . ثم أدير واستكير . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر»^(٣) .

ثم عاد - سبحانه - ليربط السور الثلاث : القلم ، والمزمل ، والمدثر في قرن واحد ، حيث تحدث في ثلاثتها عن القرآن ، فقال في (القلم) : « وما هو إلا ذكر للعالمين»^(٤) ، وقال في (المزمل) : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا»^(٥) ، وقال في (المدثر) : « فما لهم عن التذكرة معرضين»^(٦) ، وقال فيها أيضا : « كلا إنه تذكرة»^(٧) .

^(١) سورة القلم : الآية ٤٨ .

^(٢) سورة المدثر : الآية ٧ .

^(٣) سورة المدثر : الآيات ١١ - ٢٦ .

^(٤) سورة القلم : الآية ٥٢ .

^(٥) سورة المزمل : الآية ١٩ .

^(٦) سورة المدثر : الآية ٤٩ .

^(٧) سورة المدثر : الآية ٥٤ .

وبعد الأمر بقيام الليل ، وتلاوة القرآن الكريم ، كان لابد من وجود صيغة ، محددة يلتزم بها الجميع فى الصلاة ، ولابد من وجود قرآن يتلى ، إذ السور الأربعة ما هى إلا بيان لمنهج الدعوة الجديدة ، والتهيئة لها ، وبيان موقف الكفار منها ، فلابد من قرآن يعيدى خالص ينجى فيه المؤمن ربه ، فنزلت سورة (فاتحة الكتاب) التى سماها الرسول الكريم (أم الكتاب) وقال : " لا صلاة إلا بأم الكتاب " ، كما قال عنها : إنها تعدل ثلث القرآن ، وأجمع المفسرون على أنها اشتملت على كل المعانى التى جاءت مفصلة فى القرآن كله ، حتى إذا قرأوها فكأنما قرأوا القرآن كله.

بعد أن استعرضنا هذه السور الخمسة ، هل نرى ترابطا يفوق ذلك الترابط الذى يسودها جميعا ، وذلك التناسق فيما بينها التى يجمع بينها فى عقد فيجعل منها وحدة واحدة ، فهو ترابط يساير تطور سير الرسالة الجديدة ، وتسلسل أحداثها ووقائعها ؛ إذ تبين سورة (العلق) فضيلة العلم ، وأنه قوام الدعوة الجديدة ؛ وإذ ينكر الكفار الوحي وما نزل به على محمد ، ويصفونه بالجنون ، فتتزل سورة (القلم) لتؤكد فضيلة العلم وتنفى عن الرسول ﷺ صفة الجنون، بل تصفه بأنه على عظيم ؛ ثم تنزل سورة (المزمل) فترسم للمؤمنين منهاجا تربويا يلتزمون به لضمان نجاح دعوتهم ، حتى إذا تحقق ذلك نزلت سورة (المدثر) لتأمر الرسول ومن آمن معه بالجهر بالدعوة ، وإنذار القوم من مغية ما هم عاكفون عليه . ولما كان المنهج التربوى يتطلب طقوسا معينة وصيغا محددة ، توحيدا لذلك المنهج ، وعدم الاجتهاد والتفرق فيه، نزلت سورة (فاتحة الكتاب) لتكون هى عماد قيام الليل

وتلاوة القرآن.

ثانيا : ترتيب التلاوة :

بعد أن كان القرآن الكريم - فى ترتيبه النزولى - منهجا لتأسيس دعوة جديدة ، وأسلوب إقناع بعقيدة سماوية ، وطريقة تبشير وإنذار ، ودحض لمنطق الإلحاد والكفر ، وتدرجا بالكافرين والمشركين إلى مرتبة الإيمان والتصديق.

نجد فى ترتيبه المصحفى - حيث يتلوهُ المسلمون ويستظهرونه، وبه يتعاملون ويتقاضون - أسلوب حياة ، وبناء حضارة ، ودستور للعالم يكفل الوفاء بكل احتياجاته ومتطلباته . وما علينا إلا أن نسوق - فى هذه العجالة - شيئا من ألوان الترابط والتناسق بين بعض السور فى ترتيبها المصحفى ، على النحو المتقدم فى ترتيب النزول.

فقد افتتح الله - تبارك وتعالى - كتابه الكريم بمسورة (فاتحة الكتاب) لأنها جمعت مقاصد القرآن جميعها . ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس ، والواقية ، والكز ؛ فصارت كالعنوان ، وما يعرف لدى البلاغيين ببراعة الاستهلال . وعنها يقول الحسن البصرى : " إن الله أودع علوم الكتب السابقة فى القرآن ، ثم أودع علوم القرآن فى المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فى الفاتحة ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة " .^(١)

(١) شعب الإيمان لليبهى : ٢ / ١٨٧ .

ويقول الطيبي ^(١) : " وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً ، فإنها واقعة في مطلع التنزيل ، والبلاغة فيه أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق " . ^(٢)

أما سورة (البقرة) فقد افتتحت بقول الله - تعالى - : ﴿الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ ^(٣) ، وفيه إشارة إلى الصراط المستقيم في قوله في الفاتحة : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ^(٤) . فإنهم لما سألوا الله الهداية إلى الصراط المستقيم ، قيل لهم : ذلك الصراط المستقيم الذي سألتهم الهداية إليه ، فقد روى عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه قال : " الصراط المستقيم كتاب الله " ^(٥) . وقال الخوئي ^(٦) : " أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة (الفاتحة) ، لأن الله - تعالى - لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ما طلبتم : " هذا الكتاب هدى لكم ، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب للمسئول " . ^(٧)

^(١) الحسين بن عبدالله بن محمد الطيبي ، أحد كبار علماء الحديث والتفسير واللغة ، توفي سنة ٧٤٣ هـ - (الدرر الكامنة : ٢ / ١٥٦) .

^(٢) شرح الكشاف للطيبي : ١ / ٢٩ (خ) .

^(٣) سورة البقرة : الآية الأولى .

^(٤) سورة الفاتحة : الآية ٧ .

^(٥) جامع البيان : ١ / ١٧٣ ، والمستدرك : ٤ / ٨٣ .

^(٦) أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر ، توفي بدمشق سنة ٦٢٧ هـ . (شذرات الذهب : ٢ / ٢٥) .

^(٧) البيان في تفسير القرآن للخوئي : ٢ / ٢٧ .

وكما ختمت (الفاتحة) بدعاء المؤمنين بألا يسلك الله بهم طريق المغضوب عليهم ، ولا الضالين إجمالاً ، ختمت سورة (البقرة) بدعائهم بألا يسلك بهم طريقهم في المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وحمل الإصر ، وما لا طاقة لهم به تفصيلاً في قوله - تعالى - ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾^(١). وقد روى أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يقول (أمين) في آخر البقرة ، كما هو مشروع في آخر الفاتحة^(٢).

ولما كانت سورة البقرة هي أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال، حتى سميت (فسطاط القرآن)^(٣) الذي هو المدينة الجامعة ؛ كما أنها أطول سورة في القرآن ، وقد افتتح بالسبع الطوال ، وأنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فناسب البدء بها وتقديمها على جميع السور^(٤).

أما سورة (آل عمران) فهي قرينة سورة (البقرة) والمكملة لها، فعملًا بقاعدة أن كل سورة تعد شرحاً لما أجمل في السورة التي قبلها ، نلاحظ من مظاهر الترابط بينها والتناسق ما يلي :

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٥٠٩.

(٣) سنن الدارمي : ٢ / ٤٤٦.

(٤) تناسق السور : ٨٢.

١- لما ورد في سورة الفاتحة ذكر اليهود والنصارى على حسب ترتيبهم في الزمان ، حيث فسر الرسول الكريم (المغضوب عليهم) باليهود ، و (الضالين) بالنصارى ^(١) ؛ فقد عقب - سبحانه - بسورة (البقرة) وجميع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة ، ثم ثنى بسورة (آل عمران) وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى.

٢- افتتحت (البقرة) بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه ، وفصل في (آل عمران) فقال : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ . ^(٢)

٣- أجمل في (البقرة) فقال : ﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ ^(٣) ، وفصل في (آل عمران) فقال : ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ﴾ ^(٤)

٤- أجمل في (البقرة) فقال : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ^(٥) ، وفصل في (آل عمران) فقال : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما يحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم

^(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٦ .

^(٢) سورة آل عمران : الآية ٣ .

^(٣) سورة البقرة : الآية ٤ .

^(٤) سورة آل عمران : الآيتان ٣ ، ٤ .

^(٥) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأتايتكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم . يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم إلى الله تحشرون . فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنتم فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ^(١) .

^(١) سورة آل عمران : الآيات ١٥٢ - ١٥٩ .

- ٥- أجمل الحديث عن الشهداء في (البقرة) بقوله : ﴿ أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ ^(١) ، وفصل في (آل عمران) بقوله : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . ﴾ ^(٢)
- ٦- أجمل في (البقرة) فقال : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ ^(٣) ، وفصل في (آل عمران) فقال : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ ^(٤)
- ٧- أجمل في (البقرة) فقال : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ ^(٥) ، وفصل في (آل عمران) فقال : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ ^(٦)

^(١) سورة البقرة : الآية ١٥٤ .

^(٢) سورة آل عمران : الآيات ١٦٩ - ١٧١ .

^(٣) سورة البقرة : الآية ٢٤٧ .

^(٤) سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

^(٥) سورة البقرة : الآية ١٩٦ .

^(٦) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

٨- ذكر في (البقرة) دعوة إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ﴾ ^(١) وذكر الاستجابة في (آل عمران) بقوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ . ^(٢)

أما سورة (النساء) فتضمنت أحكام العلاقات بين الناس كالنسب و الصهر، وما يتعلق بهما من نكاح النساء ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام . . إلى غير ذلك من العلاقات ؛ أما ارتباطها بما قبلها فواضح جلي ، حيث تعد شارحة أيضا لما تقدم من مجملات :

١- أجمل - سبحانه - في (البقرة) بقوله : ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ ^(٣) ، ثم فصل في (النساء) فقال : ﴿ اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تتساعلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ . ^(٤)

٢- أجمل في (البقرة) آية اليتامى ، وآية الوصية ، والميراث ، والوارث بقوله : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ ^(٥) ، وفصل كل ذلك في (النساء) في الآيات : ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٢ ، ١٧٦ .

^(١) سورة البقرة : الآية ١٢٩ .

^(٢) سورة آل عمران : الآية ١٦٤ .

^(٣) سورة البقرة : الآية ٢١ .

^(٤) سورة النساء : الآية الأولى .

^(٥) سورة البقرة : الآية ٢٣٣ .

٣- أجمل في (البقرة) نكاح الأمة بقوله : ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ﴾ ^(١) ، وفصل في (النساء) ذاكرا شروطه بقوله : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيماكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحسن فإن أنين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾ . ^(٢)

٤- أجمل في (البقرة) ذكر الصداق بقوله : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ﴾ ^(٣) ، وشرحه مفصلا في (النساء) بقوله : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتانا وإثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ . ^(٤)

وأما وجوه اعتلاق (النساء) بـ (آل عمران) فمنها :

١- أن (آل عمران) ختمت بالأمر بالتقوى في قوله - تعالى - : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ ^(٥) ، وافتتحت (النساء) به في قوله :

^(١) سورة البقرة : الآية ٢٢١ .

^(٢) سورة النساء : الآية ٢٥ .

^(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .

^(٤) سورة النساء : الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .

^(٥) سورة آل عمران : الآية ٢٠٠ .

«واتقوا الله الذي تساعلون به والأرحام». ^(١)

٢- ذكر في (آل عمران) قصة غزوة أحد مستوفاة ، وذكر في (النساء) ذيلها وهو قوله سبحانه : «فما لكم في المنافقين فئتين...». ^(٢)

٣- ذكر في (آل عمران) قصة خلق عيسى بلا أب ، وأقيمت له الحجة بخلق آدم ، وفي ذلك تبرئة لأمه ، خلافا لما زعم اليهود ، وتقرير لعبوديته ، خلافا لما ادعته النصارى ، وذكر في (النساء) الرد على الفريقين معا ، فرد على اليهود بقوله : «وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً» ^(٣) ، وعلى النصارى بقوله : «لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» إلى قوله : «لئن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله» . ^(٤)

٤- لما ذكر في (آل عمران) خطاباً للمسيح : «إني متوفيك ورافعك إلي» ^(٥) ، رد في (النساء) على من زعم قتله بقوله : «وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا

^(١) سورة النساء : الآية الأولى

^(٢) سورة النساء : الآية ٨٨ .

^(٣) سورة النساء : الآية ١٥٦ .

^(٤) سورة النساء : الآيات ١٧١ - ١٧٢ .

^(٥) سورة آل عمران : الآية ٥٥ .

اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه»^(١).

ومن أجل صور الترابط والتناسق بين السور الأربعة المتقدمة ، أن الله - سبحانه - لما ذكر اليهود والنصارى على حسب ترتيبهم الوقتي في (الفاتحة) ، قص في كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب ذاته ، فكانت (البقرة) مختصة باليهود ، وكانت (آل عمران) مختصة بالنصارى ، وجاءت (النساء) ، وفي صدرها ذكر اليهود في قوله - تعالى - : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾^(٢) ، وفي ختامها ذكر النصارى في قوله : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾^(٣).

(١) سورة النساء : الآيتان : ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٤٦ وما بعدها .

(٣) سورة النساء : الآية ١٧١ .

قياس الدلالة وحجته

د. محمد على إبراهيم *

اعتمد العلماء على قياس الدلالة كثيرا في استدلالاتهم ، ويعرف ذلك بإلقاء أدنى نظرة في كتب الفروع الفقهية . قال الإمام الغزالي عن قياس الشبه ، وهو نوع من قياس الدلالة : ولعل جل أقيسة الفقهاء ترجع إليها - قياس الشبه - ؛ إذ يعسر إظهار تأثير العلل بالنص والإجماع ، والمناسبة المصلحية .^(١)

* أستاذ مساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة .
(١) المستصفى بتحقيق الأشقر ٢ / ٣١٩ .

وإذا كان أكثر الاستدلالات القياسية في الفروع من قياس الدلالة ، كان من المناسب أن يفرد ببحث مستقل يوضح فيه ماهيته وأقسامه ، ومدى حجته في إثبات الأحكام.

وقد اختلفت مناهج الأصوليين في تناول البحث في قياس الدلالة، فجعل بعضهم قياس الشبه نوعاً منه ، وهو منهج جل علماء الأصول في بغداد في القرن الرابع ، فقياس الدلالة عندهم : هو الجمع بين الأصل والفرع بما يدل على العلة ، سواء كان لازماً من لوازمها أو شياً يغلب على الظن دلالاته على العلة الجامعة.

والبعض الآخر ، وهو أكثر المتأخرين قصوره على إلحاق الفرع بالأصل بلازم العلة ، وتناولوا قياس الشبه ببحث مستقل ، ولكن هؤلاء اختلفوا في كونه مسلماً من مسالك العلة ، أو ليس بمسلك.

وذهب البعض إلى أنه مسلك من مسالك العلة ، وآخرون إلى أنه ليس بمسلك ؛ لأن المسالك إنما هي مثبتة لعلية الوصف للحكم، والشبه ثبتت عليته بالمسالك^(١).

ومن العلماء الذين جعلوا قياس الشبه نوعاً من قياس الدلالة :

- ١- أبو إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ ، قال معرفاً له : قياس الدلالة هو أن يرد الفرع بغير العلة التي تعلق الحكم بها في الشريعة ، وإنما يجمع بينهما المعنى الذي يدل على العلة ، وهذا

(١) تيسير التحرير ٤ / ٥٣.

أيضاً طريق إثبات الأحكام ؛ لأن العلة تارة تذكر للحكم ، وتارة يذكر ما يدل على العلة ، ثم قسمه إلى ثلاثة أضرب مع التمثيل لكل ضرب:

(١) الاستدلال بخصيصة من خصائص الحكم على ثبوت الحكم.

(٢) الاستدلال بالنظير على النظير.

(٣) قياس الشبه ، وهو على ضربين.

أ- ضرب فيه نوع من دلالة تدل على الحكم .

ب- ضرب ليس فيه نوع دلالة ، وإنما هو مجرد شبه . (١)

٢- أبو الوليد الباجي المتوفى سنة ٤٧٤هـ ، وقد سار في كتاب إحكم الفصول على منهج الشيرازي نفسه ، حيث قسمه إلى ثلاثة أضرب:

الأول : الاستدلال بحكم من أحكام الأصل موجود في الفرع على دخول الفرع في حكم الأصل.

الثاني : الاستدلال بثبوت حكم يشاكل المختلف فيه في الفرع على إثبات الحكم المختلف فيه.

الثالث : قياس الشبه ، وهو أن يحمل الفرع على الأصل بضرب من الشبه . (٢)

(١) شرح اللمع ٨٠٦/٢ - ٨١٢.

(٢) إحكم الفصول في أحكام الأصول ص ٦٢٩.

٣- أبو الخطاب الكلوثاني المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، وقد جعل قياس الدلالة أربعة أضرب ، فزاد على ما ذكرناه ضرباً رابعاً ، وهو قياس الاسم الخاص على الاسم الخاص .^(١)

٤- القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، قال عن قياس الشبه : هو قياس للدلالة ، وهو الجمع بين الفرع والأصل بما لا يناسب الحكم ، ولكن يستلزم ما يناسب الحكم .^(٢)

٥- إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، قال بعد ذكر أقسام القياس : وألحق ملحقون قياس الدلالة بهذه الأقسام واعتقدوه قسماً سادساً ، ولا معنى لعدده قسماً على حياله وجزءاً منه على استقلاله ؛ فإنه يقع منبأ عن معنى تارة ، وتارة شبيهاً ، وهو في طوره لا يخرج عن قياس المعنى أو الشبه .^(٣)

٦- الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، وقال في أثناء مناظرته للمخالفين له في حجية قياس الشبه : أهل بغداد وسائر العراقيين يطلق على هذا - قياس الشبه - قياس الدلالة . .^(٤)

وقد سرت على هذا النهج في البحث ، وهو : اعتبار الشبه من قياس الدلالة ؛ لأنه يمكن أن يكون من الشبه ما هو دال على العلة

(١) التمهيد ١/ ٢٩ - ٣٠ .

(٢) نفائس الأصول ٧/ ٢٩ - ٣٣ .

(٣) البرهان ٢/ ٨٨ .

(٤) ثغاء الغليل في مسائل التعليل ص ٣٨١ .

الغائبة عن المجتهد في محل الحكم ؛ وذلك لأن الأحكام مبنية على علل تتضمن مصالح العباد ، فإذا ظن المجتهد أن شيئا يدل على العلة ففى محل الحكم فله أن يلحق المسكوت بذلك المحل عملاً بظنه.

واعتبار كون الشبه دليلاً على العلة في قياس الشبه ، وليس عين العلة يخرج عن الغموض ، والإشكال الذى يكتنف الشبه فى حالة اعتباره علة.

قال الغزالي : المشكل فى الشبه جعل الوصف الذى يناسب مناطاً للحكم مع أن الحكم لم يضاف إليه .^(١)
القياس وبيان أركانه .

لما كان هذا البحث فى أحد أقسام القياس من حيث ذكر العلة ، وعدم ذكرها ، وهو قياس الدلالة ، رأيت من المناسب أن أوضح بين يدى البحث حقيقة القياس والعلة ، وبعض ما يتعلق بها ، مما له علاقة قريبة بالبحث ؛ لأن قياس الدلالة جُمع بين الأصل والفرع بدليل العلة.

تعريف القياس :

تعريفه لغة : هو تقدير الشيء بالشيء ، والمقدار مقياس ، يقال : قست الشيء بغيره وعلى غيره ، إذا قدرته على مثاله .^(٢)

^(١) المستصفى ٢ / ٣٢٤ .

^(٢) معجم المقاييس فى اللغة : ٨٦٨ ، لسان العرب ٥ / ٣٧٧٤ .

القياس اصطلاحاً : اختلف العلماء في تعريفه كثيراً ، وأختار من بينها تعريف الإمام البيضاوى ^(١) ؛ لوضوحه ، وقلة الاعتراضات الوجيهة الواردة عليه. وقد قال : " إثبات مثل حكم معلوم في معلوم آخر ، لاشتراكهما في علة الحكم عند المثبت " . ^(٢)

وقوله : إثبات : كالجنس يشمل المعرف وغيره ، والمراد بالإثبات هنا: اللقطة المشتركة بين العلم والاعتقاد والظن ، ويشمل القياس القطعي والظني ، واللقطة المشتركة : هو حكم الذهن يأمر على أمر ، سواء كان إثباتاً أو نفيًا.

وقوله : مثل حكم : المقصود بالحكم هنا نسبة أمر إلى أمر ، أو نفيه عنه ، وهو يشمل الحكم الشرعي والعقلي ، إيجاباً أو سلباً. وقوله : في معلوم آخر : بيان أن القياس لا يكون إلا بين أمرين.

وقوله : لاشتراكهما في العلة : بيان أن القياس لا يثبت بغير علة، ولا بد من وجود علة في الأصل والفرع بكاملها وتامها.

^(١) هو عبدالله بن عمر البيضاوى ، ويعرف بالقاضى ، كان إماماً مجزاً ، نظاراً ، صالحاً ، فقيهاً أصولياً ، ومفسراً ، وأديباً نحويًا ، وله عدة مصنفات منها : منهاج الوصول في معرفة علم الأصول . توفي سنة ٦٨٥ هـ . الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٢ / ٨٨ .
^(٢) الإيهاج في شرح المنهاج ٣ / ٥ .

وقوله : عند المثبت : أتى به ؛ ليصدق التعريف على القياس الصحيح والفاقد ؛ لأن الاشتراك في العلة إذا أطلق انصرف إلى الاشتراك في الواقع ونفس الأمر.

أركان القياس :

- * يظهر من خلال التعريف أن القياس مبني على أربعة أركان .
 - * الركن الأول : الأصل وهو محل الحكم المقيس.
 - الركن الثاني : العلة وهي الوصف الجامع بين الأصل والفرع. وهي الركن الأعظم من مقصود القياس.
 - الركن الثالث : حكم الأصل المقيس عليه.
 - الركن الرابع : الفرع ، وهو المقيس.
- تعريف العلة :

- تعريف العلة لغة : المرض ، يقال : اعتل إذا مرض .^(١)
- تعريفها اصطلاحاً : اختلف الأصوليون في تعريفها كثيراً ، وأكتفى بذكر تعريفين مشهورين من تعريفاتهم .
- أحدهما : تعريف جمهور أهل السنة ، والثاني تعريف المعتزلة.

^(١) لسان العرب ٤ / ٣٠٨١ ، معجم مقاييس اللغة : ٦٤٩ .

الأول : عرفها الجمهور بأنها : الوصف المعروف للحكم .^(١) ويراد به الوصف الذي جعله الشارع علامة على الحكم يعرف به وجود الحكم من غير أن يكون موجبا للحكم ، والموجب للأحكام هو الله سبحانه وتعالى.

الثاني : نقل أصوليون عن المعتزلة أنهم يعرفونها بأنها : " الوصف المؤثر بذاته في الحكم " ..^(٢) المراد بالمؤثر : ما به وجود الشيء أى : أن الحكم ثبت بسببه . وهذا التعريف بناء على أن الحكم تابع لحسنه وقبحه ، وكون الوصف مؤثرا في الحكم باعتبار ما اشتمل عليه من حسن وقبح ذاتي عندهم.

وليس تأثير العلة الشرعية كتأثير العلة العقلية ؛ فإن تأثير العلة العقلية على سبيل الإيجاب ، والشرعية على سبيل الاختيار.

قال أبو الحسين البصري^(٣) مبينا الفرق بينهما : العلة الشوعية لا تختص بهذه الشرائط - أى شرط العلة العقلية - ؛ لأنها لما كان تأثيرها في الحكم لا على طريق الإيجاب ، وإنما كان وجه تأثيرها كونها لطفا للمكلف وداعيا إلى اختيار فعل آخر صار تأثيرها متعلقا بالاختيار.^(٤)

^(١) الإيهاج شرح المنهاج ٤٣ / ٣.

^(٢) حاشية البناني على شرح الجلال المحلي ٢ / ٢٤٣.

^(٣) هو محمد بن علي الطيب البصري ، أحد أئمة المعتزلة ، وكان مبرزاً في علمي الأصول والكلام ، وله عدة مصنفات منها : المعتمد في الأصول توفي سنة ٤٣٦ هـ .

انظر : فتح المبين في طبقات الأصوليين ١ / ٢٣٧.

^(٤) شرح العمدة ٥٨ / ٢.

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحى للعلة :

اختلف الأصوليون فى بيان العلاقة بينهما ، قال البعض : إن العلة لها تأثير فى الحكم كتأثير المرض فى ذات المريض.

قال الغزالي : " العلة فى الأصل ما يتأثر المحل بوجوده ؛ ولذلك سمى المرض علة ، وهى فى الاصطلاح على هذا المذاق " .^(١)
قيل سميت العلة علة ؛ لأنها ناقلية لحكم الأصل إلى الفرع ، كالانتقال بالعلة من الصحة إلى المرض.

وقيل : العلة مأخوذة من العلل بعد الذهل ، وهو معاودة شرب الماء مرة ، بعد مرة ؛ لأن المجتهد فى استخراجها يعاود النظر بعد النظر .^(٢)

طرق إثبات العلة :

ولما كانت الأصول قسمين ، قسم معلل ، وقسم غير معلل ، والمعلل يجتمع فيه أكثر من وصف مع احتمال أن يكون كل واحد منها صالحاً للعلة ، كان لابد من إقامة دليل يميز بين الوصف الصالح للعلة عن غيره ، ولا يلتفت إلى من يقول : إن إقامة الدليل على علة الأصل غير واجب ، ولذا ذكر علماء الأصول فى كتبهم طرق إثبات العلة للوصف ، وهى المعروفة عندهم بمسالك العلة ، وإليك مجمل

^(١) شفاء الغليل : ص ٢٠ .

^(٢) قواطع الأدلة : ٤ / ١٨٧ .

هذه الطرق : (١)

الأول : نص الشارع ، وظاهره ، أو إيماءه على العلة.

الثاني : الإجماع : إذا أجمع العلماء على علية وصف لحكم ثبتت عليته،
ووجب المصير إليه.

الثالث : المناسبة : وهي كون الوصف بحيث لو رتب الحكم عليه يجلب
نفعاً أو يدفع ضرراً ، ولا يصح طريقاً لإثبات العلية إلا إذا
اعتبره الشارع ، واعتبار الشارع للوصف يكون بواحد من أربع
اعتبارات :

١- اعتبار نوع الوصف في نوع الحكم ، مثال اعتبار الإسكار في
الحرمة، فإن الشارع لما شرع التحريم عند الإسكار علم أن
الإسكار معتبر عنده ، فكان علة. فالإسكار نوع من الوصف يندرج
تحت إسكار خمر وإسكار نبيذ ، والتحريم نوع من الحكم ، تحته
تحريم خمر ، وتحريم نبيذ ، وتحريم ربا .

٢- اعتبار نوع الوصف في جنس الحكم ، مثل امتزاج النسبين مع
التقديم ، فإن امتزاج النسبين نوع من الوصف يندرج تحته :
امتزاج نسب زيد ، وعمرو وخالد ، وهم أفراد لا أنواع ، ومطلق
التقديم جنس يندرج تحته : تقديم زيد في الإرث ، وتقديم في
النكاح، وتقديم في تحمل الدية ، وكل واحد من هذه الأمور نوع

(١) شفاء الغليل : ٢٣ - ٥٠ ، الإيهام في شرح المنهاج ٣ / ٤٦ - ٨٨ ، تيسير التحرير
٤ / ٣٨ - ٥٣ .

تحتة : تقديم زيد وبكر الشقيقتين .

٣- اعتبار جنس الوصف فى نوع الحكم ، مثل اعتبار المشقة فى سقوط الصلاة ، فإن المشقة جنس ؛ لأن تحتة نوعين ، هى مشقة السفر ، ومشقة الحيض ، باعتبار أن المندرج تحت هذين النوعين أفراد ، فمشقة سفر زيد ، ومشقة سفر عمرو ، ومشقة سفر خالد أفراد لمشقة السفر ، ومشقة زينب وسعاد وفاطمة أفراد لمشقة الحيض ، وسقوط الصلاة نوع يندرج تحتة سقوط الصلاة عن زيد وعمرو وخالد وهؤلاء أفراد لا أنواع ، والشارع قد اعتبر مطلق المشقة فى سقوط الصلاة ، لأنه شرع سقوط بعض الصلاة عند مشقة السفر ، ومشقة السفر نوع من مطلق مشقة ، والنوع محقق للجنس ؛ لأنه خاص ، الجنس عام ، والخاص فيه العام وزيادة ، فالشارع باعتباره مشقة السفر يكون قد اعتبر مطلق المشقة ، وبذلك يكون جنس الوصف قد اعتبر فى نوع الحكم .

٤- اعتبار جنس الوصف فى جنس الحكم ، مثل مطلق مظنة مع مطلق حكم ، فإن المظنة من حيث هى تشمل مظنة الوطء كالخلوة بالأجنبية ، ومظنة القذف بشرب الخمر ، فإن من شرب الخمر سكر ، ومن سكرى هذى ، ومن هذى افترى ، فكان الشرب مظنة الكذب ، والافتراء ، والشارع قد اعتبر مطلق المظنة فى مطلق الحكم ؛ لأنه شرع التحريم عند مظنة الوطء حيث حرم الخلوة بالأجنبية ، ولا شك أن مظنة الوطء تحقق مطلق مظنة ؛ لأن الخاص يحقق العام ، كما أن تحريم الخلوة يحقق مطلق الحكم ؛ لأنه خاص ، ومطلق الحكم عام ، بذلك يكون الشارع عند ما اعتبر

التحريم عند الخلوة ، كأنه اعتبر مطلق الحكم عند مطلق المظنة ، وهو اعتبار الجنس في الجنس .

الرابع : الشبه : وقد اختلف العلماء في تفسيره : فقيل : الوصف الذى لا يناسب الحكم ، وعرف بالنص تأثير جنسه القريب في الجنس القريب لذلك الحكم . وقيل : وصف غير مناسب ، لكنه يوهم اشتماله على المناسبة . وقيل : ما تردد فيه الفرع بين أصليين ووجد فيه المناط الموجود في كل واحد من الأصليين ، إلا أنه يشبه أحدهما في أوصاف هي أكثر من الأوصاف التى بها مشابهته للأصل الآخر ، فإلحاقه بما هو أكثر مشابهة هو الشبه .

الخامس : الدوران : هو أن يوجد الحكم بوجود وصف وينعدم بانعدامه ، وبه يثبت الوصف المدار أنه علة للحكم الدائر معه .

السادس : السير والتقسيم : وهو أن يحصر جميع المعاني في الأصل ، ثم يختبر كل معنى من هذه المعاني ، ثم يبطل ما لا يصلح للعلية ، وما بقى منها يكون علة للحكم .

السابع : الطرد : هو أن يثبت الحكم مع الوصف فيما عدا المحل المتنازع فيه ، فيكون علة في المحل المتنازع فيه إلحاقاً للفرد بالأعم الأغلب .

اشتراط العلم في طريق إثبات العلة

ذهب أكثر الأصوليين إلى عدم اشتراط العلم في طريق ثبوت العلة ، بل يكفى الظن الحاصل عن أمانة .

وذهب آخرون إلى أنه يجب العلم في طريق ثبوتها ، والظن غير كاف^(١) ، ورأى الجمهور أقرب إلى الصواب ؛ لأن العلة لا تزيد على الأحكام الشرعية نفسها ، فإنها لا تثبت كلها عن طريق القطع ، وإنما يثبت بعضها ظناً ، كالأحكام الثابتة بالقياس ، وخبر الواحد ، والعمومات.

أقسام القياس باعتبار ذكر العلة وعدم ذكرها :

ينقسم القياس باعتبارات كثيرة مختلفة ، وأختار منها فى هذا المقام انقسامه باعتبار ذكر العلة فيه صراحة وعدم ذكرها.

وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام :^(٢)

الأول : قياس العلة : ويقصد به القياس الذى جمع فيه الأصل والفرع بالعلة سواء كانت منصوصة أو مستنبطة .

الثانى : قياس الدلالة : هو الذى لم يصرح فيه بالعلة ، وجمع الأصل والفرع بدليل العلة.

الثالث : القياس فى معنى الأصل : وهو ما ألغى فيه الفارق بين الأصل والفرع ، فيشتركان فى الحكم .

^(١) شرح العمدة ٢ / ٥٧ .

^(٢) شرح التلخيص ٢ / ٧٩٥ ، إحكام الفصول فى الأصول : ٦٢٦ ، البرهان ٢ / ٨٧٣ ، التمهيد ١ / ٢٤ ، فواتح الرحموت ٢ / ٣٢٠ .

تعريف قياس الدلالة :

قياس الدلالة لغة : المعنى اللغوي لهذا المركب يعرف بمعرفة جزئيه ، القياس ، والدلالة ؛ لأن المركب من أجزاء يعرف معناه بمعرفة أجزائه ، وقد سبق أن عرفت القياس لغة واصطلاحاً .

وتعريف الدلالة لغة : مصدر دل ، يقال : دل عليه دلالة بتثنية ، ودلولة ، فاندل ، شده إليه ، وتقول : دل الشيء يدل دلالة على كذا ، أشار ، منه قولهم : هذا مما يدل على أن الرجل مظلوم ، أى : مما يشير أو يعطى بينة أو دلالة .^(١)

الدلالة اصطلاحاً : عند أهل الأصول والجدل والمنطق هي أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر .^(٢)

والشئ الأول يسمى دالاً ، والآخر يسمى مدلولاً ، والمقصود بالشئ ما يعم اللفظ وغيره .

والمراد بالعلم في التعريف : الإدراك المطلق الشامل للتصور والتصديق القطعي والظني ، ويقصد أهل العربية والأصول باللازم مطلق اللزوم سواء كان خارجياً أو ذهنياً ، ولا يشترطون اللزوم الذهني ، وأما أهل المنطق فإنهم يقصدون باللازم اللزوم الذهني ، ولا اعتبار لللازم ما لم يكن ذهنياً في الدلالة .

^(١) ترتيب القاموس ٢ / ٢٠٦ ، الهادي إلى لغة العرب ٢ / ٥٥ .

^(٢) كشف اصطلاحات الفنون ٢ / ٢٨٤ .

ويحصل من هذا أن معنى قياس الدلالة لغة : هو القياس المنسوب إلى الدلالة أى : القياس الذى جمع فيه بين الأصل والفرع بلازم من لوازم الجامع بينهما .

تعريف قياس الدلالة اصطلاحاً :

قياس الدلالة اصطلاحاً اختلفت عبارات العلماء في تعريف قياس الدلالة.

١- قال أبو إسحاق الشيرازي ^(١): هو أن يرد الفرع إلى الأصل بغير العلة التي تعلق الحكم بها في الشريعة ، وإنما يجمع بينهما السدى يدل على العلة . ^(٢)

٢- قال القاضي أبو بكر الباقلاني ^(٣) : هو الجمع بين الفرع والأصل بما لا يناسب الحكم ، ولكن يستلزم ما يناسب الحكم . ^(٤)

^(١) هو إبراهيم بن علي بن يوسف ، الفقيه الشافعي ، الأصولي ، كان زاهدا ورعا ، له عدة مصنفات منها : التنبيه في الفقه ، اللمع في الأصول وشرحه . توفي سنة ٤٧٦هـ . انظر : الفتح المبين في طبقات الأصوليين ١ / ٢٥٥ .

^(٢) شرح اللمع ٢ / ٨٠٦ .

^(٣) هو محمد بن الطيب البصري ، المالكي ، الفقيه ، المتكلم ، الأصولي ، انتهت إليه رئاسة المالكية في عصره ، وله مؤلفات كثيرة منها : أمالي إجماع المدينة ، التمهيد في أصول الفقه ، والمقتع في أصول الفقه ، الفتح المبين في طبقات الأصوليين ١ / ٢٢٢ .

^(٤) نفائس الأصول شرح المحصول ٧ / ٣٢٢٨ .

٣- قال الزركشي^(١) : هو أن يكون الجامع وصفا لازما من لوازم العلة أو أثرا من آثارها ، أو حكما من أحكامها. (٢)

٤- قال صاحب (٣) مسلم الثبوت : قياس الدلالة ما لم تذكر فيه العلة صراحة ، ودل عليها بلازمها . (٤)

٥- قال الطوفي (٥) قياس الدلالة : هو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة ؛ لأن اشتراكهما في دليل العلة يلزم منه اشتراكهما في العلة. (٦)

(١) هو محمد بن بهادر بن عبدالله بن بدر الدين الزركشي الشافعي الأصولي الفقيه ، كان متبحرا في العلوم ، وله مصنفات كثيرة منها : البحر المحيط في أصول الفقه ، وتلخيص المصامع بجمع الجوامع في أصول الفقه ، ولقطة العملان في أصول الفقه والحكمة والمنطق توفي سنة ٧٩٤هـ انظر الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٢/ ٢٠٩.

(٢) البحر المحيط ٤٩/٥.

(٣) هو محمد بن عبد الشكور البهاري الهندي ، الفقيه الحنفي الأصولي ، المنطقي ، البحثة المحقق ، ولي قضاء لکنو ثم قضاء حيدر آباد ، وله عدة مصنفات منها : مسلم الثبوت في أصول الفقه ، ومسلم العلوم في المنطق ، ورسالة المغالطة العامة للورود توفي سنة ١١١٩ هـ . الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٣/ ١٢٢ ، الأعلام ٥/ ٢٨٥.

(٤) فواتح الرحموت ٢/ ٣٢٠.

(٥) هو سليمان بن عبد القوي نجم الدين الطوفي الأصولي الفقيه ، كان قوي الحافظة شديد الذكاء ، وله عدة مصنفات منها : مختصر الروضة وشرحها ، والذريعة إلى معرفة أسرار الشريعة توفي سنة ٧١٦هـ . الفتح المبين ٢/ ١٢٤.

(٦) شرح مختصر الروضة ٣/ ٢٣٨.

٦- قال صاحب التيسير والتحرير ^(١) هو ما لم تذكر العلة فيه ، وذكر ما دل عليها من وصف ملازم لها . ^(٢)

٧- قال الشرييني ^(٣) قياس الدلالة : هو ما عير فيه عن أحد المتلازمين بالآخر . ^(٤)

٨- قال إمام الحرمين ^(٥) قياس الدلالة : هو الذي اشتمل على ما لا يناسب بنفسه ، ولكن يدل على معنى جامع . ^(٦)

والمقصود بالمعنى الجامع : هو الوصف غير المناسب المتضمن للمناسبة ، مثاله : الاستدلال على نفوذ ظهار الذمي بأنه : من صح طلاقه صح ظهاره كالمسلم .

^(١) هو محمد بن محمد بن الحسن المعروف بابن أمير الحاج ، الفقيه الحنفي الأصولي ، وله مصنفات منها : شرح التحرير في أصول الفقه توفي سنة ٨٧٩هـ . الفتح المبين ٤٦/٣ .

^(٢) تيسير التحرير ٢٧٥ / ٣ .

^(٣) هو الشيخ عبدالرحمن الشرييني الفقيه الشافعي الأصولي المصري ، كان ورعا تقيا من مؤلفاته : تقرير على حاشية البنائي على الجلال المحلي توفي سنة ١٣٢٦هـ . الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٢ / ٢٠٣ .

^(٤) تقرير الشرييني على حاشية البنائي على شرح الجلال المحلي ٢ / ٢٠١ .

^(٥) هو عبدالملك بن أبي محمد عبدالله بن يوسف الجويني الأصولي الفقيه الشافعي ، وكان أعلم أهل زمانه بالكلام والأصول والفقه ، وله مصنفات كثيرة منها : البرهان في أصول الفقه ، كتاب التلخيص في أصول الفقه ، والورقات في أصول الفقه . توفي سنة ٤٧٨هـ ، الفتح المبين ١ / ٢٦٠ .

^(٦) البرهان ٢ / ٨٦٧ .

وجه تضمنه للوصف المشعر بالمناسبة : أن الطلاق يقتضى
تحريم البضع بالنسبة للمسلم والذمى ، وكل منهما متمكن من التصرف
فيه ، والظهار محرم كالطلاق ، وإلحاق أحدهما بالآخر مشعر بالمعنى
الجامع بينهما.

وقوله : معنى جامع يريد بقوله : معنى : تمييز قياس الدلالة عن
قياس الشبه المحض ، وهو الذى يجرى فيه إلحاق الفرع بالأصل
بوصف غير مناسب فى نفسه ، ولا مشعر بمعنى مناسب ، مثاله :
قياس الوضوء على الصلاة فى وجوب الموالاة ، بجامع أن كلا منهما
قربة ينقضها الحدث ، وليس بين كونها قربة ينقضها حدث ، ووجوب
الموالاة مناسبة ، ولا ما يشعر بالمناسبة ، وهذا التعريف عنده لنوع من
قياس الدلالة ؛ لأن قياس الدلالة عنده نوعان :

أحدهما : هذا المعروف ، والآخر بمعنى قياس الشبه ، وهو ما
كان الإلحاق فيه بوصف غير مناسب ولا دال على المناسب ، ولكن
يغلب على الظن ربط الحكم به ؛ لأنه يرى أن قياس الدلالة تارة فيه
وصف ينبئ عن المناسبة وتارة شبه يغلب على الظن إناطة الحكم به ،
حيث قال عن قياس الدلالة : " ولا معنى لعدده قسما على حياله وجزءا
منه على استقلاله ؛ فإنه يقع منبئا عن معنى تارة وتارة شبيها ، وهو فى
طوريه لا يخرج عن قياس المعنى أو الشبه " (١).

(١) البرهان ٢ / ٨٨٠ . ومناسب الشبه عنده ثلاثة أقسام :

الأول : إلحاق الشيء على قرب بالمنصوص عليه وهو المسمى بقياس فى معنى
الأصل وهو مقطوع به . الثانى : قياس الدلالة . الثالث : قياس الشبه المحض ، وهو

ومثال هذا النوع الاستدلال على وجوب النية في الوضوء بأنه :
طهارة من حدث وجبت فيها النية كالتيتم ، لا مناسبة بين كونها طهارة
من حدث ووجوب النية ، ولكن يغلب على الظن أن هذا الشبه علامة
جامعة بين الأصل والفرع .

مثال آخر : في الاستدلال على صحة ظهار الذمي بأنه : صح
طلاقه صح ظهاره كالمسلم .

وإذا اعتبرنا الأصل في هذا القياس المسلم وظهاره ، والفرع
الذمي وظهاره ونفوذ الطلاق من المسلم والذمي جامعا بينهما ، فإن هذا
الجامع يغلب على الظن في ربط الحكم به .

قال ابن الهمام : ^(١) هو ما لم تذكر - العلة - فيه بل ما يدل
عليها . ^(٢) التعبير بالملازم دون اللازم يدل على أن المعتبر في اللازم
من الجانبين . ويقصد به القياس الذي جمع فيه بين الفرع ، والأصل
بوصف لازم للوصف المناسب الذي هو العلة من غير ذكرها اكتفاء
بدلالة الملازم لها ، وقد مثل له بمثلين :

ما جمع فيه بين الأصل والفرع بوصف غير مناسب أصلا ولا هو مشعر بالمناسبة .
البرهان ٢ / ٦٨٨ - ٨٧٣ .

^(١) هو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد الفقيه الحنفي الأصولي المشهور بابن الهمام ،
كان حجة في الفقه وأصوله ، وله عدة مصنفات منها : التحرير في أصول الفقه ،
وفتح القدير في الفقه ، توفي سنة ٨٦١ هـ . الفتح المبين في تطبيقات
الأصوليين ٣ / ٣٦ - ٣٩ .
^(٢) تيسير التحرير ٣ / ٢٧٥ .

الأول : استدلال الشافعي رحمه الله على ضمان السارق الذي قطعت يده لمسروق في حالة هلاكه ، بأنه يجب رده قائما فيجب رده في حالة هلاكه قياسا على المغصوب ، فإنه يجب رده قائما وضمانه هالكا بجامع أن كلا منهما فيه اعتداء على حق الغير ، وهذا الوصف لازم للعلة المناسبة ؛ لأنه العلة الحقيقية في رد مال الغير من الغاصب قائما وضمانه هالكا هي قصد الشارع حفظ مال الغير ، ورد المال من المعتدى لازم لحفظ المال لصاحبه.

الثاني : الاستدلال على وجوب الحد على شارب النبيذ بقياسه على الخمر بجامع أن الرائحة الشديدة الدالة على الطرب ، فإن الرائحة الشديدة وصف للإسكار الذي هو علة تحريم الخمر ، وهو وصف يشتمل على المناسبة ، بخلاف الرائحة الشديدة ، فإنها لا مناسبة بينها وبين تحريم الخمر.

وهذا القدر من التعريفات كاف في توضيح مقصود الأصوليين من قياس الدلالة ، ومحصلها : أنه ما جمع فيه بين الأصل والفرع بوصف غير مناسب يدل على العلة ، سواء كان لازما من لوازمها أو وصفا شبيها يغلب على الظن أنه متضمن للعلة الغائبة عن المجتهد ، وهذا على مذهب من جعل قسما من الشبه من قياس الدلالة.

أقسام قياس الدلالة :

وعلى هذا يكون قياس الدلالة على ثلاثة أقسام :

الأول : ما جمع فيه بوصف غير مناسب دال على العلة.

الثانى : ما جمع فيه بوصف غير مناسب يظن أنه متضمن للعلة.

الثالث : ما جمع فيه بوصف شبهى يظن تعلق الحكم به.

وكل قسم من هذه الأقسام تحته أنواع ، وإليك بيان أنواع كل قسم مع الأمثلة.

أنواع القسم الأول أربعة على النحو التالى :

النوع الأول : أن يكون الدال علة فيه وصف لازم لذات العلة ، كما فى قياس التنبذ على الخمر بجامع شدة الرائحة الدالة على الطرب ؛ فإنها تدل على الإسكار ، وهى لازمة لذات الإسكار .

النوع الثانى : أن يكون الدال علة فيه وصف هو أثر من آثار العلة ، كما فى قياس القتل بالمتقل على القتل بالمحدد فى وجوب القصاص بجامع الإثم فى كل منهما ، والإثم ليس بعلة فى وجوب القصاص ، وإنما هو دال على العلة وهى القتل .

النوع الثالث : أن يكون الوصف الدال فيه على العلة حكم من أحكام العلة ، كما فى قياس قطع أيدى الجماعة بقطع اليد الواحدة على قتل الجماعة واحدا فى وجوب القصاص عليهم جميعا بجامع وجوب الدية على الجميع ؛ فإن وجوب الدية حكم دال على العلة وهى القتل .

النوع الرابع : أن يكون الوصف الدال على العلة أحد النتيجتين المتلازمتين لعلة واحدة ، فيستدل بأحدهما على العلة وبالعلة على النتيجة الثانية ، مثاله : فى الاستدلال على أن المكره يجب عليه القصاص عند الشافعى بأن المكره يأثم إذا صدر منه القتل فوجب عليه

تتساص كالمكره ، فالإثم ووجوب القصاص أثران للقتل ، ثم إن وجود الإثم يدل على علة التأثيم ، وعليه يدل على وجوب القصاص.^(١)

أنواع القسم الثاني أربعة على النحو التالي :

الأول : قياس شئ على شئ بجامع خاصية في كل منهما ، فإن وجود خاصية الشئ يدل على وجود الشئ وعدمها على العدم ، وهذا يغلب على الظن أن هذا الوصف متضمن لعلة الحكم ، مثاله : قياس الوتر على النوافل في كونه ليس بواجب ، بجامع أن كلا منه يؤدي على الراحلة ، وكون النوافل تؤدي على الراحلة خاصية فيها ، وهي معروفة بالشرع ، ولا تؤدي الفرائض على الراحلة.

الثاني : قياس شئ على شئ بجامع وجود نتيجة فيهما ، فلإن وجود النتيجة يدل على وجود المنتج ، وعدمها على عدم المنتج ، وهذا يغلب على الظن أن هذا الوصف يتضمن علة الحكم الغائبة عن المجتهد ، مثاله : قياس بيع مال الغير على بيع ما لا يملك في أنه لا ينعقد البيع بجامع أن كلا منهما لا يفيد الملك ، فإن عدم إفادته الملك نتيجة لبيع ما لا يملك.

الثالث : قياس الشئ على الشئ لكونه نظيرا له ، فإن كون الشئ نظيرا لآخر ، يغلب على الظن اشتراكهما في علة الحكم يثبت الحكم لأجلها ، مثاله : الاستدلال على صحة ظهار الذمي ، بقياس ظهاره على طلاق المسلم بجامع أن كلا من الظهار والطلاق نظير للآخر ؛ لأنهما يقتربان

(١) شرح مختصر الطوفي ٣ / ٤٣٨ ، التقيحات في أصول الفقه : ٢٥٩.

ثبوتاً ونفياً في حق المسلم ، ثبوتاً في حق المسلم ، ونفياً في حق الصبي المسلم ، وكونهما نظيرين يغلب على الظن اشتراكهما في علة يثبت الحكم لأجلها ، ولما صح الطلاق من المسلم والذمي ، كذلك الظهار يصح منهما .^(١)

مثال آخر : قياس الأمر في اقتضائه الوجوب على النهي الذي يقتضي ترك الفعل على سبيل الوجوب بجامع أن كلا منهما نظير للآخر ؛ لأنهما نوعان للطلب ، الأمر طلب للفعل ، والنهي طلب لترك الفعل ، وكونهما نظيرين يغلب على الظن اشتراكهما في العلة .^(٢)

مثال آخر : استدلال الشافعي على وجوب الزكاة على الصبي والمجنون بقياس الزكاة على العشر بجامع أن كلا منهما نظير للآخر ، وهذا يغلب على الظن اشتراكهما في العلة ؛ لأنهما اتفقا في الوجود ، فلا يوجد أحدهما إلا بوجود الآخر ، ولا يعدم أحدهما إلا بعدم الآخر .

الرابع : قياس الاسم الخاص على الاسم الخاص ، مثاله : الاستدلال على عدم صحة إزالة النجاسة بالخل قياساً على رفع الحدث به بجامع أن كلا منهما طهارة شرعية ، واشتراكهما في الاسم الخاص يظن أنهما يشتركان في العلة .^(٣)

(١) شرح التلح / ٨٠٩ .

(٢) التمهيد / ١ / ٢٤ .

(٣) التمهيد / ١ / ٢٩ .

أنواع القسم الثالث : هذا القسم على نوعين :

الأول : الشبه في الحكم ، مثاله : الاستدلال على وجوب الترتيب في الوضوء بقياس الوضوء على الصلاة بجامع أن كلا منهما عبادة يبطلها الحدث ، ولا مناسبة بين كونها عبادة يبطلها الحدث ووجوب الترتيب في الصلاة ، ولكن يظن تعلق الحكم بها.

الثاني : شبه في الصورة المجردة ، مثاله : الاستدلال على سقوط القعدة الأخيرة في الصلاة على القعدة الأولى بجامع أن كلا منهما قعود.

الفرق بين قياس العلة والدلالة :

بعد بيان قياس الدلالة وأقسامه بحسن ذكر الفرق بينه وبين قياس العلة أو المعنى ، قبل الحديث عن حجية قياس الدلالة ، زيادة في الإيضاح ، وبيان الفرق بينهما من النواحي الآتية :

أولاً : قياس العلة يكون الوصف فيه علامة يتعلّق بها الحكم كتعلّق المعلول بالعلة العقلية ^(١) ، وقياس الدلالة يكون الوصف فيه علامة دالة

^(١) العلة الشرعية والعقلية تتفقان في شئ وتختلفان في أشياء ، فتتفقان في أن كل واحدة منهما بها من التعلّق بالحكم التي هي علة له ما ليس لغيره ، وإن كان ما للعلة الشرعية من التعلّق والتأثير ليس يساوي ما للعلة العقلية وتفتقران فيما يأتي :

١- العلة العقلية لا تحتاج في اقتضاها الحكم إلى شرط ، بخلاف الشرعية فإنها ربما احتاجت في اقتضاها للحكم إلى شرط.

٢- العلة العقلية إذا وجدت يوجد معها الحكم العقلي ، وإذا انعدمت انعدم ، بخلاف الشرعية لا يلزم من انعدامها انعدام الحكم إلا على مذهب من لا يرى تخصيص العلة.

على الحكم ولا يتعلق بها الحكم كتعلق العلة بالمعلول .

ثانيا : قياس العلة يكون الوصف فيه متقدما على الحكم ذهنا وعينا ،
وقياس الدلالة الوصف فيه متأخر عن الحكم ذهنا وعينا .^(١)

ثالثا : قياس الدلالة فيه يجوز تقدم ثبوت الفرع على الأصل لجواز تأخر الدليل عن المدلول ، كالأثر عن المؤثر ، بخلاف العلة عن المعلول ، فإنه لا يجوز ؛ لأن الحكم يحدث بحدوث العلة ، فلو تأخرت عنه صار المتقدم متأخرا .^(٢)

رابعا : قياس العلة الوصف فيه دال على الحكم ، وقياس الدلالة الوصف الجامع فيه دال على العلة.

خامسا : قياس العلة اتفق القائسون على حجيته ، بخلاف قياس الدلالة فإنهم اختلفوا في حجيته.

٣- العلة الشرعية كما تدل على الحكم يدل غيرها عليها ، فيثبت الحكم الواحد بعثنين ، فإذا زالت إحداهما بقيت الأخرى ، ولذلك لا يلزم من انعدام العلة انعدام الحكم لاحتمال بقائه بعلة أخرى ، بخلاف العقلية فلا يثبت الحكم العقلي بعليتين أبدا .

٤- العلة العقلية تقتضى حكيمين مختلفين ، بخلاف الشرعية فإنها لا يجوز أن تقتضى حكيمين مختلفين . شرح العمدة ٥٩ / ٢ ، الواضح ١ / ٣٨٠ - ٣٨١ .

(١) التنقيحات في أصول الفقه : ٢٦٣ .

(٢) شرح مختصر الروضة ٣ / ٣١٣ .

حجية قياس الدلالة :

ظهر من خلال البحث أن قياس الدلالة ثلاثة أقسام:

القسم الأول : الجمع بين الأصل والفرع بلازم العلة.

القسم الثاني : الجمع بينهما بوصف مشعر بالعلة ، وهذان القسمان في الحقيقة يندرجان في جملة قياس العلة ؛ لأن مرجعهما إلى الجمع بالعلة لتضمن كل واحد منهما المساواة في العلة ، وقياس العلة حجة باتفاق القياسيين بالأدلة الدالة على حجية القياس ، وكتب أئمة الفقه على مدار العصور مليئة بهذين القسمين احتجاجاً بهما من غير تكير مما يدل على صحة العمل بهما.

قال الإمام فخر الدين الرازي : قياس الدلالة مشعر بالمعنى الجالب للحكم ، وإن كان بواسطة ، وعلى الجملة : إما أن يكون مشعراً بوجه الشبه ، فيدخل في أقسام الشبه وهو حجة عند الأكثرين ، وإما أن يدل على المعنى ، فيندرج في جملة قياس المعنى ، وقياس المعنى حجة باتفاق القياسيين. ^(١)

القسم الثالث : الجمع بين الأصل والفرع بوصف شبهي يظن تعلق الحكم به ، وقياس الدلالة بهذا المعنى اختلف الأصوليون في حجته :

ذهب أكثر المالكية ، والشافعية ، والحنابلة ، وبعض الحنفية إلى أنه حجة.

^(١) انظر الكاشف عن أصول الدلائل وفصول العال : ١٣٩.

وذهب بعض الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والحنابلة إلى أنه ليس بحجة .^(١)

أدلة الفريق الأول ومناقشتها :

١- ولما كانت العلة الشرعية ليست كالعلة العقلية ، وإنما هي علامات على الحكم بوضع الشارع ، فلا فرق بين أن يجعل شبه الفرع بالأصل دليلاً عليه في حكم من الأحكام ، وبين أن يجعل العلامة علة للحكم.^(٢)

٢- قياس العلة وقياس التشبه معناهما واحد في الحقيقة ، وإنما الفرق بينهما : أن الحكم في قياس العلة معلق كتعليق المعلول بالعلة العقلية ، وفي قياس التشبه معلق على العلامة لا على سبيل تعليق المعلول بالعلة العقلية .

٣- رسالة عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، حيث قال :
الفهم الفهم فيما تلجلج في نفسك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشياء والأمثال ، فقس عند ذلك على أشباهها بالحق .^(٣)

^(١) إحكام القصول في أصول الأحكام ٦٢٩ - ٦٣٠ ، قواطع الأدلة ٤ / ٢٥٣ ، الإيهام في شرح المنهاج ٣ / ٧٤ ، شرح اللمع ٢ / ٨١٣ ، التمهيد في أصول الفقه ١ / ١٩ ، شرح مختصر الطوفي ، ٣ / ٤٣١ ، شرح الكوكب المنير ٤ / ١٩٠ ، تيسير التحرير ٣ / ٥٣ ، ميزان الأصول : ٦٠٨ .

^(٢) إحكام القصول في أحكام الأصول ٦٢٩ - ٦٣٠ .

^(٣) أخرجه الدارقطني في السنن ٤ / ٢٠٦ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١ / ١١٥ .

وهي نص في الاحتجاج بقياس الشبه ، وقد تلقى العلماء هذه الرسالة بالقبول ، وأجمعوا على صحة العمل بها .^(١)

الجواب : قول عمر رضي الله عنه " اعرف الأشباه " يريد به : أن تستنبط المعنى ثم تقيس عليه بعد ذلك ؛ لأن من جهل المعنى لا يسمى عارفاً .

يمكن أن يرد على هذا بأن هذا عدول عن الظاهر بغير موجب ، على أن من عرف الشبه الذي يظن ربط الحكم به يسمى عارفاً أيضاً .

٤- الشبه يقتضي غلبة الظن في إلحاق الفرع بالأصل ، والظن يجب العمل به ، أصله خير الواحد والعموم وقياس العلة .^(٢)

الاعتراض عليه من وجهين :

الوجه الأول : العمل به أصل والأصل لا يثبت إلا بالمقطوع به ، فلا يثبت حجية الشبه بالظن .

يمكن أن يجاب بأن الشبه يفيد غلبة الظن وهي تنزل منزلة العلم .

الوجه الثاني : قال البعض إن الشبه لا يفيد الظن .^(٣)

^(١) إحكام الفصول : ٦٣٠ .

^(٢) التلخيص ٣ / ٢٤٣ ، البرهان ٢ / ٨٧٧ ، قواطع الأدلة ٤ / ١٦٤ .

^(٣) البرهان : ٢ / ٨٧٤ .

ويمكن أن يجاب على هذا بأنه يشبه المكابرة فلا يلتفت إليه.

قال إمام الحرمين : النظر في الشبه يوقع في مستقر العادة غلبة الظن ، كما أن النظر في المعنى يوجب ذلك ، ومن أنكر وقوع الظن كان جاحدا للعلم على القطع فإن العلم بوقوع الظن مقطوع به . (١)

٥- إن القياس تمثيل الشيء بالشيء وتشبيهه به ، والشيء إنما يمثل بما يشابهه ، فيجب إلحاقه بما يشابهه جريا على هذا الأصل.

يمكن أن يعترض عليه بأنه في محل النزاع فلا يحتج به.

٦- الشيء إذا شابه الشيء ، الظاهر أنه مثله ، والظاهر يجب العمل به . (٢)

الاعتراض : يمكن أن يقال أيضا : الشيء إذا فارق الشيء ، الظاهر أنه لا يكون مثله ، وليس الجمع بالشبه بأولى من التفرقة بالفارق ، بل التفرقة أولى ؛ لأن الأصل التفرقة .

الجواب : ليس كل شيء يصح ربط الحكم به ، وإنما يربط به بشبه ظهر وسلم بعد السير عن البطلان لظهور ما هو أولى منه يجوز الاعتماد عليه . (٣)

(١) المصدر السابق.

(٢) التمهيد ١ / ٣١.

(٣) شفاء الغليل : ٣٧٢.

٧- إجماع الصحابة على العمل بقياس الشبه في جزاء الصيد ،
وشبهوا النعامة بالبدنة ، وشبهوا الحمامة بالشاه .^(١)

الاعتراض : هذا ليس من قياس الشبه المختلف فيه ؛ لأن الشارع نص
على المثل وحصر في النعم ، وعلى المكلف تحقيق الوصف الذي تقع
عليه المماثلة ، وهو تحقيق مناط الحكم.

٨- الصحابة كانوا يلحقون ما لا ينص على حكمه بالمنصوص على
حكمه ، إذا غلب على ظنهم أنه يساويه في الحكم سواء كان يشبهه
أو بعلة .^(٢)

الاعتراض : الصحابة اعتبروا المعنى المؤثر في القياس ، ولم
يعتبروا الشبه ، وروى أن علياً قال لما قبض النبي ﷺ : نظرنا في
أمرنا فوجدنا النبي ﷺ قدم أبا بكر في الصلاة ، فرضينا من رضى
رسول الله لدينا فقدمنا أبا بكر .^(٣)

قال علي ﷺ : إذا شرب هذى وإذا هذى افترى ، فعليه حد
المفترى .^(٤)

الجواب : يمكن أن يجاب من وجهين .

^(١) الوصول إلى الأصول ٢ / ٢٩٧ ، قواطع الأدلة ٤ / ٢٦٠ .

^(٢) البرهان : ٢ / ٨٧٤ .

^(٣) انظر طهقات ابن سعد ٣ / ١٨ .

^(٤) أخرجه مالك في الموطأ ١ / ٢٤٧ ، والحاكم في المستدرک ٤ / ٣٧٥ ، والبيهقي في
السنن ٨ / ٢٢٠ .

الأول : هذا استدلال منهم بالمعنى المؤثر ، ولا يلزم منه عدم استدلالهم بالشبه إذا غلب على الظن.

الثاني : معارض بمثله ، فإنه صدر منهم اعتبار الشبه في الأحكام في كثير من المسائل.

٩- قياس الشبه على قياس العلة في صحة العمل به بجامع أن كلا منهما إلحاق فرع بأصل بجامع. ^(١)

الاعتراض عليه من وجهين :

الأول : أن العمل بالشبه أصل من الأصول ، فلا يثبت بمثل هذا الدليل المظنون ، ولأن الأصل عدم العمل بالقياس ، وثبت العمل به بإجماع الصحابة ، ولم يرد من الصحابة العمل بالشبه ، فلا يجوز العمل به.

الجواب : يمكن أن يجاب :

أولا : كونه مظنونا لا يمنع الاحتجاج به في إثبات العمل بالشبه ؛ لأن الشبه طريق لإثبات الأحكام الشرعية الفرعية ، ولذا بعض العلماء لا يرى طلب القطع في إثبات الأصول لكونها أقرب إلى إثبات الأحكام الفرعية.

قال ابن عقيل : أصول الفقه لا يطلب لها القطعيات من الأدلة إذا كانت إثبات الأحكام أقرب ، وعن أصول الدين أبعد ، ولذا لا يفسق

^(١) التلخيص ٣ / ٢٤٩.

المخالف فيها ولا نبذعه .^(١)

ثانيا : لا نسلم أن الصحابة لم تعمل بالشبه ، بل عمل به بعضهم.

الوجه الثاني للاعتراض : القياس مع الفارق ، فإن قياس العلة فيه الوصف مناسب ، فأما قياس الشبه فالوصف غير مناسب.

لم أجد ردا عند المخالفين على هذا الاعتراض ، وهو وجيه لا محيص عنه.

أدلة من ذهب إلى عدم حجيته ومناقشتها .

١- إن الوصف الذي جعل علة في قياس العلة إذا تبين وعلم أنه ليس بعلة يفسد ويمتنع تعلق الحكم به ، كذلك يمنع تعليق الحكم بالشبه الذي اتفق المختلفون على أنه ليس بعلة .^(٢)

الاعتراض : ذلك يرجع إلى الدليل ، فإنه إذا لم يدل الدليل على تعليق الحكم بالوصف التنبهى يمنع تعليق الحكم به ، كما أنه إذا لم يدل الدليل على تعليق الحكم بالعلة يمنع التعليق بها ، فلا فرق بين قياس العلة والشبه في هذا .

٢- الاحتجاج بالشبه يؤدي إلى إثبات أحكام متضادة ، وهو باطل ؛ لأنه ما من فرع إلا وهو يشبه الأصل من وجه ، ويخالفه من وجه آخر ، وليس الجمع بين الأصل والفرع من وجه الموافقة بأولى من

^(١) الواضح ٥ / ٣٣١ .

^(٢) إحكام الفصول في الأصول : ٦٣١ ، قواطع الأدلة ، ٤ / ٢٥٦ .

وجه المخالفة ، فيثبت به أحكام متضادة. ^(١)

الاعتراض : لا يؤدي إلى ذلك ؛ لأنه لا يحكم للفرع بحكم الأصل بمجرد الشبه بينهما ، وإنما يحكم له إذا قام الدليل على الجمع بينهما لأجل الشبه أولى من التقريب بينهما لأجل الاختلاف.

٣- المشابهة في الأوصاف لا توجب المساواة في الأحكام ؛ فإن جميع المحرمات يشابه بعضها بعضا في الأوصاف ، وتختلف في الأحكام. ^(٢)

٤- المشابهة فيما يتعلق به الحكم لا يوجب المشاركة في الحكم ؛ لأن العلة هي الجالبة للحكم، فما لا يتعلق به الحكم لا يجلب الحكم. ^(٣)

الاعتراض : يمكن أن يعترض عليه بأن هذا الدليل في محل النزاع فلا يحتج به ؛ لأن محل الخلاف في تعلق الحكم بالشبه.

٥- إن مجرد الشبه صورة أو حكما لا يشعر بالمناسبة بين العلة والحكم ، فأنشبه مجرد الطرد ^(٤) ، والعمل بالطرد باطل. ^(٥)

^(١) أحكام الفصول في أحكام الأصول : ٦٣٠ ، قواطع الأدلة ، ٤ / ٢٥٦.

^(٢) قواطع الأدلة ٤ / ٢٥٦ ، البرهان ٢ / ٨٧١.

^(٣) المصدران السابقان.

^(٤) الطرد عند إمام الحرمين : هو الذي لا يناسب ولا يشعر به ، وقال أيضا : الطرد تحكم محض لا يعضده معنى ولا شبه ، وعند الغزالي : كل وصف ظهر ولكنه ظهر في مقابلته وصف آخر ، إما على البديهة أو بالتأمل ، وهو أولى وأخص من الأول ، فالأول لا يجوز الاعتماد عليه. الشبه عنده : كل وصف ظهر وسلم بعد المسير عن البطلان لظهور ما هو أولى منه. البرهان ٢ / ٧٨٨ ، ٨٦٠ ، شفاء الغليل : ٣٧٢.

سراض : عيه من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : القياس مع الفارق ؛ لأن الطرد تحكم محض ، والشبه يقرب الفرع من الأصل في الحكم المطلوب فافترقا .

الوجه الثاني : لو طلب المناسبة في كل قياس لتجردت كثير من مسائل الفقه من الدليل ؛ لأن أكثر مسائل أدلتها القياس ، وكثير منه لا مناسبة فيه .

قال إمام الحرمين : " من مارس مسائل الفقه وترقى عن رتبة الشادين فيها ، ونظر في مسائل الاعتبار تبين أن المعنى المخيل لا يعم وجوده المسائل ، بل لو قيل لا يطرد على الإخالفة المشعرة عشر المسائل لم يكن مجازفا ، وهذه الطريقة إنما يدرىها من توغل في مسائل الفقه" .^(١)

الوجه الثالث : يمكن أن يعترض عليه بأن الدليل في محل النزاع ؛ لأن محله الاحتجاج بالشبه الذي لا مناسبة بينه وبين حكم الأصل ، والاستدلال في محل النزاع باطل .

٦- قول القائس : إن الفرع كالأصل لا يخلو ، إما أن يكون قوله عن علم أو ظن ، فلا بد من مستند لهما ، أو يكون قوله عن لا علم ولا ظن ، وهذا لا يجوز ؛ لأن حكم الله لا يثبت بالجزاف ، وإن قصد تشابههما في وجه يغلب على الظن تشابههما في الحكم ، وهذا

(١) البرهان ٢ / ٨٧١ ، قواطع الأدلة ٤ / ٢٥٧ .

(٢) قواطع الأدلة ٤ / ٢٦٠ .

باطل؛ لأنه إذا كانت المشابهة في وجه يفيد ظنا فالمفارقة في سائر
الوجوه تبطل الظن وتشوش على الظان ظنه .^(١)

الاعتراض : يمكن أن يقال : نلتزم أن قوله لظن وله مستند ؛ لأن
المجتهد لا يعتبر الشبه جزافا ، وإنما يعتبره بعد سير سائر الأشياء سيرا
حاصرا ، وما ترجح له من الأشياء يظن أنه مناط الحكم الدال على العلة
الغائية عنه .

٧- الأصل في القياس إجماع الصحابة ، والمنقول عن الصحابة النظر
في المصالح والعلل المظنونة ، وأما العمل بمجرد الشبه فلم ينقل
عنهم بوجه ما .^(٢)

الاعتراض عليه من وجهين :

الوجه الأول : المنقول عن الصحابة لم ينحصر في هذا ، فإن بعض
الصحابة استدل بوصف شبيهي ، إن عليا وزيدا عليهما السلام استدلا
في توريث الإخوة مع الجد بالشبه ، حيث قال علي عليه السلام :
إنهم بمنزلة خليج انخلج منه خليجان ، فأحدهما أقرب من
الآخر^(٣) ، وكذلك روى أن عمر رضي الله عنه كان يشك في قود
القتيل الذي لشرتك في قتله سبعة فقال له علي رضي الله
عنه : يا أمير المؤمنين أرأيت لو أن نفرا اشرتكوا في

^(١) قواعد الأدلة ٤ / ٢٥٩ .

^(٢) قواعد الأدلة ٤ / ٢٥٩ .

^(٣) مصنف عبدالرزاق : ١٠ / ١٦٥ ، سنن البيهقي الكبير ٦ / ٢٤ .

سرقة جزور ، فأخذ هذا عضوا ، وهذا عضوا ، ألسنت قاطعهم ؟ ، قال : نعم ، قال فذلك ^(١) . ومراذه بقوله : " فذلك " أى : أنه مثله .

وهذا قياس شبهى بين ، وقد اتفق عليه هذان الإمامان عليهما السلام .

وقال زيد عليه السلام : الإخوة بمنزلة أغصان الشجرة فاللبعض إلى البعض أقرب. ^(٢)

قال الغزالي رحمه الله : المنقول عنهم لم ينحصر فى هذا ، بل فهم من مسائلهم اتباعهم غليات الظن ، وهو الحكم بالراجح. ^(٣)

الوجه الثانى من الاعتراض : لازم من عدم عمل الصحابة به عدم جوازه ، لجواز أن يدل عليه دليل آخر .

هذا الاعتراض يمكن الرد عليه بأنه : إذا ثبت أن الصحابة تركوا العمل به لا يصح الاحتجاج به ؛ لأنه لا دليل فى الواقع أقوى من إجماعهم يدل على العمل به .

٨- الوصف الشبهى إن كان مناسبا فهو معتبر بالاتفاق ، وإن كان

^(١) مصنف عبدالرزاق ٤٧٧ / ٩ [رقم ١٨٠٧٧] .

^(٢) أخرجه عبدالرزاق فى مصنفه ٢٦٥ / ١٠ .

^(٣) ثناء الغليل : ٣٥٦ .

غير مناسب ^(١) فهو الطرد المردود بالاتفاق . ^(٢)

الاعتراض عليه من وجهين:

الوجه الأول : ليس كل وصف غير مناسب مردودا بالاتفاق ؛ لأن الوصف غير المناسب إذا كان مستلزما لمناسب فهو مقبول عند البعض ، وكذلك إذا شهدت له الأصول لا يرد .

الوجه الثاني : القول بأن الوصف غير المناسب مردود في محل النزاع ؛ لأن الشبه المختلف وصف غير مناسب .

٩- القانس إما أن يعلم المعنى المقتضى للحكم فقياسه قياس معنوي ، وإما أن لا يعلم المعنى المقتضى للحكم فإلحاق الفرع حينئذ بالأصل تحكم يمتنع شرعا . ^(٣)

الاعتراض : لا يجب على القانس أن يقطع بوجود المعنى في الأصل ، وإنما يجوز له الإلحاق بالظن ، فإذا ظن أن الحكم لهذا المعنى جاز له الإلحاق ، كذلك إذا ظن أن الشبه يدل على العلة الغائبة عنه جاز له العمل به .

^(١) اختلف الأصوليون في اشتراط المناسبة في الوصف الجامع بين الأصل والفرع ، ذهب الأكثر إلى الاشتراط ، وذهب آخرون إلى عدم الاشتراط ، انظر : الأحكام للأمدى ٣ / ١٨٦ ، نشر البنود ٢ / ١٣٠ ، مختصر ابن الحاجب ٢ / ٣١٣ ، شرح مختصر الروضة ٣ / ٣١٦ ، تيسير التحرير ٤ / ٢ .
^(٢) المحصول ٥ / ٢٨١ ، إرشاد الفحول : ١٧٣ .
^(٣) كتاب التلخيص ٣ / ٢٣٩ ، التمهيد ١ / ٣٠ .

لو كان مجرد الشبه كافيا في إلحاق الفرع بالأصل لما احتاج القياس إلى تفكر واجتهاد، واشترك العالم والعامي في القياس ، والإجماع قائم على الفرق بينهما .

الاعتراض : يمكن أن يعترض عليه بأن قياس الشبه يحتاج إلى المسير الحاصر للأشياء في الأصل والتأمل لمعرفة أقرب شبه يظن ربط الحكم به ، ومثل هذا لا يصدر من العامي.

١١- وقد استدل ابن القيم على بطلان قياس الشبه بأنه ورد في القرآن مذموما ومردودا ، وقد حكاه الله تعالى عن المبطلين ، وساق أمثلة على ذلك ، وإليك بعض الأمثلة :^(١)

(١) قوله تعالى إخبارا عن إخوة يوسف عليه السلام أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيه " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل " .^(٢)

فألحقوا أحدهما بالآخر من غير علة ولا دليلها بمجرد الشبه بينهما.

الجواب : يرد على هذا الاستدلال من وجهين.

الأول : إن هذا خارج موضوع النزاع ؛ لأن الشبه المختلف فيه هو ظن المجتهد دلالاته على العلة الجامعة بين الأصل والفرع بعد التسلل

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين : ١٤٨ - ١٥٠ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٧ .

وسير أوصاف المحل ، وليس مجرد الشبه.

الثاني : أن بطلانه لا لكونه قياس شبه ، وإنما لعدم تحقق الحكم فى الأصل ، وهو السرقة ؛ لأنه لم يصدر من يوسف عليه السلام حقيقة السرقة .^(١)

٢) قوله تعالى إخبارا عن الكفار : أنهم قالوا : " ما نراك إلا بشرا مثلنا " (٢)

فألحقوا نوحا عليه السلام بأنفسهم بمجرد الصورة الأدمية بلا اشتراك فى الحكم.

الجواب : بطلان هذا القياس لكونه قياسا مع الفارق ؛ لوجود الفرق بينهم وبين نوح عليه السلام ، حيث من الله تعالى عليه بالرسالة بدليل جواب الرسل على الذين أنكروا رسالتهم لكونهم بشرا مثلهم بقولهم : " إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن

(١) اختلف المفسرون فى السرقة التى نسيوها إليه عليه السلام على أقوال :

- ١- كان جده أبو أمه كافرا يعبد الأصنام ، فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان ، ويكسوها فلعله يترك عبادة الأوثان ، ففعل ذلك .
 - ٢- قيل سرق حاجة من أبيه ودفعها إلى المساكين.
 - ٣- وقيل : إنهم قالوا ذلك عليه وبهتوه ، وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف عليه السلام بعد انقضاء تلك المدة الطويلة .
 - ٤- وقيل غير ذلك.
- (٢) سورة هود الآية : ٢٧.

على من يشاء من عبادة " : (١)

وفي هذه الآية إشارة إلى صحة قياس الشبه ؛ لأنه لو كان باطلا أصلاً لبين الرسل عليهم السلام بطلانه ، ولا يودون عليهم بنفى الفارق بين المقيس والمقيس عليه ؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يصلح. (٢)

قال الفخر الرازي : إن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك ، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة ؛ لأن هذا المنصب منصوب بمن الله تعالى به على من يشاء من عباده . (٣)

(٣) قوله سبحانه وتعالى : " وقال المأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تاكلون ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون " (٤)

فقاوسوا الرسول على أنفسهم بجامع الشبه ، وهو الأكل والشرب الحاصل من الجميع في نفى كونه رسولا .

(١) سورة إبراهيم الآية : ١١ .

(٢) هذا معروف عند الأصوليين بالقول بالموجب ، وهو موافقة المسائل المستول في حكم العلة وموجبها مع استثناء النزاع في المسألة أو في بعض صورها . الكاشف عن أصول دلائل ١٠٩ .

(٣) تفسير الفخر الرازي ١٩ / ١٨ .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية ٣٣ ، ٣٤ .

الجواب : ليس فى هذا دليل على بطلان أصل العمل بالشبه ؛ لأنه ليس من نوع الشبه المختلف فيه.

(٤) قوله سبحانه وتعالى حكاية عن المشركين : " قالوا إنما البيع مثل الربا " ففاسوا الربا على البيع بمجرد الشبه الصورى ، وهو أن كلا منهما مبادلة مال بمال.

الجواب : ليس فى هذا أيضا ما يدل على منع أصل قياس الشبه ؛ لأن الشارع لم يتعرض لأصل القياس بالإبطال ، وإنما أبطله ببيان الفرق بين المقيس والمقيس عليه ، وهذا يشعر أن أصل القياس صحيح ؛ لأنه لو كان باطلا لبين بطلانه ؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يصح.

بيان رأى الراجح .

ظهر من التأمل فى أدلة الرأيين ومناقشتها رجحان الوأى الأول لدى ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : قوة أدلته وسلامتها من الاعتراضات الوجيهة القادحة فيها .

ثانيا : الأدلة التى دلت على حجيه القياس مطلقة فى الجامع الذى يجمع بين الأصل و الفرع من غير تعيين ، على أن العلل الشرعية أمارات على الأحكام ، والشبه يصلح أن يكون أماره على الحكم.

ثالثا : أن الأقيسة الصادرة من النبى ﷺ اشتملت على عدد كبير من أقيسة الشبه ، وإليك بعض الأحاديث الدالة على اعتبار النبى ﷺ الشبه.

١- عن أبي بصير رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال : إن امرأتى ولدت غلاما أسود ، فقال النبي ﷺ، هل لك من إبل ؟، قال : نعم ، قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر ، قال هل فيها من أورك ؟ ، قال: إن فيها لورقا ، قال : فأنى لها ذلك؟ ، قال : عسى أن يكون نزعه عرق ، قال: وهذا عسى أن يكون نزعه عرق . (١)

وجه الدلالة : قاس الولد الأسود على الجمل بجامع الشبه في كل منهما وهو احتمال نزوع العرق.

قال النووي : فيه إثبات القياس والاعتبار بالأشياء . (٢)

٢- عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم ، كان لما استبان أترك ، ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصي حمى الله ، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقع . (٣)

وجه الدلالة : قاس النبي ﷺ المتعاطى للشبهات على الراعى حول الحمى في قرب الوقوع في المحرم بجامع الشبه بينهما ، وهو الاقتراب من المحذور .

(١) أخرجه مسلم في كتاب اللعان ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٠ / ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق ١٠ / ١٢٩ .

(٣) أخرجه البخارى في كتاب البيوع ، فتح البارى ٤ / ٢٩ .

٣- عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سحماء ، قال ، فلا عنها ، فقال رسول الله ﷺ : أبصروها ، فبين جاءت به أبيض سبطا ، قضى العينين ، فهو لهلال بن أمية ، وإن جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء ، قال فأثبتت أنها جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين . (١)

وجه الدلالة : أن النبي ﷺ بين أن المولود يلحق بمن يشبهه ، وهذا يدل على اعتبار الشبه .

٤- عن عائشة رضي الله عنها قال : قلت يا رسول الله أ رأيت لو نزلت واديا وفيه شجرة قد أكل منها ، ووجدت شجرا لم يؤكل منها في أيها ترتع بعيرك ؟ ، قال : في التي لم يرتع منها . (٢)

وجه الدلالة : أنها قاسمت المرأة البكر على الوادى غير مأكول الشجر بجامع الشبه بينهما ، وهو عدم المس في كل ، وقد أقرها النبي ﷺ على هذا القياس .

قال ابن حجر : في هذا الحديث مشروعية ضرب المثل ، وتشبيه شئ موصوف بصفة مثله . (٣)

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأيمان ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٠ / ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) أخرجه البخارى في كتاب النكاح ، فتح البارى ٩ / ١٢٠ .

(٣) فتح البارى ٩ / ١٢١ .

٥- عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ دخل على مسرورا يبرق أسارير وجهه ، فقال : ألم تر أن مجززا ^(١) نظر أنفا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض . ^(٢)

وجه الدلالة : ألحق مجززا أسامة بن زيد بزيد بن حارثة بجامع الشبه بينهما في الأقدام ، وسر بذلك النبي ﷺ ، وأقره على هذا القياس ، فدل ذلك على اعتبار الشبه في الأحكام.

وهذا القدر من الأقيسة النبوية أراه كافيا في رجحان رأي من ذهب إلى اعتبار الشبه في الأحكام ، ومن يريد معرفة المزيد منها فليرجع إلى " كتاب أقيسة النبي ﷺ " تصنيف الإمام ناصح الدين عبدالرحمن الأنصاري ، المعروف بابن الحنبلي المتوفى سنة ٦٣٤هـ.

^(١) هو ابن الأعور بن جعدة المدلجي الكنانى ، سعى مجززا : لأنه كان في الجاهلية إذا أسر أسيرا جز ناصيته . الإصابة في تمييز الصحابة ٤ / ٣٦٥ .
^(٢) أخرجه البخارى في كتاب الفرائض ، فتح البارى ١٢ / ٥٦ .

حجم الجملة العربية

أ.د. على أبوالمكارم *

يتأثر حجم الجملة بصورة مباشرة في التراث النحوي بعدد من المقولات التي يمكن اعتبارها بمثابة الأسس النظرية التي يستند إليها النحاة العرب في تحديده . وأبرز هذه المقولات ما يأتي :

* أستاذ النحو العربي ، وعميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

أولاً : مقولة الإسناد .

وتفترض هذه المقولة ضرورة وجود طرفين أساسيين في كل جملة . وتتبع الأساس النظري الذي أخذ به النحاة في تحديدهم للحد الأدنى للجملة ، يسلم إلى إمكان كون هذين الطرفين كلمتين فحسب ، في حين تشير النماذج النمطية التي عرضوا لها إلى إمكان كون المسند أكثر من كلمة واحدة أي تركيباً إسنادياً . ولكن المأثورات النحوية النظرية و النماذج التطبيقية تتفقان معاً في ضرورة كون المسند إليه اسماً أي كلمة واحدة فحسب.

ولا مفر من الاعتراف بأن هذا التحديد لكل من الطرفين لا يتسم بالدقة الكاملة ، سواء فيما يتصل بالمسند أو ما يتعلق بالمسند إليه .

أما المسند فإن القواعد النحوية التفصيلية تضيف إلى جواز كونه كلمة مفردة أو تركيباً إسنادياً إمكان وقوعه مركباً فعلياً .

وأما المسند إليه فإن القواعد النحوية قد قطعت بإمكان وقوعه واحداً من أمور ثلاثة : كلمة مفردة ، ومركباً اسمياً ، وتركيباً إسنادياً.⁽¹⁾

(1) الكلمة كما قرر النحاة لفظ يدل على معنى مفرد ، أما المركب فإنه لفظ مكون - ففى الأصل - من أكثر من كلمة ، ويدل من حيث المعنى على معنى غير مفرد وغير تام ، ويؤدى نحويًا وظيفية الكلمة المفردة، فقد يؤدى وظيفة الفعل - كما فى نحو : حبذا النجاح ، وقد يؤدى وظيفة الاسم ، كما فى : بعلبك مدينة جميلة . وأما التركيب الإسنادى فنمى به هنا ما يعم ما يشيع التعبير عنه فى التراث النحوى بالجملة الصغرى التى تقع فى إطار جملة أكبر تكون خبراً عنها أو حالاً لها فى حيزها ، أو

ومقتضى هذا أن الأشكال النمطية للجملة في ضوء مقولة الإسناد التي أجازتها القواعد النحوية التفصيلية تنتهي إلى إمكان بلوغها تسعة أشكال تختلف باعتبار مكونات عنصرى الإسناد فيها ، على النحو الآتى:

مسلسل	المسند	المسند إليه
١	كلمة	كلمة
٢	كلمة	مركب اسمى
٣	كلمة	تركيب إسنادى
٤	مركب فعلى	كلمة -
٥	مركب فعلى	مركب اسمى
٦	مركب فعلى	تركيب إسنادى
٧	تركيب إسنادى	كلمة
٨	تركيب إسنادى	مركب اسمى
٩	تركيب إسنادى	تركيب إسنادى

ولا ينبغي أن يفوتنا أن نشير إلى وقوع التركيب الإسنادى مسندا إليه يتطلب دائما ما يسمى بأداة السبك ، لأنه فى قوة المصدر ، أو على

صلة له ، أو وصفا ، أو مضافا إليه ، وفى حالتها هنا يتضح إمكان وقوع هذا التركيب أيضا مسندا إليه إذا سبق بما يتأول معه بمصدر . انظر كتابنا : المدخل إلى دراسة النحو العربى - الجزء الأول.

حسب تعبير النحاة "مصدر مؤول" في حين لا يشترط وجود هذه الأداة في حالة وقوعه مستنداً .

وتشير الدراسات النظرية التي قدمها النحاة العرب إلى أن من الممكن أن توجد صورة مختلفة للإسناد في إطار الجملة الواحدة ، ولو أخذنا في الاعتبار معطيات الأحكام التفصيلية المستمدة من القواعد النحوية أيضاً لانتبهنا إلى أن هذه الدعوى تستند إلى سند صحيح.

ذلك أن من الممكن ألا تحتوى الجملة إلا على عملية ذهنية واحدة هي العملية الإسنادية التي يتم فيها الحكم على أحد الطرفين (وهو المسند إليه) بالطرف الآخر (وهو المسند) ، كما في نحو قول عمر بن أبي ربيعة : ^(١)

تشط - غداً - دار جيراننا وللدار - بعد غدٍ أبعد

فإن صدر البيت جملة تم فيها إسناد (تشط) أى تبعد ، إلى (دار الجيران) ، وعجز البيت جملة أيضاً أسند فيها شدة البعد إلى (الدار) ، والإسناد في الجملتين مفرد لا تعدد فيه كما نرى.

ومن الممكن أيضاً أن تحتوى الجملة على أكثر من عملية ذهنية إسنادية واحدة وبذلك تتضمن أطراف إسناد تتعدد بتعدد العمليات الإسنادية الموجودة في الجملة ، كما في قول الله تعالى ^(٢) : (إن الذين

^(١) البيت في ديوانه ١٦٦ .

^(٢) من الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

فرقوا دينهم - وكانوا شيعاً - لست منهم في شيء) . وقوله سبحانه (١) :
(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه
أحدًا) ، وقوله (٢) : (قالت : إن أبى يदعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا).

وتحليل الصور التي تحتوى فيها الجملة على أكثر من عملية
إسنادية يكشف عن أن هذه الصور تأخذ - بشكل عام - أسلوبين
مختلفين : فى أولهما يحدث ما يمكن أن يوصف بأنه (تداخل) فى
عمليات الإسناد ، بمعنى أن طرفى عملية إسنادية يكونان فى مجموعهما
طرفاً إسنادياً فى العملية الأخرى ، وفى آية (القصص) السابقة - مثلاً -
نجد أن : (يدعوك) - وهى تتضمن عملية إسنادية ذات طرفين :
(الفعل + الضمير الواقع فاعلاً عند النحاة) - قد وقع مسنداً للعملية
الإسنادية الأخرى : (إن أبى يدعوك) ، ومثلها من آية الكهف : (كان
يرجو لقاء ربه) ، وفى الأسلوب الثانى لا نجد علاقة مباشرة بين
أطراف العمليات الإسنادية ، بمعنى أن العمليات الإسنادية المحتواة
لا يمثل أى منها - فى ذاته - طرفاً من أطراف الإسناد لغيره ، وإنما
يذكر فى الجملة توضيحاً لغموض ، أو تفصيلاً لإجمال ، أو تفسيراً
لللمس ، فى آية القصص السابقة نجد أن دعوة الأب لموسى معللة
بالرغبة فى أن يجزيه أجر ما صنع ، فتمت عملتان إسناديتان أخريتان
فى الآية : الأولى (ليجزيك) ، والثانية (ما سقيت) وليست إحداها طرفاً
إسنادياً فى الأخرى ، كما أنه ليس لهما معاً علاقة مباشرة بأطراف

(١) من الآية (١١٠) من سورة الكهف .

(٢) من الآية (٢٥) من سورة القصص .

الإسناد السابقة عليهما في الآية نفسها ، ولا يعنى نفسى هذه العلاقة المباشرة بتر الصلة بين عمليات الإسناد فى الجملة ، إذ من المحتم أنها جميعاً - ما دامت فى إطار كلى واحد - ترتبط بعلاقة تجمعها : كتحديد الباعث ، أو الزمان ، أو المكان ، أو الكيفية ، أو الإضافة ، أو الربط (فى أسلوب الشرط) ، أو المقابلة ، أو المصاحبة ، أو نحو ذلك من العلاقات ، ومن ثم فإن النفى ينصب على صلتها بأطراف الإسناد ، أى من حيث وقوعها طرفاً إسنادياً لعملية إسنادية أخرى.

ونحن نؤثر أن نستخدم للإشارة إلى هذه الصور من الإسناد المصطلحات الآتية:

الصورة الأولى : أفراد الإسناد .

الصورة الثانية : تداخل الإسناد .

الصورة الثالثة : تعدد الإسناد .

ولا تحتوى الصورة الأولى إلا على طرفين فحسب ، هما : المسند إليه ، و المسند .

أما الصورة الثانية فإنها تتضمن أكثر من طرف من أطراف الإسناد ، بمعنى أنه يوجد فيها أكثر من مسند وأكثر من مسند إليه ، لكن بين هذه الأطراف جميعاً صلة مباشرة إذ إن طرفى العملية الإسنادية فى بعضها طرف لبعضها الآخر .

وفى الثالثة تتعدد أطراف الإسناد فى إطار الجملة بتعدد العمليات الإسنادية فيها، لكن لا صلة مباشرة بين هذه العمليات الإسنادية ، بل

ثمة تباين بين عناصر الإسناد في كل منها .

وبهذا التصور لمقولة الإسناد يتضح أن تأثيرها في (حجم) الجملة و (شكلها) متعدد الأسباب ، وأهم هذه الأسباب ثلاثة :

١- طبيعة الإسناد .

٢- نوع المسند .

٣- نوع المسند إليه .

ثانياً : مقولة العمل :

تقرر هذه المقولة ضرورة أن تحتوى كل جملة على أطراف العمل الثلاثة : العامل ، والمعمول ، وأثر العامل في المعمول الذي يرمز له بالحركة الإعرابية .

أما العامل فهو المؤثر في الحركة الإعرابية في آخر المعمول ، وقد يكون لفظياً - أى كلمة يعينها تتضمنها الجملة - وقد يكون معنويًا - أى معنى قائم بالذهن ليس له لفظ محدد مذكور .

وأما المعمول فهو اللفظ الذي يتغير آخره في الواقع أو في التقدير تبعاً للعلاقات التي تربطه بغيره من الكلمات في إطار الجملة ، وقد يكون لفظاً محدداً كما قد يكون تركيباً .

وأما الحركة الإعرابية فهي رمز لتأثير العامل في المعمول وعلامة عليه ، ومقتضى كونها رمزاً أن عدم وجودها في اللفظ لا يستلزم بالضرورة نفي مدلولها - وهو هذا التأثير - جملة ، بل كل ما يمكن القطع به هو عدم وجود العلامة الدالة لفظاً فحسب .

والأصل في الأفعال أن تكون عاملة ، لا يستثنى من ذلك إلا الأفعال المؤكدة لغيرها تأكيداً لفظياً ، أو الزائدة ، أى المقحمة على مبنى الجملة دون أن تكون لها علاقة لفظية مباشرة بأطراف الإسناد فيها ، ولا بعناصر العمل بها .

وكافة الأسماء والمركبات الاسمية عند النحاة معمولة ، فلا سبيل إلى وجود اسم أو مركب اسمي لم يتأثر بعامل لفظي أو معنوي ، ثم إن منها ما يمكن أن يعمل ، ولكنه عدد جد محدود (المصادر ، المشتقات ، وما ألحق بهما مما يعمل عمل الفعل) وبشروط خاصة ، وهذه أيضاً يتحتم أن تكون - فى الوقت نفسه - معمولة ، فهى تعمل باعتبار مخالف لاعتبار العمل فيها ؛ إذ تعمل إلحاقاً لها بالأفعال ، ويُعمل فيها بحكم كونها أسماء.

وأما الحروف فمنها ما يعمل ومنها ما يهمل ، ولكن لا سبيل إلى كونها معمولة قط.

ومقتضى ضرورة وجود (الاسم) فى الجملة ، بحكم كونه مسنداً إليه فيها ، أنه لا مفر من احتواء الجملة على (المعمول) ، الأمر الذى يستلزم حتماً وجود بقية الأطراف فيها ، وهكذا لا مناص عند النحاة من أن تتضمن كل جملة أطراف العمل الثلاثة : العامل ، والمعمول ، والأثر الإعرابى الظاهر أو المقدر ، بحيث إذا وجد واحد منها لم يكن بد من وجود بقيتها ، ولا سبيل - عند النحاة - إلى تصور وجود عامل من غير معمول ، ولا إلى إمكان وجود معمول من غير عامل ، كذلك لا مجال لتوهم حركة إعرابية ملفوظة أو مقدرة من غير عامل يحدثها ومعمول يحملها.

وتحليل العناصر الأساسية للجملة - من حيث العمل - ينتهي إلى عدد من النتائج ، أهمها :

١- أن المسند إليه معمول دائماً ، وقد يكون عامله لفظياً ، وقد يكون معنوياً .

٢- أن المسند قد يقع عاملاً ، وقد يقع معمولاً ، وقد يكون عاملاً باعتبار ، معمولاً باعتبار آخر .

فالمسند الفعلي عامل دائماً ، سواء أكان فعلاً أم مركباً فعلياً . وقد يكون معمولاً إذا كان من قبيل (الفعل المضارع) ؛ إذ إن المضارع معمول بحسب إعرابه ، عامل لحاجته إلى فاعل .

والمسند الاسمي معمول دائماً سواء أكان اسماً أم مركباً اسماً ، وقد يكون عاملاً أيضاً إذا كان أحد المصادر أو المشتقات التي تعمل عمل الفعل ، فإنها تسند إلى معمولاتها ، وهي بالنسبة لهذه المعمولات عاملة في الوقت الذي يعمل فيها غيرها .

٣- أن وجود (عامل) ما في الجملة - أي كانت علاقته بطرفي الإسناد فيها - يؤثر في شكل الجملة وحجمها ، لأنه لا بد أن يستوفي معموله ، واحداً كان أو متعدداً .

٤- أن من الممكن أن يكون كل من (المسند) و (المسند إليه) معمولاً لعامل واحد ، كما أن من الممكن أن يختلف العامل في كل منهما ، وفي كل من الحالتين يختلف حجم الجملة وشكلها .

ثالثاً : مقولة تعدد مستوى المبنى :

وتفترض هذه المقولة أن نص التركيب اللغوى الظاهر ليس دائماً - وفى كل الأحوال - المبنى الوحيد لهذا التركيب ، بمعنى أنه ليس سوى السطح الخارجى للتركيب أو الإطار الظاهرى له ، لكن قد يوجد فى أحيان كثيرة بإزاء هذا السطح الخارجى بناء تحسى غير منظور ، وخلف هذا الإطار الظاهرى مقابل داخلى لا ينطق ولا يكتب ، ولكنه - برغم ذلك - الأساس الأصلى لكل ما ينطق ويكتب .

وثمة عوامل متعددة تؤثر فى السطح الخارجى للتركيب اللغوى - بما فى ذلك مبنى الجملة - على رأسها الموقف اللغوى ومقتضياته ، والاتساق التعبيرى وجمالياته ، وتترك هذه المؤثرات بصماتها فى المبنى ، أو إن شئنا الدقة ، فى سطح هذا المبنى وإطاره الظاهرى . وذلك فى صورة أو أكثر من صور (تشكيل) الجملة - بدءاً من اختيار الوحدات الداخلة فى تركيبها ، إلى تحديد النسق الذى يضمها . وقد تدعو الحاجة فى الموقف أو الحرص على جماليات التعبير إلى العناية ببعض مكونات الجملة أو الاهتمام ببعض العناصر فيها ، كما قد تحمل هذه الظروف على الاكتفاء ببعض هذه المكونات والعناصر دون بعض ، الأمر الذى يتجلى أثره فى صياغة الجملة . وأهم الجوانب التى يتضح فيها هذا التأثير سطح هذا المبنى وشكله الظاهر ، بحيث يبدو أكثر تحراً من حيث عدم الالتزام بكافة الضوابط التى لابد من رعايتها فى المبنى وفقاً لضوابط الإسناد والعمل التى سلفت الإشارة إليها.

بيد أن هذا التأثير يظل وقفا على السطح الخارجى لا يتجاوزه إلى البناء التحتى الأساسى الذى يراعى دائما كافة المقومات ويلتزم بكل الضوابط ، سواء من حيث ذكر العناصر واستيفاء المكونات أو مراعاة ما تلزم مراعاته من ترابط واتصال أو الالتزام بالمواقع التى تقررها قواعد الترتيب ، فهو بهذا الاعتبار أكثر انضباطا من حيث الضوابط وأشد التزاما بالقواعد والنظم من السطح الخارجى.

وهكذا يتقرر فى هذه المقولة أن للتركيب مستويين :

الأول : المستوى الظاهر .

والثانى : المستوى الخفى .

وتشير دراسات النحويين إلى أنهم يتصورون أن المستوى الخفى أصل للظاهر ، وأن الظاهر فرع عنه ، ونائب له .^(١) ومن ثم يتجاوز فيه تبعا لبعض الظروف التى قد تدعو إلى التسامح فى الالتزام الكامل بالقواعد والنظم ، والتحرر من الخضوع المطلق لمقوماتها وضوابطها ، فى حين لا سبيل إلى شئ من هذا التسامح أو التحرر فى المستوى الخفى الذى يتمثل فى البناء التحتى . وهكذا تتأثر الأشكال النمطية للجملة بمؤثر جديد ، حيث يمكن أن تخلو هذه الأشكال - فى الظاهر - من بعض العناصر ، أو تفقد بعض الأطراف ، أو تهمل بعض العلاقات ، إلى غير ذلك من الظواهر التى تترك بالضرورة أثرها فى

(١) انظر كتابنا : الحذف والتقدير فى النحو العربى ، وأيضا : بحثنا عن : التأويل فى النحو العربى .

الجملة شكلا وحجما معا.

لكن كيف السبيل إلى تعيين ما ليس له في اللفظ وجود من العناصر والأطراف والعلاقات ؟ أى إلى تحديد البناء التحتى أو المستوى الخفى ؟ يرى النحويون أن الوسيلة الوحيدة لذلك هى "التأويل"، وهو عملية ذهنية تعتمد على ربط " النص اللغوى " ، الموجود بالفعل - الذى تستطيع أن تصفه بأنه السطح الخارجى للتركيب - بطرفين آخرين ، هما : الموقف اللغوى من ناحية . والقواعد النحوية المقررة من ناحية أخرى وفى ضوء ذلك يمكن أن نعتز تحت هذا السطح الخارجى على محذوف ، أو زائد ، أو مقدم ، أو مؤخر ، أو محرف ، أو مقدر ، أو متسع فيه ، أو مضممر ، أو مستتر ، أو مفصول ، أو معترض ^(١) إلى غير ذلك من الصور والأشكال التى يلجأ إليها النحاة فى تأويل البنية اللفظية للنص اللغوى ، أى الغوص تحت السطح الخارجى له ، ومحاولة الوصول إلى ما وراءه من بناء تحتى .

رابعا : مقولة الوجوه المحتملة :

محور هذه المقولة أن حجم الجملة - من حيث العناصر المكونة للبنية - من الممكن أن يحدد حده الأدنى ، لارتباط هذا الحد بمقومات ثابتة من الممكن تحقيقها فى أشكال محددة ، وقد حاول النحويون فعلا حصر هذه الأشكال للحد الأدنى للجملة ، سواء من التزم منهم بفكرة

(١) المصادر السابقة ، وكذلك : أصول التفكير النحوى ، ٢٦٥ - ٢٦٢ .

الفائدة أو من صدر عن مقولة الإسناد . أما نماذج الجملة - أى النسق الذى يضم كافة الأشكال النمطية الممكنة لها - فإنه من أعسر العسر حصرها ؛ لأن رصد هذه الأشكال إحصائيا مرتبط بالاحتمالات الممكنة لتشكيل مقومات الجملة - أى الناتجة عن وضع هذه المقومات فى أطر شكلية - وهذه الاحتمالات من التعدد والتنوع والتميز بحيث تعد معها محاولة رصدها وحصرها فى أطر ثابتة ومحفوظة نوعا من الترف الإحصائي الذى لا نتيجة عملية له ، والنتيجة الضرورية لهذه المقولة أن الأشكال النمطية للجملة من التعدد والتداخل والكثرة بحيث تتجاوز كل مدى محدود ؛ إذ إن هذه الأشكال نتاج تشكيل مقومات شتى: قد تتضافر وقد تتنافر ، وفى كل منها عناصر وأطراف قد تتسق وقد تختلف : عددا ، ونوعا ، وموقعا ، وحالة، الأمر الذى ينتج عنه صور لا سبيل أمام الباحث - وبإمكانات البحث المعتادة - لتصنيفها فضلا عن إحصائها.

ونكتفى بأن نشير هنا إلى أهم هذه المقومات المؤثرة - كما وكيفا - فى تعدد الاحتمالات ، فيما يأتى:

١- الاحتمالات الممكنة لتشكيل العناصر الأساسية .

ثمة مجموعتان من هذه العناصر ، ترتبط المجموعة الأولى بمقولة " الإسناد " ، وتتصل الثانية بمقولة " العمل " .

وفى الإسناد عنصران أساسيان هما : " المسند " و " المسند إليه " ، لكنهما يختلفان من حيث مكوناتهما ، ومواقعهما ، ووظائفهما . وللإسناد صور ثلاث : إذ قد يكون مفردا ، وقد يكون متاخلا ،

وقد يكون متعددا .

وأما العمل فثلاثي الأطراف ، وأطرافه هي : " العامل " و " المعمول " و " الحركة الإعرابية " ظاهرة أو مقدرة . ولا ترابط بين عناصر الإسناد وأطراف العمل، وإن وجب احتواء الجملة على هذه الأطراف والعناصر ، بمعنى أن العامل قد يكون مسندا ، وقد يكون المسند إليه ، وقد يكون شيئا خارجا عنهما.

٢- الاحتمالات المتوقعة للعلاقات الثانوية :

من المقرر أن هذه العلاقات - وفقا للمأثور في التراث النحوى - نوعان : علاقات إسنادية ، وأخرى غير إسنادية .

وإذا كانت بعض صور العلاقات الثانوية الإسنادية المحتواة في الجملة يمكن أن تدخل في إطار ما اصطلاحنا عليه " بتعدد الإسناد " فإن العلاقات الثانوية غير الإسنادية لا تدخل في هذا الإطار ، وهي من التنوع والكثرة بحيث لا مجال لحصر الأشكال النمطية الناتجة عن وجودها . وبخاصة في الحالات التي تحتوى الجملة على أكثر من علاقة منها كملاقات : الإضافة ، والظرفية ، والتبعية ، والمفعولية ، ونحوها.

٣- الاحتمالات المتصورة للبنية الأساسية أو التحتية :

وهي احتمالات تمتد عما حول الصياغة اللغوية . ويمكن تحديد ما يحيط بهذه الصياغة في أمور ثلاثة : أولها : النص نفسه ، أو لنقل كما ذكرنا من قبل : السطح الخارجى للتركيب اللغوى ، وثانيها :

الظروف المصاحبة له ، أو الموقف الذى يصاغ فيه ، وثالثها :
معطيات القواعد النحوية .

وتتخذ هذه الاحتمالات أشكالاً متنوعة تختلف باختلاف أساليب
التأويل التى يلجأ إليها النحوى فى دراسته للنص اللغوى ، الأمر الذى
يثرى النماذج النمطية للجملة بما يضيفه عليها من تصورات ، ويضيفه
إليها من احتمالات .

وإذا كان من المستطاع حصر النماذج الناتجة عن النوع الأول
من الاحتمالات ، فإننا نحسب أنه لا سبيل أمامنا إلى الحصر الإحصائى
الدقيق لهذه النماذج حين نضع فى الاعتبار ما ينتج عن النوعين
الأخريين من إمكانيات.

نخلص من هذا العرض إلى عدد من النتائج نحسب أنه لا مفر من
تسجيلها :

أولها : أنه ينبغي - موضوعياً - التفرقة بين الأشكال النمطية الواردة
والمستعملة للجملة العربية ، وبين الدراسات التى عرضت لهذه الأشكال
فى التراث النحوى.

فالأشكال النمطية تستمد مقوماتها من ورودها فى المأثورات
اللغوية ، واستعمالها فى الأساليب التعبيرية ، أى أنها تعتمد على رصيد
من واقع لغوى يتصف بالنمو والاستمرار ، ونعنى بالمأثورات اللغوية
الحصيلة التى خلفها لنا عصر الاستشهاد من نصوص شعرية ونثرية ،
ونقصد بالأساليب التعبيرية هنا نتاج ما بعد هذه العصر . ومن المؤكد

أن ثمة قدرا من التطور قد أصاب بعض الأشكال النمطية للجملة ، إما بسبب الموقف اللغوى والعناصر المشاركة فيه ، أو الزمن وأثره فى صياغة مكونات الجملة ، أو الجنس الأدبى ودوره فى تشكيل عناصرها ، ومقتضى ذلك أن هذه الأشكال شأنها شأن كافة ظواهر اللغة ، لا تتصف بالثبات المطلق ، بل إن الاستعمال يترك أثره فيها بما يغير منها فيضيف إليها .

أما التناول النحوى لهذه الأشكال فإنه يصدر عن رؤية ذهنية للواقع اللغوى ، وهى رؤية فى لحظة ثابتة ، أى أنها تتناول بالضرورة واقعا محددا غير ممتد ، ونماذج بذاتها لا تقبل الإضافة . فالواقع اللغوى فى الدرس النحوى واقع من نوع خاص إذا صح هذا التعبير ، إنه أشبه ما يكون بالعينات المعملية بالنسبة لدارسى الطبيعة ، وثمة فارق لا مفر من الاعتراف به بين (العينة) داخل المعمل والظروف للمصاحبة للجنس أو للعنصر الذى تنتمى إليه خارج المعمل . و (الواقع) اللغوى الذى يتناوله النحاة ليس أكثر من مجرد (عينة) مختارة ، يصدق عليها ما يصدق على سائر العينات سواء فيما يتصل بأسس الانتقاء أو الاختيار ، أو التحليل ، أو النتائج .

ثانيها : أنه يجب - منهجيا - التمييز بين التناول النحوى لمقومات الجملة . ودراسة اتجاهات النحاة فيها ، من الناحية النظرية ، والتحليل النحوى لهذه المقومات والاتجاهات فى إطار تناول الحجم ، الذى يمكن أن يعد - عمليا - بمثابة الناحية التطبيقية . فالدراسة النظرية تستند إلى مقولات ذهنية ، وهى مقولات تأخذ فى البحث النحوى شكل المقدمات المنطقية . وفى نطاق هذه المقولات والمقدمات تصبح النتائج ضرورية ،

ومن ثم إذا اختلفت المقولات لم يكن بد من اختلاف النتائج . وهكذا
بوسعك أن تجد في دراسة مفهوم الجملة في التراث النحوي اختلافا يكاد
يصل حد التضارب بين النحاة ، في مدى الاعتداد ببعض الأشكال سلبا
أو إيجابا ، انطلاقا من تحكيم المقولات الذهنية ، والالتزام بمعطياتها .

أما الدراسة التطبيقية فإنها برغم تأثرها بالضرورة بالمقولات
الذهنية لم تظل أسيرة هذه المأثورات دائما ، بل استندت إلى لحظ
النماذج والأشكال اللغوية ، الأمر الذي أمكن معه حدوث تقارب في
المواقف العملية يكاد يصل في بعض الأحيان مرحلة التوافق إزاء عدد
من الأشكال النمطية التي كانت مثار تضارب في الدراسة النظرية .
ونحسب أن هذا يفسر تحول موقف النحاة الذين رفضوا الاعتداد بجملة
النداء ونحوه من الأمثلة التي تخلو من الإسناد إلى قبولها عمليا
باعتبارها شكلا من الأشكال النمطية للجملة العربية . ولعل هذا يؤكد
من جديد ضرورة البدء في التحليل النحوي من الواقع اللغوي ، ذلك أن
تجاوز هذا الواقع وإن أسلم إلى بناء ذهني قد يتسم بالاتساق فإنه
مضطر إلى التضارب مع معطياته حين يواجهه ، فيتحوّل الاتساق
النظري إلى اضطراب تطبيقي .

ثالثها : أنه لا سبيل إلى تجاوز الحقيقة القائلة إنه برغم ما يتضمنه
التراث النحوي من تعدد في الاتجاهات واختلاف في الآراء فإن من
الممكن مع ذلك العثور على ما يمكن أن يعد أرضا مشتركة بين كافة
الاتجاهات أو إطارا عاما لكل الآراء ، ويتمثل ذلك في عدد من
النقاط أهمها :

١- أن الجملة - عملياً - هي التركيب اللغوي الإسنادي المفيد. واستخدام لفظ (التركيب) يشير منذ الوهلة الأولى إلى طبيعة الجملة كما يحدد مستواها : أما طبيعتها فلأنها غير أحادية الأطراف ، أى متعددة العناصر . وأما مستواها فلأنها - شأن كل ما يقبل التركيب - تبدأ من البسيط ، فهي مرحلة تالية له ، ومن ثم مستوى متطور منه ، فالجملة تبدأ من مكوناتها من الوحدات الصغرى الداخلة في تركيبها من كلمات أو مركبات أو هما معاً ، ولكنها تبنى من هذه الوحدات أشكالاً جمالية خاصة بها ، وبذلك تصبح هذه الوحدات لبنات في بناء كلى جديد الشكل والوظيفة معاً .

ووصف هذه التركيب (بالإسنادي) لاستبعاد أنماط من التراكيب اللغوية غير الإسنادية ، وهى التى سبق أن أطلقنا عليها مصطلح (المركبات) فإن هذه التراكيب - بحسب وظيفتها دائماً ، وبحسب بنيتها وأشكالها أحياناً - ليست جملاً ، وإنما تستخدم استخدام الكلمات ، إذ توظف فى بناء الجمل فهى - من هذه الناحية - عناصر مفردة قابلة للتشكل فى إطار الجملة العربية .

وتحديد غاية هذا التركيب الإسنادي (بالفائدة) بغية الإشارة إلى أمرين : أولهما : استبعاد التراكيب الإسنادية التى تخلو من الفائدة اللغوية ، وإن تضمنت فوائد أخر : كالدلالة على الحالة النفسية أو العقلية أو السياسية أو الاجتماعية أو غيرها ، فإن محور الفائدة فى الجملة لغوى ، بحكم كونها مستوى من مستويات الأداء اللغوى . وثانيهما : احتواء كافة صور الفائدة اللغوية الممكنة دون اشتراط الجودة فيها أو الصدق معها ، وأياً كانت الظروف المصاحبة لها .

٢- أن مقومات الجملة - فى ضوء هذا التحديد - تدور حول محور طرفاه : (الإسناد) و (الفائدة) ، معا ، بيد أنه من الممكن - نظريا - أن يقتصر السطح الخارجى للجملة على أحد الطرفين ، ومن ثم يكون إطلاق لفظ (الجملة) عليه حينئذ على سبيل التجوز، أو بطريق الاختصار .

فقد يستخدم لفظ (الجملة) تجوزا فى التركيب غير الإسنادى - إذا كان مفيدا - كما فى النداء ، وبعض صور التمنى .

كما قد يستخدم اللفظ اختصارا عوضا عن (التركيب الإسنادى) الذى تنقصه الفائدة التامة ، كما فى الخبر ، والحال ، والصفة ، ونحوها .

٣- أن صياغة العناصر المكونة للجملة يقتضى وجود نسق محدد ، ونظام ثابت ، أى قواعد ملتزمة ، وهو ما تتكفل به مقولة (العمل) ، إذ هى بمثابة الخيوط العرضية التى تضفر عناصر الإسناد الممتدة فى نسج الجملة العربية ، لكى تصل إلى هدفها من الفائدة فى الموقف أو السياق . وهكذا يمكن أن يضاف إلى مقومات الجملة التى سلفت الإشارة إليها من (الإسناد) و (الفائدة) مقوم ثالث ضرورى هو نظام (العمل) وعلاقاته وأطرافه .

٤- أن حجم الجملة من الثراء والتنوع بحيث يتعذر استقصاء كافة نماذجها المقبولة وأشكاله المعتد بها ، بيد أن من الممكن التمييز فيه بين البنية الأساسية التى يمكن أن تعد الحد الأدنى له ، والأشكال النمطية التى تتشكل فيها هذه البنية ، والتى هى نتاج عدد من

المؤثرات ، أهمها: طبيعة الإسناد ، وأنواع عناصره من مسند ومسند إليه، وطبيعة العلاقات الثانوية المحتواة ، وعددها وحجمها ، وأنواعها ، ومقومات العمل وأطرافه ، وعلاقاته بعناصر الإسناد من ناحية ، وبالعلاقات الثانوية من ناحية أخرى.

رابعها : أنه في ضوء هذه الحقائق جميعاً ، ورعاية لمقتضياتها ، لا نجد حرجاً في أن نحدد (الجملة) بأنها : " نظام من العناصر اللغوية المؤلفة لتؤدي معنى مفيداً في الموقف أو السياق".

ولقد أثرنا أن نبدأ هذا التحديد بكلمة (نظام) للدلالة على أمرين متلازمين معاً:

الأمر الأول : " التركيب " ذلك أن لفظ " النظام " لا يصف المفردات في ذاتها ، ولا يسم الوحدات قبل تركيبها مع غيرها ، فوجود شيء أو شخص في ذاته ، ودون اعتبار مكوناته ، أو حالته ، أو موقعه ، أي من غير مقارنته بغيره ، أو مقابلته بسواه ، لا يوصف بنظام ما سلباً أو إيجاباً ، ذلك أن " نظام " وصف - بالضرورة - للعلاقات القائمة أو المفترضة بين الوحدات المتعددة بالفعل أو بالقوة . وهكذا يستلزم " النظام " التركيب.

الأمر الثاني : أن التركيب بدوره يقتضي - تلقائياً - وجود ضوابط له ، ولا يخلو تركيب معتد به لغوياً من نظام التزم فيه وقواعد خضع لها ، ولا سبيل إلى توهم إمكان إيجاد تركيب مقبول يخلو من كل نظام أو تسوده علاقات عشوائية تخلط بين النظم . بل لا مفر من الالتزام المطلق بالنظام أو النظم التي تحكم مستويات التركيب والعناصر المكونة

له والوحدات الداخلة فيه . صحيح أن " النظام " ليس وحدة من هذه
الوحدات الداخلة في التركيب ، ولكن الصحيح أيضاً أنه ضرورة لكل
الوحدات المكونة لكل تركيب ، لأنه سمة العلاقة التي تربط بينها .

وهكذا كما يقتضى " النظام " تركيباً ، يستلزم " التركيب " نظاماً .

وعدنا إلى استخدام لفظ (العناصر) في الإشارة إلى مكونات
الجملة ، بدلاً من الكلمات ، لأمرين أيضاً :

الأمر الأول : أن مكونات الجملة في الحقيقة ليست محصورة في نطاق
الكلمات فحسب، بل إن مكونات الجملة يمكن أن تقسم - لاعتبار
توضيحي أو تعليمي - إلى مستويين : مستوى الوحدات الداخلة في
تركيبها ، ثم مستوى المقولات التي تنظم بينها ، ومن الثابت أن الكلمات
ليست كل ما يدخل تركيب الجملة من وحدات ، فإن من هذه الوحدات
أيضاً المركبات ، والتراكيب الإسنادية ، ونعني بها ما شاع في التراث
النحوي الاصطلاح عليه بالجملة الناقصة الفائدة ، أو بتعبير أكثر دقة :
محدودة الفائدة.

الأمر الثاني : أن من بين مكونات الجملة نتائج عدد من المقولات بما
تقدمه في تكوينها من معطيات أو تتركه فيها من مؤثرات، ونعني بهذه
المقولات بصفة خاصة : مقولة الإسناد بما قررت من ضرورة وجود
طرفين - أو عنصرين - إسناديين : المسند والمسند إليه ، ومقولة
العمل، بما استلزمته من وجود أطراف ثلاثة : العامل ، والمعمول ،
والحركة الإعرابية الظاهرة أو المقدرة رمز تأثير العامل في المعمول ،
ثم الفائدة بما تتطلبه من رعاية الظروف المصاحبة للموقف أو السياق .

وهذه كلها (عناصر) مؤثرة في تكوين الجملة ، ومن ثم لم يكن بد من العدول عن لفظ الكلمات في الإشارة إلى هذه المكونات.

ووصف هذه العناصر المكونة للجملة (باللغوية) قيد لإخراج العناصر الأخرى التي تكون - أو تسهم في تكوين - الظواهر غير اللغوية ، من بقية الظواهر الاجتماعية أو غيرها مما ينتمى إلى الطبيعة من ظواهر . فبناء الأسرة مثلاً - وهو ظاهرة اجتماعية - يتأثر بمجموعة كبيرة من العناصر والنظم التي تتأزر على تحقيق غاياته من الحفاظ على النوع والاستقرار الاجتماعى معاً ، ولقد تكون اللغة - بمستوياتها المختلفة - بعض هذه العناصر ، ولكنها ليست سوى جانب واحد منها ، فإلى جوارها علاقات الزواج ، والطلاق ، والميراث، ونحوها من بقية العناصر المؤثرة فيها . وشروق الشمس أيضاً ظاهرة طبيعية ، وهى - بدورها - نتاج العديد من النظم التي تتلاقى على جعل هذه الظاهرة حقيقة تتكرر فى الزمان والمكان بصورة ثابتة يمكن احتسابها سلفاً لآلاف السنين ، وهى جميعاً لا علاقة لها باللغة ومستوياتها .

وأما وصفها بكونها (مؤلفة) فمحاولة للإشارة إلى طبيعة العلاقات التي تربط العناصر فى حال تركيبها فى الجملة ، وهى علاقات ينبغي أن تتسم بالاتساق بين معطياتها والتوافق بين مكوناتها ، ومن ثم الاتسجام التام فى مبنى الجملة ، وبين ميناها ومعناها.

وليس هذه الصفات - من الاتساق ، والتوافق ، والاتسجام - صفات مفترضة ، بل إنها توشك أن تكون صفات كاشفة ، أى أنها -

في الحقيقة - لا تعدو وصف ما هو قائم بالفعل في تكوين الجملة من خصائص . ومن الصعب أن نتصور جملة لا تتحقق فيها هذه الصفات، جملة تتضارب فيها عناصر الإسناد ومقومات العمل مثلاً ، أو تتناقض فيها بعض هذه الأطراف والعناصر مع الفائدة التي تحتويها ، أو النسي سبقت لأدائها.

والمعنى هو غاية هذا النظام كله وبغيته ، أي أن المبنى ليس سوى جانب واحد منه ، وهو جانب مهم لا مجال لتقليل قيمته ولابد من الالتزام الدقيق فيه بكافة الضوابط والنظم التي تحكم مكوناته ونسم علاقاتها ، بيد أنه إلى جوار هذا الجانب جانبان آخران لا سبيل البتة إلى إهمالهما أو إغفال دورهما أو التهورين من شأنهما : أولهما : المعنى الذي يتضمنه هذا المبنى في ذاته ، أي تحمله الوحدات الداخلة في تكوينه من كلمات ومركبات ، وثانيهما : الدلالة الناتجة عن استخدام هذا التكوين في المقام ، وإذا كان المعنى الأول من الممكن فصم الصلة بينه وبين الموقف أو السياق ، وتناوله على أنه محصلة كلية لمعاني المفردات المركبة في الجملة ، أي اعتباره نتاجاً ذاتياً لمفردات التركيب اللغوي ، فإن المعنى الثاني لا يمكن فصله عن الموقف أو السياق ، ومن ثم فإنه يتجاوز مجموع معاني كلماته ومركباته إلى معانٍ مستفادة من الظروف المحيطة المؤثرة في الموقف أو المصاحبة للسياق ، وهكذا يمكن أن تجد تشابهاً بين تركيب المفردات في الجملة ، وتركيب العناصر في الطبيعة ، يتمثل في أن النتيجة في كل منهما ليست بالضرورة مساوية للمجموع المكون لهما ، بل من الممكن الوصول إلى نتاج جديد هو حصيلة تركيب هذه الوحدات - أو العناصر - في نطاق

الظروف التي يتم فيها . وبهذا قد يكون المعنى النهائي للجملـة أكبر
من مجموع معاني مفرداتها .

قضية تعريب الطب

د. محمد الجوادى *

بادئ ذي بدء ، لا بد أن نتساءل : ماذا كان سيصبح حال الدول الأوروبية في بداية عصر النهضة لو أنها انماقت وراء الدعاوى (القائمة يومها فرضاً) والتي تقول إنه لا بد من الإبقاء على تعليم الطب باللغة العربية لأنها اللغة التي تحتوى على ١٠٠% من الكتابات العلمية المسجلة في الطب يومها ، ولأن الرازي وابن سينا والزهرأوى وابن

* أستاذ مساعد بكلية الطب جامعة الزقازيق.

رشد - وهم علماء الطب المبرزين يومها - كانوا قد كتبوا بالعربية وترجمت مؤلفاتهم . . بل إن الأصول اليونانية للطب اليوناني القديم لم تكن موجودة يومها ، وإنما كان الموجود هو ترجمتها للعربية فحسب، وإذن فإن الأولى هو الاكتفاء باللغة العربية في تعليم الطب.

ترى ما هو المستقبل الذي كان سينتظر الحضارة الغربية فى أسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا . الخ ، لو فكوت بهذا الأسلوب فى بداية عصر النهضة (الرينسانس) وظلت محتفظة بالتراث الطبى السابق عليها كما وجدته عربياً ؟

أغلب الظن بل إنه من المؤكد أن إسهام هذه الحضارات فى العلوم الطبية لم تكن لتقوم له قائمة ، ولم يكن للتقدم الطبى فيها أن يحقق شيئاً يذكر على الإطلاق .

فى مرات عديدة كان يتاح لى وقت أجلس فيه (على مائدة طعلم أو فى استراحة بين جلسات مؤتمر) مع بعض كبار أساتذة الطب العالميين ، وكانوا يسألوننى هل لا تزالون لا تدرسون الطب بالعربية ؟ ألا زلتم تدرسونه بالإنجليزية (فى المستعمرات الإنجليزية السابقة) وبالفرنسية (فى المستعمرات الفرنسية السابقة) ؟ كنت بالطبع أجيب بالإيجاب ولم أكن أسمع إلا صيحات التعجب التى تدل على أن مثل هذا السلوك مؤلم أو يستدعى الألم . .

هل نجد الجرأة لى نتأول فنقول إن هؤلاء القوم لا يحبون لغاتهم فهم يدعوننا إلى هجرها . . أم هل نتمادى فى التأول فنقول إنهم يدفعوننا إلى طريق التهلكة حتى لا ننافسهم . .

أعتقد أننا جميعاً أصبحنا اليوم (فى مجموعنا وفى عقائنا الجماعى) بمنأى عن مثل هذه العقيد المرتبطة بنظرية المؤامرة والتصورات الخاطئة . . وإذن فينبغى لنا أن نفهم أن مثل هؤلاء الأطباء الكبار لا يقولون ذلك إلا من نفس المنطق الذى يستكرون به إجراء عملية خاطئة أو فى غير موضعها ، أو وصف دواء لا لزوم له.

لماذا . . هذا هو السؤال الذى أجابت عليه منظمة الصحة العالمية حين دعت بكل قوة إلى أن تلتزم الدول جميعاً بتعليم الطب بلغاتها القومية فقد ثبت أن هذا كفيل فى النهاية بتحقيق مستوى أحسن وأرفع من المستوى الذى يتحقق عند التدريس باللغة الأجنبية . . والمقصود بالمستوى : مستوى التعليم الطبى ، وبالتالى مستوى الخدمات الصحية والطبية الكفيلة بتحقيق الصحة للجميع عام ٢٠٠٠ وهو الهدف الذى وضعتة الصحة العالمية منذ أكثر من عقد من الزمان أمام عينيها وثمت من خلاله كثير من المفاهيم المرتبطة بالتقدم الطبى.

وفيما يبدو فإنه لم يعد هناك على ظهر البسيطة كما يقولون شعب لا يدرس الطب بلغته القومية سوى الشعب العربى " للأسف الشديد " مع أنه يمتلك لغة من اللغات الرسمية الرئيسية فى الأمم المتحدة، لغة لا بد أن نسمعها وأن نجد لها فى كل مؤتمر دولى كبير من خلال سماعات الترجمة الفورية فى الأمم المتحدة ومنظماتها . .

ومع هذا لا يزال بعضنا يعتقد أن اللغة العربية عورة من العورات التى لا بد له أن يسترها تماماً.

ومن أعجب ما يمكن أن الإسرائيليين يدرسون الطب باللغة العبرية ، وهي لغة ميتة بلا جدال ، وأن اليونان تدرس الطب باليونانية . الخ ، إلا الشعب العربى صاحب اللغة المنتشرة فى ٢٢ قطراً !

وفى الحقيقة فإنه يبدو أن موقفنا من لغتنا لا يزال واقعاً تحت سيطرة عقد النقص القديمة ويكفى أن نقارن بين موقفين :

موقف بروتوكولات حكماء صهيون التى تجعل أول البنود والمهام إحياء اللغة العبرية . . وموقفنا جميعاً حين يفتح الله علينا بقرشين " أو لا يفتح " فنسارع من باب الواجهة الاجتماعية (السامة) إلى إلحاق أبنائنا بما تسميه المدارس الأجنبية .

ومن أعجب ما يمكن أن يسارع الرجال الأفاضل إلى (الاعتراف) أو (القول) بضعف مستوى اللغة الإنجليزية عند طلاب الطب وعند خريجيه ومع هذا يصممون فى نفس الوقت على أن تدريس الطب بغير اللغة الإنجليزية سيضعف المستوى . . تماماً كالذى يعترف بأن السيارة تعاني من ضعف الموتور ، فإذا أشير عليه باستبدال الموتور قال : مستحيل ! ! إنها لن تمضى بدونه ! نحن يا سيدى لا ننصح بأن تمشى بدون الموتور ولكننا ننصح باستبدال الموتور . . ننصحك بأن تستخدم موتوراً آخر أقوى وأشد وأنسب !

وليس من شك أن مستوى الطلاب والخريجين فى اللغة العربية عموماً ليس هو المستوى الذى ينبغى أن يكون عليه إتقان اللغة القومية، ولكن هذا ليس إلا صورة من صور الإصابات المتعددة التى نحن مصابون بها لأننا نهرب من الحقيقة.

ومع هذا يبقى من البديهي أن مستوى أى مصرى فى اللغة العربية خير من مستواه فى اللغة الإنجليزية " مثلاً " حتى لو أوضع الإنجليزية وتكلمها كأهلها . . وأحب أن أذكر القارئ بالنكتة القديمة حين ذهب مصرى إلى بلاد الإنجليز وعاد ليقول إن أعجب ما فى رحلته أنه رأى الأطفال هناك يتكلمون " الإنجليزية " بأحسن ما يتكلمه الكبار عندنا . .

ولنقلب النكتة لنقول إن إنجليزيا حضر إلى مصر فقال إن الأطفال فى مصر يتكلمون العربية بما لا يقل عن مستوى أعظم المستشرقين الإنجليز . . أترانى فى حاجة إلى أن أذكر بالحقيقة الثابتة وهى أن لسان الأم هو لسان الأم ولهذا سمي بلسان الأم .

لست فى حاجة إلى أن أدلل على صحة ما أقول بما أثبتته علم اللغة الحديث وليس فى كل ما أسلفت ما هو معجز فى التفكير ولكنها نقاط مضيئة تكفل لنا أن نعيد النظر فى هدوء إلى القضية لتأملها من جوانبها الأعمق :

يحلو لبعض الأطباء الذين يستكرون مجرد التفكير فى تعريب الطلب أن يسألوا فى ثقة شديدة : هل تريد للطلاب أن يسموا العضلات بالعضلة الصدرية ، وذات الرءوس الأربعة وهم يقولون لك فى ثقة شديدة إن تسميتها بالاسم الأجنبى مثلاً أوقع كثيراً .

وفى الحقيقة فإن هؤلاء يمثلون صورة أخرى من ذلك الرجل الذى ظل سعيداً بأنه يعمل فى سينما سجنكس . . كان سعيداً جداً بوقوع الأسم على مستمعيه وهو يقول لهم إنه هو المسئول عن تشغيل ماكينة

السينما فى سينما سفنكس ، وذات مرة قال له ابنه الذى أصبح فى السنة الثانية الإعدادية هل تعرف يا بابا معنى سفنكس ؟ ولم يكن الأب فى الواقع يعرف ، فلما قال له الابن إنها تعنى أبو الهول . . صعب ذلك على الأب وساء بعد هذا العمر الطويل ألا يكون معنى سفنكس إلا أبو الهول ، فقد كان يريد لها كلمة تحمل " سحر الغموض " .

ويبدو أن " سحر الغموض " هذا هو الذى يسيطر على بعض أطبائنا حين يريدون للطب المصرى بنية صادقة شيئاً من الواجهة العلمية . . من كهنوت العلم ، وكهنوت العلم فى حد ذاته شئ لا بأس به!

كنت ذات مرة أعدد لطلاب البكالوريوس العلامات الطرفية فى مرض ارتجاع الصمام الأورطى ، ومن بينها علامة سميت باسم الشاعر الفرنسى دى موسيه ، وقد كانت والدته طبيبة اكتشفت العلامة وسمتها باسم ابنها الشاعر المريض بارتجاع الأورطى ، كان الطلاب سعداء بهذه المعلومة البسيطة . . ولكن أحد الزملاء حاول إقناعى أن أتجنب مثل هذا السلوك التعليمى لأنه سوف يعطى الطلاب الانطباع (الذى ربما كنت أخاف منه) بأنى أغلب الأدب على الطب حتى ونحن على أسيرة المرضى !

إلى هذا الحد بلغ بنا الاقتناع بجماد الطب حتى كأن الله خلق هذه العلامة المرضية مسماة باسم دى موسيه فلا يصح أن نذكر لماذا سميت هكذا ، وضاع منا فى ظل هذا الشعور المخدر الإحساس بأن العلم تطور على مدى مئات السنين وأن هذه المسميات ليست إلا نتاجاً لتطور العلم ، والملاحظة ، والتجربة ، والاكتشاف .

أكثر من هذا فإن طبيباً مسلماً " اسمه بهجت " اكتشف مرضاً
فسماه مرض بهجت ، ولكن هذا المرضى في المراجع الطبية يكتب
بالطبع بطريقة أخرى تبعاً للحروف اللاتينية بحيث إذا قرئ في العربية
أصبح اسمه " بخست " ، وللأسف الشديد فإننا نصمم على أن ندرسه
على أنه مرض بخست ، وليس الاسم " بخست " وإنما هو بهجت .

ولكن لابد كما قلنا من إيجاد " أو الحفاظ على " ما يسمى بمسح
الغموض . وبالتالي فلو اكتشف طبيب لقيه (محمد) مرضاً وسمى باسمه
فسننقله أيضاً إلى طلابنا تحت اسم " مرض " موهامد " لأن هذا هو
الطريق الكفيل بتقديم العلم وعدم تخلفنا عن الركب !

ولعلنا قد ووجهنا بهذه الحقيقة المرة أخيراً حين اكتشفنا بعد
سنوات أن الاسم الحقيقي لرئيس وزراء ماليزيا هو " محاضر محمد "
وليس مهاتير " التي هي النطق الأجنيب للاسم المسلم ، وكنا ننقله عن
اللغة المترجمة بدلاً من أن ننقله عن اللغة الأصلية التي هي لغتنا !

أطرف من هذا كله ذلك " التعالم " الذي لم تكتمل أركانه والذي
نسمعه من بعض الذين يقولون لنا إن هذه المصطلحات الطبية ليست
إنجليزية ولا فرنسية وإنما هي لاتينية .

وفي الحقيقة فإن كثيراً من هذه المصطلحات اللاتينية التي
يكون لنا عنها ليست إلا مصطلحات عربية الأصل وأصابت التطوير
الصوتي ، وهي تدخل القاموس اللاتيني ، وسأضرب مثلاً بكلمة واحدة
ليس في وسع أحد أن يزعم أنها خلقت هكذا من أيام أبوقراط ، أو أن
يشتقها من أي فعل لاتيني (وإن كانت التجربة قد علمتنا أن لا نستبعد
وجود من يفعل ذلك).

إنما القصة فى بساطة شديدة أن الأطباء العرب وجدوا نوعاً من العمى لا يمكن إرجاع سببه إلى إصابة فى العين نفسها ، إنما هو يحدث بسبب عصبى غير ظاهر لنا " كما نقول الآن " سبب يكون فى الدماغ (الرأس) ولهذا سمى العلماء العرب هذا النوع من العمى . . "عمى الرأس " فلما نقلت التسمية إلى اللاتينية أخذوها كما هى وحرفت فى لغتهم إل " أمايروسس " ، هل إذا سمينا هذا المرض باسمه العربى وفهمه الطالب فى ثلاث ثوان نكون مخطئين فى حق التقدم العلمى لأننا لم نضيع من الطالب ساعة فى فهم ما لا يكون فهمه إلا بتفسير ملتو شديد التعقيد !

يقول بعض الذين يتخوفون من تعريب الطب إن نتيجة التعريب ستكون فى صورة خريجين لا يعرفون الإنجليزية شأن خريجى الهندسة والتجارة والآداب . . على حين أن خريج الطب هو الوحيد اليوم (فى مصر) الذى يعرف الإنجليزية لأنه درس بها طيلة سبع سنوات . . كلام له بريق يرجع إلى التمشى مع عقيدة نفوق كلية الطب على غيرها من الكليات بلا استثناء . . " وهى بلا شك عقيدة من عقائدنا الغامضة " التى ما زال مجتمعنا يدفع ثمنها !

يبدو أن المأساة تكمن فى اعتقادنا بمعرفة الخريج الإنجليزية على هذا النحو الذى نعرفه جميعاً ، مع أن الفارق بين هاتيك " الرواسب اللغوية " التى تتكون من جراء دراسة الطب باللغة الإنجليزية وبين اللغة نفسها هو كالفارق بين رواسب البحيرات من ناحية ، وبين المحيطات من ناحية أخرى ، بين الأملاح المتبقية التى فيها تركيز عال من مواد بعينها من ناحية ، وبين التدفق الذى لا حدود

له من ناحية أخرى ، بين السكوت التام من ناحية أخرى ، والحركة التي لا تهدأ ، بين القطعة من الحياة وبين قطعة من الأثرية أو الحفريات التي تدل على الحياة ، واسألوا أى طبيب عن هذه اللغة التي يزعمون أنه يعرفها نتيجة دراسته الطب في الكلية بالإنجليزية وسوف تكون هناك إجابات مختلفة تبين لنا أسباباً متعددة ، أخذ بها من تعلموا الإنجليزية كلغة من بين الأطباء اللهم إلا السبب الوحيد المزعوم وهو أنهم درسوا الطب باللغة الإنجليزية !

لعل هذا يذكرني بقصة قائد سيارة كان يحب سماع الأغاني ، ولم تكن تتاح له فرصة هذا السماع كما ينبغي إلا حين يقود سيارته على الطرق السريعة . وجاءته ذات يوم من الأيام فرصة شراء سيارة أخرى أعظم شأناً من سيارته ، فإذا به يتردد في آخر لحظة لأن السيارة الجديدة كانت تفتقد جهاز التسجيل ! وعيناً حاول زملأوه إقناعه بأن هذا الأمر يمكن تداركه بمائة جنيه فقط يشتري بها جهاز تسجيل جديداً.

وللأسف الشديد فإن الصورة عندنا مشابهة إلى حد كبير ، فنحن لا نحتاج إلى الإبقاء على السيارة القديمة وإنما نحتاج جهاز التسجيل . . . نحتاج أن نقرر دراسة اللغة الإنجليزية * واللغة العربية كذلك كما سيأتى * في كليات الطب حتى ولو استمر تعليم الطب باللغة الإنجليزية.

ذلك أن مستوى خريجي الكلية في اللغة الإنجليزية * التي سوف يحتاجونها للرجوع إلى المراجع كما يقول معارضو التعريب " يحتاج دفعة لن نتحقق إلا بتقرير دراسة اللغة كلغة في كلياتنا الجامعية . .

وللأسف الشديد نحن نفعل هذا في مرحلة متأخرة في مرحلة الدراسات العليا ، وفي الغالب فيما بعد الماجستير ، وفيما بعد الدكتوراه حين يكون لزاماً علينا التقدم لامتحان التوفل TOEFL إذا ما أردنا أن نطأ بأقدامنا أعتاب الولايات المتحدة ، التي لم تخدع نفسها بتصديق أننا درسنا الطب باللغة الإنجليزية ! بينما نحن نصر على خداع أنفسنا.

ولست أشك في أن اللغتين العربية والإنجليزية لابد أن تحظيا بتصويب معروف من ساعات الدراسة الجامعية في كليات الطب ، فلا بد أن يدرك الطالب كيف يصوغ لغة عربية سليمة تؤهله للتعامل بسلامة مع المجتمع الذي يعيش فيه ، ويتعامل مع أفرادِهِ .

إن الفارق بين خريج الطب وخريجى الكليات الأخرى أن الطبيب يعتمد كثيراً جداً على تحليل المضمون في ممارسته لمهنته ، وتحليل المضمون يقتضى فهماً تاماً باللغة حين يقال وحين تكتب ، وإذا كان تعامل الطبيب سيتراوح ما بين المراجع والمجلات المكتوبة بالإنجليزية وبين المرضى الذين يتكلمون العربية ولهجاتها العامية فلا بد له أن يحيط إحاطة تامة بإحدى وسائل أدائه لمهنته وهى اللغة.

نعرف أن اللغة لازمة للعالم في معمله ، ولكنها ألزم كثيراً للأطباء في عياداتهم، وتدرّس اللغة في كليات الطب ليس بدعة وليس صعباً ، إنما هى مهمة سهلة جداً مع شئ من التنظيم ، وفى الكادر الجامعى درجات لمدرسى اللغة يشغلها عدد كبير جداً من الأساتذة المخضرمين.

وقد انتبه المشرع للتعليم الجامعى إلى مدى الاحتياج إليهم فى التعليم الجامعى منذ مرحلة مبكرة ، ولكن المشكلة أننا كنا نأخذ هذه

الأمور بصورية شديد فنكتفى من دراسة اللغة بساعات محدودة في سنة واحدة أى بالقدر الذى يشوه الفكرة ليس إلا .

بقيت نقطة هامة تتعلق بالقلق الذى يبديه بعضنا تجاه قصور إمكاناتنا (لأننا تعودنا الكسل) فى المستقبل القريب عن تأليف وطبع ونشر المراجع التى سوف نحتاجها لمواكبة تعريب الطب . ولا أحب أن أعدد للقارئ المراجع المتوفرة ولا أن أحدثه عن خطط ناجحة ، وإمكانات موجودة بالفعل.

ولكنى أؤثر أن أحدثه بمرارة عن أننا كنا ولا زلنا مستهلكين ، وعن أن هناك منتجين يعدون لنا ما نريد طبقاً لتقاليدنا ولقوانيننا دون أن يضيرهم هذا الالتزام بتقاليدنا وقوانيننا ، ولا أريد أن أذكره بأن الصين تنتج لنا سجادات الصلاة وأن اليابان تنتج لنا ساعات الأذان .. ولكنى سأذكر له أن دار نشر أمريكية طبعت فى برنامجها العربى (٥٥) مرجعاً باللغة العربية فى عام واحد لكلية واحدة حين وجدت أن هذه الكليات تدرس المنهج بالعربية ، وليس بالإنجليزية !

فليطمئن الذين يتخوفون من نقص المراجع . . كأن المراجع لا تكتب إلا بأيديهم التى لم تتعود إلا على الكتابة بالإنجليزية . . وهو وهم ما بعده وهم .

نحو خطة إعلامية لمواجهة تشويه صورة العرب على شبكة الإنترنت

أ.د. عدلى رضا *

مقدمة حول شبكة الإنترنت وأساليب دراستها:

أصبحت شبكة الإنترنت ظاهرة واسعة الانتشار ، ووسيلة اتصال وإعلام جديدة ومؤثرة تربط سكان العالم بعضهم ببعض ، ويتميز هذه الشبكة بالسرعة الفائقة والضخامة المتناهية ، وتعم كل جوانب حياتنا ، وتوسع من قدراتنا على التفكير ، وضغط مقاييس الزمن، وتغيير الطريقة التى نفكر بها ، والطريقة التى نتحدث بها مع الآخرين ، بل وما نقوله لهم ، وهو ما جعل صانعى هذه الشبكة

* الأستاذ بكلية الإعلام ، جامعة القاهرة ، والمستشار الإعلامى لوزير التعليم العالى.

ومطوريها يقودون النظام العالمي الجديد ، ويصوغون ثقافته ، ويوجهون سياساته ، ويتحكمون في اقتصادياته ، مما يثير العديد من التساؤلات حول طبيعة تأثيرات شبكة الإنترنت أو الطريق السريع للمعلومات ، على الأفراد والمجتمعات ، بل وعلى وسائل الإعلام التقليدية ذاتها ومناهج دراستها وطرق تحليلها ، فالتأثيرات الإنسانية والاجتماعية أكثر أهمية من الوسيلة في حد ذاتها .

وحتى وقت قريب تم تجاهل دراسة الإنترنت كوسيلة اتصال وإعلام ، والتركيز على وسائل الإعلام التقليدية ، في الوقت الذي يفتح فيه الاهتمام بدراسة هذه الوسيلة الجديدة آفاقاً رحبة أمام الدراسات الإعلامية ، حيث تطرح عدة رؤى جديدة تقع في لب المحاور الأساسية لدراسة الاتصال والإعلام وتتحدى بها النظريات الاتصالية التقليدية ، والمفاهيم التقليدية لعملية الاتصال وأطرافها " المصدر - الرسالة - المستقبل " ، كما تبرز أشكال متميزة من التفاعل والاتصال الشخصي ووسائل الإعلام الجماهيرية ، مما يجعل التصنيف التقليدي للاتصال المباشر والجماهيرى غير محدد المعالم وغير مناسب للاحتياجات الاتصالية الجديدة ، إذ تمثل الإنترنت أعلى مراحل الدمج بين وسائل الاتصال التقليدية والحديثة معاً . كما تطرح شبكة الإنترنت أو الطريق السريع للمعلومات Super Highway مداخل جديدة في مجالات فاعلية الجمهور والتكنولوجيا ، وطبيعة المضمون ورجع الصدى ، فهي بصفة عامة سوف تجبر باحثى الاتصال والإعلام على إعادة التنظيم والتأصيل لكثير من المفاهيم والنظريات الاتصالية والإعلامية السائدة.

ويمكن دراسة الإنترنت من خلال أسلوبين : الأول يركز على دراسة الإنترنت كوسيلة إعلامية واتصالية ، والثاني يركز على دراستها من زاوية البحوث التي تعنى بالاتصال عبر الكمبيوتر -Computer Mediated Communication والفارق بين المجالين هو أن الأول يعنى بالتأصيل والتطوير للإنترنت من خلال توصيف أشكالها الاتصالية، بينما يركز المجال الثاني على الكمبيوتر كوسيلة تكنولوجية قائمة بذاتها.

وعلى مدار السنوات القليلة الماضية ، استخدم الباحثون عدة مداخل لدراسة الاتصال الإنساني عبر الكمبيوتر وأنظمة الاتصال عبر الشبكات ، وصاغوا لذلك عدة إطارات Frameworks لتحديد وحدات التحليل Units of Analysis الملائمة لدراسة هذا المجال ، فدرس بعض الباحثين العلاقة بين خصائص وسائل الإعلام وخصائص الأفراد الذين يستخدمونها ، وعنى باحثون آخرون بدراسة المقومات الإنسانية لعمليات الاتصال التي تتم عبر الكمبيوتر ، وقاموا بتحليل العوامل النفسية والاجتماعية ، وأيضاً العوامل المتعلقة بالسياق المجتمعي الذي تتم فيه هذه العمليات الاتصالية . . واهتم باحثون آخرون بدراسة طرق نشر وتبني وسائل الإعلام ذات الطبيعة التفاعلية Interactivity وركزوا على العوامل التي تسهم في زيادة وتبني تكنولوجيا وسائل الإعلام ، وطرحوا عدة نماذج تبين كيفية استخدام التكنولوجيا في تنمية وتطوير المجتمع، كما عنى باحثون آخرون بتوصيف التغيرات الفردية والاجتماعية التي تحدثها الوسائل التكنولوجية الجديدة.

وفي مجال دراسة وسائل الاتصال المباشر أو على الخط On Line Communication ركز البعض على تحليل طبيعة اللغة المستخدمة ونوعية الخطاب الذي تطرحه هذه الوسيلة ، كما عنيوا بفحص المحتوى الذي يبيث على الخط أو الاتصال المباشر ، واستخدموا عدة مداخل لتحديد وحدات التحليل . وقد توصل الباحثون في هذه المجالات إلى عدة نتائج هامة تتعلق ببناء الاتصال ومحتواه وطبيعة عملية الاتصال عبر الكمبيوتر ، وهي نتائج تساعد في تفسير دور وتأثير تكنولوجيا الاتصال الحديثة في عمليات التعلم .

وقد تعددت فئات ومجالات هذه الدراسات ما بين دراسة عمليات الاتصال من كمبيوتر إلى كمبيوتر ، والبريد الإلكتروني ، والجماعات الاختيارية News Groups ، وقوائم المناقشة Discussion Lists ، والشركات التجارية والخاصة العاملة في مجال الخدمات On Line Services.

وقد حرصت الدراسات التي تمت في مجال دراسة الاتصال عبر الكمبيوتر على طرح عدة مباحثات أو إطارات تضبط طرق تحديد وحدات التحليل المستخدمة ، إذ بينما لا يعنى الباحثون في وسائل الإعلام كثيراً بتعريف معنى وسيلة الإعلام ذاتها ، فإن التنوع في أنظمة الاتصال عبر الإنترنت وتطبيقاتها دعت إلى التركيز في وحدات التحليل المستخدمة لدراسة الاتصال عبر الإنترنت ، حيث لا يمكن النظر إلى الإنترنت كوسيلة مفردة ، فهي تتكون من عدد متنوع من وسائل الإعلام مجتمعة .

وعلى الرغم من توافر بعض الدراسات التي تناولت التأثيرات الناجمة عن استخدام تكنولوجيا الاتصال الحديثة ، إلا أن هذه الدراسات ما زالت تواجه عدة صعوبات في تحديد هذه الوحدات ، أو تكوين إطار نظري متكامل يساعد في تفسير هذه الظواهر الاتصالية الجديدة ، أو طرح نماذج محددة تفسر طبيعة استخدام هذه الوسائل وتبينها ، وطبيعة عملية الاتصال عبر الكمبيوتر .

وبالإضافة إلى نقص التكامل النظري والمعرفي الذي تعاني منه هذه الدراسات فإن التغيرات الهائلة والمتسارعة التي تحدث في شبكة الإنترنت منذ عام ١٩٦٩ وحتى عام ٢٠٠٠ تقدم أشكالاً متنوعة من عمليات الاتصال ، والتي لا تقتصر فقط على البريد الإلكتروني، E-Mail أو جماعات النقاش Group Discussion أو مجرد نشر المعلومات والتحاور حولها ، بل توفر أدوات عديدة ووسائل لاسترجاع المعلومات Retrieval والاتصال Communication ، والتفاعل Interaction مما يجعل مسألة التخطيط لشبكة الإنترنت كوسيلة اتصالية وإعلامية جديدة ومتفردة تحتاج إلى جهد بالغ لاستكشافها والتأصيل لها.

لقد أفرزت هذه الثورة الاتصالية ، ظاهرة العولمة أو الكونية Globalization ، وتخطى الحدود الوطنية ، أو السيادة القومية ، وهددت هويات العديد من المجتمعات لصالح اكتساح ثقافة وتقاليد المجتمعات الغربية ، كما أدت إلى اختزال المسافات وساعدت في تحرير الإنسان من قيود حجمه وإيقاع زمنه بشكل يجعله قادراً على التفاعل مع إيقاعات زمنية تختلف نوعياً عن إيقاعه البيولوجي.

الإعلام العربي وتحديات ثورة الاتصالات والمعلومات :

يعيش العالم اليوم عصر الثورة التكنولوجية الثالثة ، والتي تعتمد أساساً على العقل البشرى ، والإلكترونيات الدقيقة ، والهندسة الحيوية ، والكمبيوتر والذكاء الصناعى وتوليد المعلومات ، وأدى ذلك لسرعة التغير الاجتماعى وزيادة تأثيره وعالميته ، وهو أمر انعكس سلباً على عمق الفجوة بين التقدم والتخلف فى العالم ، وزاد من حدة مشكلة الفقر . وفى نفس الوقت فتح الباب على مصراعيه للثلاث الإعلامى الذى يتخطى الحدود الجغرافية والثقافية ، وزاد من مشكلة التخلف التقنى فى العالم الثالث لا على المستوى الاقتصادى فحسب ، بل على المستوى المعلوماتى وتبادل المعرفة ، الأمر الذى ترك الكثير من الأجهزة العلمية والثقافية فى تلك الدول أمام مأزق كبير ومعادلة صعبة الحل . ويدخل العالم والمنطقة إلى القرن الحادى والعشرين بصورة لم تحدث من قبل . فهذا الألف الثالث يقبل وهو مشحون بتغييرات مذهلة لم يشهد تاريخ الإنسان لها مثيلاً من قبل .

وبواجه العالم العربى مجموعة من التحديات يمكن أن تشكل تهديداً للذاتية الثقافية العربية ، وما لم يتم مواجهتها يعمل مشترك يهدف إلى خلق كيان إعلامى عربى مؤثر وفعال ، ويستمد مقوماته من قيمه وتراثه وينفتح على العالم أخذاً وعطاء ، فقد يصبح من الصعب - إن لم

يكن من المستحيل - أن يواكب عصره بمعطياته ومستجداته ويبقى متخلفاً عن ركب التطور وملاحقة كل جديد.

وتشهد الساحة الإعلامية تطوراً علمياً وتكنولوجياً كبيراً في شتى وسائل الاتصال مما جعل العالم قرية إلكترونية صغيرة خاصة بعد انتشار تكنولوجيا الأقمار الصناعية وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ولقد ساعد وجود هذه الوسائل الحديثة على تخطي حواجز الزمان والمكان ، وبث ثقافات مختلفة عبر القنوات الفضائية وشبكة الإنترنت بكل ما تحمله من أفكار وقيم وسهولة استقبالها من كافة الشعوب ، ومنها الشعوب العربية.

وقد صاحب هذا التطور التكنولوجي في مجال الاتصال متغيرات دولية ساهمت في إعادة تشكيل العالم ، مع ظهور كيانات سياسية واقتصادية قطعت أشواطاً في مجالات التعاون المختلفة ، وفتحت الحدود أمام السلع والمنتجات بما فيها المنتج الثقافي والإعلامي. ولما كان العالم العربي لا يستطيع أن يقف بمعزل عن تلك التطورات ، فقد أصبح لزاماً عليه أن يأخذ بالمبادئ التي ترسم أطرها الاتفاقيات والمعاهدات الدولية مراعيًا في ذلك تحقيق المشاركة والتفاعل مع الأسرة الدولية بما يحقق مصالحه وقضاياها دون أن يفقد هويته العربية وذاتيته الثقافية التي يتميز بها .

وفي مواجهة هذه التحديات تبرز أهمية العمل العربي المشترك في مجال الإعلام، وذلك للقيام بدور فعال في خدمة قضاياها ، حتى يعكس رؤية عربية موحدة إزاء ما يجري على الساحة الدولية من

متغيرات ، علاوة على نشر الرسالة الإعلامية ذات المضمون السهاف والقادر على جذب الجماهير العربية من خلال إنتاج متميز يضمن له القدرة على المنافسة ، والوقوف أمام البث الوافد لطرحة للبدول العربي الذي يحافظ على الأصالة مع الانفتاح على العالم . ويضاف إلى ذلك ضرورة قيام الإعلام العربي بالتصدي لتشويه صورته من خلال القنوات الفضائية ووسائل الإعلام الغربية ، وكذلك عبر شبكة الإنترنت. ومن الملاحظ من خلال دراسة واقع الرسائل الإعلامية فى وسائل الإعلام الغربية ، وعبر الإنترنت أن هناك حملة شرسة موجهة ضد الكيان العربي وقيمه وعاداته وتقاليده وثقافته بوجه عام ، مما يدفعنا إلى ضرورة الدعوة إلى تكاتف الجهود العربية لمواجهة هذه الحملات وتصحيح الصورة الخاصة بالواقع العربي وثقافته سواء من خلال أجهزة الإعلام العربية أو عبر شبكة الإنترنت نفسها .

تشويه صورة العرب على شبكة الإنترنت :

على الرغم من الفوائد المعلوماتية والبحثية التى توفرها شبكة الإنترنت لجميع من يتعاملون معها ، إلا أنه على الجانب الآخر يظهر الجانب الملبى لهذه المشكلة ، من خلال استخدامها فى تقديم معلومات أو صور مشوهة من جانب بعض الدول أو الهيئات أو الأفراد عن الشعوب والدول الأخرى ، مما يجعل الإنترنت وسيلة اتصالية خطيرة فى تزييف الواقع الخاص بشعب من الشعوب فى العالم . . والمتابع لما يتم بثه من خلال هذه الشبكة يلحظ تشويهاً متعمداً لكثير من الدول والشعوب والثقافات والأديان والتاريخ ، مما يؤدى إلى نقل معلومات مضللة أو مشوهة إلى الجماهير التى تتعامل مع هذه الشبكة . ولعل ما

يهيمن في هذا الأمر ما تقوم به بعض الدول والجهات المشبوهة من تشويه لصورة الإنسان العربي وثقافته وعاداته وتقاليده من خلال الإنترنت مما يساعد على تكوين صورة ذهنية مشوهة وغير صادقة عن العرب لدى مواطني الشعوب الأخرى في العالم . ولقد أصبح المواطن العربي وثقافته مستهدفاً من وسائل الإعلام الغربية من ناحية ، ومن بعض الدول والجهات المشبوهة من خلال شبكة الإنترنت من ناحية أخرى . وهنا لابد من وقفة تؤكد فيها على ضرورة تكاتف الجهود العربية - وخاصة الإعلامية منها - لمواجهة هذا التشويه المتعمد للإنسان العربي وثقافته على شبكة الإنترنت.

إننا لابد أن نؤكد على اعتزازنا بثقافتنا وقيمنا وعاداتنا العربية في إطار اعتزازنا بذاتيتنا الثقافية ، وإن كنا لا نعتبر تأكيد الذاتية الثقافية ضرباً من الانطواء على النفس ، أو صورة من صور التعصب القومي، بل هو على العكس يعني الرغبة في الإسهام والمشاركة ، وهو يعطى التعاون الثقافي الدولي مضموناً حقيقياً . فليس التفاهم بين الشعوب مجرد أمنية ، كما أنه لا يقوم على تسلط شكل واحد من أشكال الثقافة ، بل يتجسد ويتدعم عن طريق المساهمات الأصيلة لمختلف الشعوب بتقاليدها الثقافية وتراثها التاريخي وقيمها الإنسانية وأشكالها الأصيلة في التعبير الفني . . إن تأكيد الذاتية الثقافية لكل شعب من الشعوب ينبغي أن يقوم على أساس التنوع الثقافي ، والتجاوز ما بين الثقافات والحضارات واحترام ذلك على أساس من المساواة في الحق والكرامة باعتباره عاملاً من عوامل السلام والتفاهم بين الشعوب.

وفى إطار دفاعنا عن ذاتيتنا ينبغي أن نؤكد على ضرورة مشاركتنا فى تقديم الصورة الصحيحة للعرب وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم للشعوب الأخرى ، وذلك من خلال إنتاج إعلامى متميز يقدم عبر وسائل الإعلام المصرية الموجهة بلغات أجنبية ، وكذلك عبر شبكة الإنترنت . . ومن ناحية أخرى لابد من إنتاج إعلامى عربى لمواجهة الحملات الشرسة التى تشوه صورة العرب فى وسائل الإعلام الغربية وعبر الإنترنت.

وعلى هذا الأساس فإننى أدعو هنا إلى أهمية ، بل وضرورة دراسة محتوى الرسالة الإعلامية المقدمة عن صورة العرب من خلال شبكة الإنترنت ، وذلك فى إطار دراسة الشبكة كوسيلة إعلامية واتصالية جديدة . والهدف من ذلك هو تسليط الأضواء على الواقع الخاص بتشويه صورة العرب على شبكة الإنترنت والآليات التى ينبغي أن تقوم بها الخطة الإعلامية العربية لمواجهة هذا التشويه الذى تبثه الشبكة عن المواطن العربى وثقافته ودينه وقيمه وعاداته وتقاليده .

عناصر الخطة الإعلامية العربية المقترحة :

تنطلق هذه الخطة من ضرورة الاستفادة من الطاقات الإعلامية والثقافية المتوافرة فى العالم العربى ، بما يساعد على تحقيق الاستفادة من هذه الطاقات وبما يخدم تقديم صورة حقيقية وموضوعية عن الإنسان العربى وثقافته ودينه وعاداته وتقاليده على الشبكة الدولية للمعلومات " الإنترنت " .

وفيما يلي عرض لآليات ، يمكن تنفيذها من خلال هذه الخطوة الإعلامية:

١- ضرورة إنشاء جهاز إعلامي عربي للبحوث يتولى رصد وتحليل واقع ما يقدم عن العرب في وسائل الإعلام الغربية ، وفي الإنترنت، وإعداد الدراسات العلمية والحقائق التي يعتمد عليها في الرد على ما يقدم من صورة مشوهة أو إساءة تتعلق بالعرب وثقافتهم ودينهم .

٢- ضرورة إنشاء جهاز عربي للإنتاج الإعلامي يتولى إنتاج برامج وأفلام وتقارير إخبارية وغيرها تتناول الصورة الحقيقية للمواطن العربي وثقافته وعاداته وقيمه ونقلها للشعوب الأخرى من خلال شبكة الإنترنت.

٣- إنشاء شبكة عربية للمعلومات ، يتم من خلالها نقل المعارف والمعلومات في مختلف المجالات عن الوطن العربي بكافة أقطاره، بما يساعد على تبادل المعلومات بين أبناء الوطن العربي ، وسرعة تدفق هذه المعلومات بينهم.

٤- الاهتمام بنشر الصورة الصحيحة عن الإسلام ومبادئه على شبكة الإنترنت ، حتى يتم تصحيح الصورة المشوهة أو الإساءات التي يروجها أعداء الإسلام من بعض الدول أو الجهات المشبوهة أو الأفراد . . ويستلزم الأمر هنا إنتاج برامج إذاعية وتلفزيونية تتناول شرح وتحليل صورة الإسلام الحقيقية ، والرد على دعاوى وأكاذيب من يشوهون صورة العرب والمسلمين عبر الإنترنت.

٥- الاستفادة من تكنولوجيا الاتصال الحديثة فى مجال الأقمار الصناعية بإنشاء قنوات فضائية عربية باللغات الأجنبية يتم من خلالها شرح التاريخ العربى والعادات والتقاليد والحضارة والثقافة العربية لمواطنى الدول الغربية.

٦- الاهتمام بالارتفاع بمستوى الإنتاج العربى فى مجال البرامج الإذاعية والتليفزيونية، وزيادة مشاركة الجماهير العربية فى صنع الرسالة الإعلامية فى إطار دعم ديمقراطية الاتصال بين وسائل الإعلام العربية ومواطنيها ، بما يساعد فى زيادة ارتباط المواطن العربى بوسائل إعلامه القومية .

٧- الاهتمام بضرورة دعم البرامج التدريسية والإعلامية الموجهة للمواطن الفلسطينى فى الوطن المحتل ، بما يدعم ارتباطه بثقافته العربية وقيمه وعاداته وتقاليدته فى مواجهة ما تقوم به إسرائيل من طمس وتشويه للهوية والثقافة العربية .

٨- تنظيم مجموعة من ورش العمل الإعلامية حول تأثير تكنولوجيا الاتصال الحديثة واستخداماتها فى المجالات التعليمية والبحثية ، وشارك فى هذه الورش الإعلاميون العرب الذين يقومون بتصحيح صورة العرب على شبكة الإنترنت.

٩- المطالبة بضرورة وضع ميثاق شرف دولى حول أخلاقيات التعامل مع شبكة الإنترنت.

أهم المراجع :

أ- المراجع العربية :

- ١- سامي طابع ، استخدام شبكة المعلومات " الإنترنت " فى الحملات الإعلامية ،
المجلة المصرية لبحوث الإعلام . جامعة القاهرة - كلية الإعلام - العدد الثانى
إبريل - يونيه ١٩٩٧ .
- ٢- شاهيناز بسيونى ، علاقة الجمهور المصرى بالحاسبات الشخصية لوسائل اتصال
منافسة لوسائل الاتصال الجماهيرى . جامعة الزقازيق ، مجلة كلية الآداب ،
أكتوبر ١٩٩٦ .
- ٣- محمود علم الدين ، تكنولوجيا الاتصال فى التسعينات - التطورات الراهنة
والتأثيرات الاتصالية ، مجلة لبحوث الإعلامية . جامعة الأزهر - يوليو ١٩٩٤ .

ب- المراجع الأجنبية :

- 1- Bromley, R.V and Bowe D, Impact of Internet on use of Traditional news Media, Newspaper Research Journal, Spring 1995.
- 2- December, John (1996) units of Analysis for Internet Communication, Journal of communication.
- 3- John, S (1995) Cyber society: Computer- Mediated Communication and Society, Thous and Oaks, CA : Sage Publications.
- 4- Kent, Peter, The Complete Idiot's Guide to the Internet, Indianapolis 1nd : Alpa Books, 1994.
- 5- Krol, Ed. The Whole Internet, Sebastopol, Calif: O: Reilly and Ass, 1994.
- 6- Walter, J.B (1992), Interpersonal Effects in Computer- Mediated Interaction, Communication Research.
- 7- Williams, F, Rice, R, E and Rogers, E (1986) Research Methods and the New Media, New York: Free Press.

العولمة ومستقبل المجتمع والدولة في " الشرق الأوسط "

أ.د. علي ليله *

أولاً : العولمة : طبيعتها وخصائصها :

يتطلب تحليل التفاعلات التي تخضع لها مجتمعات الشرق الأوسط عامة، وبخاصة المجتمعات العربية كنظام متجانس ضمن النظام الشرق أوسطى ، الذي يجري الترويج له ، في ظل أيديولوجية العولمة التي توجه أفعالاً وممارسات عديدة لإعادة صياغة عالمنا وفق منطق محدد ، أن نرجع إلى بداية عقد التسعينات ، حيث الفسترة التاريخية التي شهدت انهيار نظام عالمي قديم كذلك ، الأمر الذي أطلق عقول تساؤلات كثيرة حول طبيعة النظام العالمي الجديد : هل هو نظام عالمي أحادي القطب ، تنفرد بالسيطرة عليه دولة واحدة قوية ، تربع على عرشه ، وتنظم التفاعل بين وحدائه ، أم نظام عالمي متعدد القوى والأقطاب ؟ هل هو نظام عالمي سوف تكون حركة مجتمعات العالم الثالث محدودة في إطاره كما في التعدد الأول ، أم أن هناك مساحة من حرية الحركة أمام دول هذا العالم في حالة عالم تضيق إيقاعه قوى متعددة ؟ ويمكن القول بأن هذه التأملات التي حاولت تحليل التحولات العالمية قد سقطت في خطئين ، الأول أنها ناقشت التفاعلات والتحولات العالمية استناداً إلى خلفية سياسية بينما التحولات الحقيقية

* أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة عين شمس.

التي تقع على أرض الواقع وتعمل على إعادة تشكيله كانت ذات طبيعة اقتصادية بالأساس.

بينما تمثل الخطأ الثاني في النظر إلى القوى العالمية المتعددة ، وكأنها هي تكف على خط واحد من حيث النوع والدرجة ، الأمر الذي برر الحديث عن تعدد القوى ، بينما يشهد واقع الأمر اختلافاً بين القوى العالمية من حيث النوع والدرجة والعمق كذلك . وفي هذا الإطار نقصد بالعمق امتلاك الدولة أو المجتمع لأشكال متنوعة من القوى ، وبدرجة عالية في نفس الوقت ، وهي الحالة التي توفرت للولايات المتحدة الأمريكية بامتياز .

تأكيداً لذلك فإن تأمل حالة أو ظاهرة العولمة التي تحدث في نظامنا العالمي المعاصر يكشف عن كونها تشكل أيديولوجيا توجه مجموعة من السياسات والممارسات التي تستهدف إعادة صياغة العالم أو إعادة تشكيله وفق نماذج القوة الأساسية الأبرز في هذا العالم ، ولصالح هذه القوة كذلك . فإذا تأملنا حالة النظام العالمي الجديد الذي بدأ يتشكل بالفعل ، فسوف نجد أنه يتميز بمجموعة من الخصائص الرئيسية التي تعكس نموذج المجتمع الأقوى في العالم . وتتمثل الخاصية الأولى في الدعوة إلى التسامح الثقافي في مواجهة المركزية الأوروبية التي كانت تميز التوجه الأوربي نحو العالم . ومن المنطقي أن تتسق هذه الدعوة إلى التسامح الثقافي مع التعددية الثقافية ، وهي إحدى المظاهر التي تميز الثقافة الأمريكية . وتتمثل الخاصية الثانية المميزة للنظام العالمي الجديد في التأكيد على النسبية الثقافية وسقوط الإطلاق الأيديولوجي ، وإن كان ذلك يمسهد بدرجة أكثر لانتصار نسبية ثقافية على أخرى لامتلاكها آليات الانتصار ، وإمكانية تحولها إلى أيديولوجيا لها صفة الإطلاق ، وهي بطبيعة الحال الليبرالية الأمريكية . وتتصل الخاصية الثالثة بإطلاق طاقات الإنسان الخلاقة في إطار من السياقات الديمقراطية ، وهو ما يعكس في طبيعة حاله للنموذج الأمريكي كذلك . وتؤكد الخاصية الرابعة على الاهتمام بإحياء المجتمعات المحلية بثقافتها وتنظيماتها الاجتماعية في مواجهة مركزية الدولة التي تسعى من خلال اتجاه مضاد إلى تأسيس تجانس يضعف هوية المحليات ، إضافة إلى خاصة خامسة تتمثل في إحياء المجتمع المدني بتنظيماته ومؤسساته المختلفة كى يلعب دوراً محورياً في عملية التطور الاجتماعي في مواجهة الدور الذي كانت تقوم به الدولة في النظام العالمي القديم . هذا إلى جانب التأكيد على خاصية سادسة وأخيرة تدور حول

تأكيد التوازن بين القيم المادية والروحية^(١) على مستوى العالم ، وفي داخل كل مجتمع من مجتمعاته بعد أن كان النظام العالمي مقسماً إلى مجتمعات تؤكد على القيم الروحية والمعنوية وأخرى تعطي الأولوية للقيم المادية، وبعد أن برز تأكيد خلال النظام الجديد بأن ازدهار القيم المادية يمكن أن يسلم إلى الانهيار .

فإذا تأملنا مجموعة الخصائص السابقة فسوف نجد أنها تعكس بنسبة عالية منها خصائص النموذج الأمريكي إلى جانب الخصائص المميزة لبنائه. هناك الخصائص التي يسعى إلى تحقيقها سواء في نظام السياحة المحلي الأمريكي أو على الصعيد العالمي كالسعي لخلق حالة من التماسك الثقافي أو التأكيد على توازن القيم المادية والروحية وهو ما يشير إلى أن التأكيد على أهمية أن يتميز النظام العالمي الجديد بهذه الخصائص.

ذلك ينقلنا إلى محاولة تحديد ما هي العولمة ؟ في تحديدنا اللغوي تشير العولمة إلى تقييم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله^(٢) بينما يوجد تحديد آخر للعولمة يشير إلى أنها عملية مستمرة وواقعية وليست مفهوماً مجرداً ، ويمكن ملاحظتها من خلال مؤشرات كمية وكيفية في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة والاتصال^(٣) وبذلك تؤكد العولمة على مجموعة من العمليات التي تغطي أغلب الكون وتشيع على مستوى العالم ، ومن هنا فالعولمة لها بعد مكاني ، غير أنها تحتوي كذلك على بعد زمني ، حينما تتضمن تعميقاً في مستويات التفاعل والاعتماد المتبادل بين الدولة والمجتمعات التي تشكل النظام العالمي .

بالإضافة إلى ذلك هناك من يحدد العولمة بأنها وصول نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن تقريباً ، إلى نقطة الانتقال من دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول ، إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها . أي أن ظاهرة العولمة التي تشيدها هي بداية عولمة الإنتاج والرأس مالى الإنتاج ومقوى الإنتاج الرأسمالية

^(١) Crooks Other, Postmodernization, in Advanced Society (Sage Publications, London, 1992) P. 32.

^(٢) للجابري، محمد عابد : العرب والعولمة : العولمة والهوية الثقافية ، تقييم نقدي لممارسة العولمة في المجال الثقافي ، في ص ص ٢٧٩ - ٢٧٩ - ٣١٩ بخاصة ص ٣٠٠ في (العرب والعولمة (نسوة) ، مركز دراسات الوحدة العربية تحرير أسامة الحذلي ، بيروت ، يونيو ١٩٩٨ .

^(٣) سنن السيد : في مفهوم العولمة ص ص ٢٣ - ٣٤ ، وبخاصة ص ٢٦ في (العرب والعولمة ، مرجع سابق .

وبالتالى علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضاً ، ونشرها فى كل مكان مناصب ملائم خارج مجتمعات المركز الأسمى . ودولة العولمة بهذا المعنى هى رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملته على مستوى النمط ومظاهره . . . وينتهى هذا التعريف للعولمة بتحديددها باعتبارها حقبة التحول الرأسمالى العميق للإنسانية جمعاء فى ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها تحت سيطرتها وفى ظل نظام عالمى للتبادل غير المتكافئ * .

وعلى هذا النحو تختلف العولمة Globalization عن العالمية Ulnae rsaligation قبيما تشير الأولى إلى إدارة الهيمنة ، وإمضاء كل ما هو خاص كما أنها تشكل طموحاً لاختراق الآخر وسلبه خصوصيته ، ومن ثم نقيه من العالم ، نجد أن الثانية تشير إلى طموح لارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمى ، فهى تفتح على ما هو كونى، هى طموح مشروع إلى الخارج ، ورغبة فى الأخذ والعطاء والتعارف والحوار والتلاحم، وهى طريق الأنا للتكامل مع الآخر بوصفه (أنا ثانية) ، أو هى طريق إلى جعل الإثارة يحل محل الأثرة ، وإلى جانب ذلك تؤكد المحلية أو القومية على الحدود الفاصلة ، وتنتشر فيها قيم ومبادئ وثقافة محدودة قد تكون متغلقة على نفسها ، تنتقى من بين ما يقد إليها ويتفق مع تراثها ، أو قد تكون مفتوحة تسعى عن وعى وكبرياء إلى العالمية وإن رفضت العولمة فى شموخ .^(١)

خلاصة الأمر أن العولمة تسعى إلى إعادة تشكيل العالم وثقافته وأوضاعه الاجتماعية وفق منطق يتضمن العمليات الرئيسية التالية :

- ١- أن العولمة تسعى إلى إعادة تشكيل العالم وفق أيديولوجيا ونموذج محدد هو النموذج الأمريكى بالأساس فهى محاولة جعل ما هو خاص بأمة معينة ، عاما ينطبق على العالم بأسره حتى يخلق تجانس عالمى تتناسب عبره السلع المادية والمعنوية .
- ٢- أن العولمة التى تحقق ذلك تعمل على تفكيك العالم بقوة ، قد ينتاب التفكيك عزل جماعات المجتمع عن بعضها أغلبية أو أقلية، حتى يصبح الجميع أقلية فى إطار كل أكثر شمولاً ، وفى هذا الإطار تسقط خصوصيات المحليات - ثقافياً واجتماعياً ويحل محلها ما هو عام وشامل وبلا أساس غريب عن أبنيتها .
- ٣- بعد تحويل الجميع إلى قطع صغيرة فى نظام عالمى شامل يتخلق قضاء بلا حدود تنتشر عبر الصور والمعلومات والتكنولوجيا ، التى يقدمها منح قوى إلى مستهلكين

^(١) Stephen Crook / Others, Op. Cit. 26

- ضعفاء ، ينتظرون ما قدم إليهم دون اعتراض.
- ٤- تستهدف العولمة تحقيق عالم متشابه ومتجانس يستخدم ذات التكنولوجيا، ويستهلك ذات السلع ويستوعب ذات الأفكار ويتمتع بذات الصور ، وأنشاء ذلك تسقط قيم وأديان وحضارات تقف في مواجهة المد الرأسمالي . والعولمة بذلك تسعى إلى خلق سباق أمان واستقرار كامل يحيط بالقوة الرئيسية في العالم.
- ٥- أن هذا العالم الذي يفترض تجانسه يتباين إلى شطرين : شطر يضم الفقراء والمستهلكين والجهلة العارزين من المعلومات ، في مقابل شطر يضم قلة على مستوى العالم من الأغنياء والمنتجين للسلع والذين يمتلكون المعلومات . ويحتاج القسمان كل للأخر ، بل تقوم بينهما رابطة عضوية تجعل وجود أى منها مرتبطاً بوجود الآخر .
- ٦- أنه لكي تجسد أيديولوجيا العولمة ذاتها على خريطة العالم ذاتها فإنها تلجأ إلى آليات عديدة ، بعضها اقتصادي كالاندفاع المباشر لرأس المال الأجنبي والشركات المتعددة الجنسية ، وبعضها سياسي من خلال الاتفاقيات الدولية ، والضغط بمسائل عديدة - داخلية وخارجية - على الدولة القومية ، والثالث ثقافي من خلال تكنولوجيا الاتصال والمعلومات التي أصبحت لها فاعليتها وقوتها في الفترة الأخيرة ، والرابع عسكري إذا لم تلجأ الآليات السابقة. وقد تستخدم هذه الآليات منفردة أو مجمعة حسب طبيعة الأحوال والظروف.
- ذلك يعني أن العولمة أصبحت لها آثارها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على الدولة والمجتمع في العالم الثالث والشرق الأوسط ، بيد أنها فيما يتعلق بمجتمعات النظام العربي تسعى إلى تحقيق ثلاثة أهداف ، الأول : إضعاف الثقافة القومية بالأسلـس ، وفي العالم العربي ، هي الثقافة العربية التي يشكل الدين أسامها القاعدي ، وإضعاف الثقافة العربية سوف يعني إضعاف الرابطة التي توحد بين المجتمعات العربية، فتتلاشى لتحل محلها المشاعر والعواطف القطرية، والثاني: تفكيك المجتمعات القطرية من الداخل إلى أقلياتها التي تتكون منها ، أيأ كانت طبيعة وأساس الانقسام الإثني في المجتمع الديني، أم سلائي عرق ، أم ثقافي أم اجتماعي . بحيث تتحول المنطقة العربية إلى مجموعة من الجماعات الاثنية التي سقطت عنها ثقافتها وأصالتها الاجتماعية . والثالث : هو إعادة تشكيل النظام العربي ليصبح ضمن نظام شرق أوسطي بعد أن تضاف إليه تركيا وإيران وإسرائيل بحيث تتحول إسرائيل في النظام الجديد إلى قوى اقتصادية وعسكرية كبيرة ، وربما بشرية كذلك ، أما تركيا فقد بدأت عولمتها وإحاقها بالغرب حينما اختار كمال أتاتورك ذلك منذ عقود عديدة . وأمام هذا الطوفان قد تعمد إيران حساباتها وتؤسس

توجهات وسياسات جديدة ، تتفتح من خلالها على الغرب من جديد ، وبخاصة على الولايات المتحدة ، وتستوعب نمطها الحضاري والثقافي . وفي هذا النظام الجديد سوف تصبح تركيا وإسرائيل ، وربما مصر وإيران هي القوى الضابطة لاستقراره .

ثانياً : النظام الشرق أوسطى كأحد جسور العولمة.

أشرنا في الفقرة السابقة إلى معنى أيديولوجي نحو تأسيس عالم متجانس يشكل سوقاً واسعة للقوى الرأسمالية العالمية وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية ، وما دام هذا العالم قد أصبح يستهلك السلع الرأسمالية - مادية كانت أو معنوية - فإن أيوائه سوف تكون مفتوحة لتكون نمط الحياة الغربي ، بحيث نجد أنه كلما تغلغل نمط الحياة الرأسمالية في حياة المجتمعات كلما اقتدت مساحة موازنة من هويتها الوطنية . وحتى تحقق الرأسمالية هذا التجانس عبر العالم ، فلا بد من عملية تفكيك للوحدات الإقليمية لتصبح وحدات محلية يسهل إعادة تركيبها في بناء تجمعات إقليمية جديدة ، أو إعادة إلحاقها المباشر لتربط بالمركز أو بالمراكز الرأسمالية . ولقد كان النظام العربي أهم النظم الإقليمية التي استهدفتها العولمة الأمريكية بالتحديد.

حيث تمثل الهدف الرئيسي في تحويل النظام العربي ليصبح ضمن نظام شرق أوسطى يحل محله ، تكون للولايات المتحدة آليات السيطرة الكاملة عليه . وقد ابتدأ التفكير في ذلك بدأ من مؤتمر مدريد الذي عقد في ١٩٩١ ومبروراً بإعلان (المبادئ الفلسطينية - الإسرائيلية) الذي نال شهره واسعة تحت مسمى (غزة أريحا أولاً) في عام ١٩٩٣ وكذلك معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية في عام ١٩٩٤ إضافة إلى سلسلة مؤتمرات (القمة الاقتصادية للشرق الأوسط وشمال أفريقيا الأربعة ، مؤتمر * الدار البيضاء * الذي عقد في ١٩٩٤ ثم مؤتمر عمان الذي عقد في ١٩٩٥ ثم مؤتمر القاهرة الذي عقد في ١٩٩٦،^(١) ثم آخر هذه المؤتمرات التي عقد بعد ذلك في مدينة الدوحة بدولة قطر . حيث بدأت هذه الترتيبات بتدشين الترتيبات الإقليمية للمنطقة .

^(١) معلوم ، حسين : التسوية في زمن العولمة ، التذاعيات المستقبلية . - لخيار "العرب" الاستراتيجي ، ص ١١ - ١٤٧ ، وبخاصة ص ١٢٠ في (العولمة والتحويلات المجتمعية في الوطن العربي) مركز البحوث العربية ، الجمعية العربية لتعلم الاجتماع، تحرير د. عبدالباسط عبدالمعطي ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩٩.

لبناء هذا النظام الشرق أوسطى نتابعت عدة خطوات لتشكيل دوائر تتسع لاستكمالها. وتبدأ الخطوة الأولى ببناء المثلث (الأردني - الفلسطيني - الإسرائيلي) ، حيث العمل لدعم هذا المثلث على قدم وساق، وهي الخطوة التي أكدت عليها معظم المشروعات الغربية والأمريكية تحديداً للتعاون الإقليمي في الشرق الأوسط ، بحيث يشكل هذا المثلث نواة لثلاث دوائر أخرى يكتمل بها النظام الشرق الأوسطي . الدائرة الأولى وتضم عواصم المثلث الثلاث (القدس ، غزة ، عمان) وهي الدائرة التي نؤكد أن تقوم بعملها ، بعد أن تم بناء الأوتار الأساسية داخلها (الاتفاق الفلسطيني - الإسرائيلي ، والمعاهدة الأردنية الإسرائيلية) .

وعلى ما يبدو فإن القدس سواء شكلت عاصمة موحدة أو انقسمت فستظل نقطة ارتكاز تصل من عمان وغزة ، إذ لن يستطيعا التعاون دون المرور بالقدس . وبغض النظر عن الشكل التنظيمي الذي سوف ترتب على أساسه تفاعلات هذه الدائرة (فهي عبارة عن سوق صغيرة) فإن الهموم الأمنية والاقتصادية والاجتماعية هي التي لها الأولوية ^(١) بينما تأتي الدائرة الثانية لتشمل (القدس وغزة ودمشق) وهي الدائرة التي تكمن بها الطاقة الدافعة لعملية السلام . ولن يتحقق شيء ذو قيمة إذا لم تبدأ هذه الدائرة في التحرك . . والملاحظ أن بيروت وإن كانت تغيب عن هاتين الدائرتين إلا أنها تظل دائماً نقطة التقائهما المتميزة، خاصة إذا استعادت حيويتها السابقة ، إذ يمتاز لبنان عن الآخرين بالتشريعات المستقرة والتنوع الواضح . وإذا كانت بيروت - منذ أمد بعيد - قد شكلت نقطة عبور للمسلح والحروب ، فإن المطلوب منها أن تستعيد حيويتها لدور يراود لها أن تلعبه ، وهو أن تكون نقطة (عبور) السلام . وسوف تشكل هاتان الدائرتان منظومة اقتصادية وسياسية وأمنية قائمة بذاتها وهي تشمل فلسطين والأردن وإسرائيل وسوريا ولبنان ، وهي من الناحية الجغرافية سوف تشغل منطقة سورية الكبرى أو الهلال الخصيب ، كما أنها سوف تمثل من الناحية الاقتصادية منطقة (السوق الشرق أوسطية) والتي يتحدث الكثيرون عنها وعن تداعياتها ، إضافة إلى أنها من الناحية العملية سوف تساعد على تحقيق الهدف الصهيوني المتمثل في (إسرائيل الكبرى) وخاصة في سياق ربط الشام مستقبلاً بعجلة الاقتصاد (الإسرائيلي) وفصل العراق عن الهلال الخصيب اقتصادياً وسياسياً وأمنياً ، وتصفية أي مشروع حدودي بين سوريا والعراق ومصر

^(١) المرجع السابق ، ص ١٣٨.

بالتبعية^(١). وتشمل الدائرة الثالثة بلدان الجزيرة العربية ، أو تحديداً مجتمعات الخليج العربي ، وتزداد الأهمية (الجيو استراتيجية) لهذه الدائرة (دائرة النفط) استناداً إلى ما تشير إليه البحوث والدراسات ، حيث حاجة القوى الاقتصادية الكبرى والتكتلات المرتبطة بها إلى النفط ، خاصة أن هذه الأبحاث قد أشارت أن النفط المنتج من هذه المنطقة يشكل ٤٠% من مصادر الطاقة بجميع أنواعها في العالم ، وأن ٦٥% من المخزون النفطي القابل للاستغلال في العالم يقع في منطقة الخليج مقابل ٢,٦% فقط في الولايات المتحدة الأمريكية ولا نجاووز الحقيقة إذا قلنا بأن هذه المنطقة ستظل لها أهميتها الممتدة إلى ما يقرب من منتصف القرن القادم ، أو إلى أن تصل الثورة العلمية والتكنولوجية الثالثة إلى مصادر طاقة بديلة .^(٢)

وتضم الدائرة الرابعة الشمال العربي لأفريقيا ، وبرغم أن غالبية هذه الدول يتم ربطها بأوروبا من خلال الدائرة المتوسطية ، إلا أن له يمكن اعتبارها مكوناً أساسياً في النظام الشرق أوسطى ، خاصة بعد الخطوة المصرية الأخيرة للانضمام للاتحاد المغربي. وبذلك تصبح مصر مرشحة لأن تكون نقطة التماس بين السوق والنظام الشرق أوسطى والسوق والنظام المتوسطى .^(٣)

وتأتى الدائرة الأخيرة والخامسة لتضم مجتمعات الأطراف اليمن والسودان والعراق كمجتمعات عربية وتركيا وإيران كمجتمعات إسلامية. ومن المرجح أن شكلاً من أشكال التعاون والتبادل سيتحقق بين دول الدوائر الأربعة السابقة وبين كل من إيران وتركيا التي سوف تكون صاحبة دور " ارتكازى " في هذا النظام الإقليمي . وعلى ما يبدو فإن النظام المقترح يستند إلى إرساء شبكة صيقة ومعقدة من علاقات (الاعتماد المتبادل) بين دول المنطقة أو الإقليم كافة ، وخصوصاً في مجال البنية الأساسية التي جرى التخطيط والإعداد لها على أساس إقليمي ، سواء فيما يتعلق بربط شبكات المواصلات والاتصالات والكهرباء ، أو بالتنمية إلى مصادر المياه والطاقة ، وكذلك الخدمات السياحية والمصرفية والإعلامية .^(٤) وبذلك يصبح النظام الشرق أوسطى موقفاً،

(١) نفس المرجع ، ص ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ص ١٤٦ - ١٤٢ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٦ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٤٦ .

أو مساحة لتفاعل بين مجموعة من الفاعلين ، لكل منهم دوره وأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها من خلال أدائه لدوره.

وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية هي الفاعل الرئيسي في هذا التفاعل . ويتحدد دور الولايات المتحدة من خلال كونها الدولة العظمى التي تعمل حالياً لفرض العولمة أو الترويج لها بمستوياتها كافة ، وهي تستخدم في سبيل تحقيق ذلك مسطوتها السياسية وقدراتها العسكرية والتكنولوجيا للاتصالات والمعلومات ، وقد وصل الأمر ببعض إلى اعتبار العولمة قدراً لا راد له ونهاية التاريخ ، بعد هزيمة النموذج المقابل الذي حاول الاتحاد السوفيتي تقديمه طيلة نصف قرن ، ومن هنا يفضل كثيراً من النقاد تسمية العولمة (بالأمركة) كتعبير أكثر دقة عن واقع الحال .^(١)

ويعتبر هذا الدور الأمريكي استمراراً لتوجهات الرأسمالية الصناعية التي اتجهت إلى الاستعمار ، أي إلى استخدام القوة لاحتلال بلدان الجنوب ، والسيطرة على مواردها ، وفي مرحلة تالية احتاجت الإمبريالية إلى أدوات اقتصادية متطورة لإخضاع المجتمعات التي انسحب منها الاستعمار ، وتشكلت هذه الأدوات الاقتصادية ، حينئذ ، من برامج التعاون والقروض والاستثمار وربط اقتصاديات هذه المجتمعات باقتصاد المراكز الرأسمالية . ومن خلال أيديولوجيا العولمة تتجه القوى الرأسمالية الآن إلى تبني منظومة جديدة من التشريعات الاقتصادية التي تفتح الحدود ، وحرية التجارة وإهداء نظم الحماية الجمركية وقد تمثلت أهم وسائل العولمة في استثمار ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال لتسهيل عملية الإخضاع الاقتصادي بمواكبة ثقافية تحقق عملية التطبيع الإجتماعي والنفسي المطلوبة لإثقاد فعل العولمة في المجتمعات التي يقع عليها ذلك الفعل.^(٢)

وارتباطاً بذلك تسعى الولايات المتحدة إلى تأمين الموارد من المواد الأولية وبخاصة النفط الذي يصل قيمة احتياطها منه على ما أشرنا بنحو ٢٠,٦% من حجم الاحتياطي العالمي ومن ثم تصبح السيطرة على الشرق الأوسط بموارده النفطية الهائلة تأكيداً لقدرة الولايات المتحدة على الاحتفاظ بزعامتها في العالم الغربي ، الأمر الذي يفرض عليها ضرورة وضع يدها على هذه المادة الحيوية التي تغذي الصناعات الغربية

(١) عتريس ، طلال "تعقيب" ص ٤٤ - ٤٥ في (العرب والعولمة) ، مرجع سابق .

(٢) بلقيز ، عبدالإله : "تعقيب" ص ٦٩ ٧٠ ، بخاصة ص ٧٠ .

والرأسمالية ، وهي النفط من المتابع إلى الممرات ، وهذا يفترض أيضاً السيطرة على التطورات السياسية والاجتماعية في مواطن النفط بالإضافة إلى اعتبار الولايات المتحدة أن سيطرتها على هذه المنطقة ضرورية لخدمة مصالحها الاستراتيجية الخاصة ، فإنها تعتبر هذه السيطرة وسيلة ضرورية لتكريس هيمنتها على توجهات (النظام الدولي قيد التشكيل) من خلال تحسين قدراتها التنافسية إزاء القوى الكبرى الأخرى على المسرح العالمي .^(١)

إلى جانب ذلك يضم إقليم الشرق الأوسط حجماً مكثفاً هائلاً يقترب من نص المليار نسمة وأغلب مجتمعات هذا الإقليم ، قاعدتها الصناعية محدودة كماً وكيف ، الأمر الذي يفتح أمام الولايات المتحدة سوقاً هائلاً حيث تلعب الآليات الرأسمالية - الإعلامية ، والإعلانية بالأساس ، دورها في تأسيس الحاجة إلى الاستهلاك لدى السكان من خلال حملات الإعلام والإعلان المكثف ، ثم تتولى المؤسسات الصناعية إشباع حاجات الاستهلاك ، وفي هذا الإطار تلعب الشركات المتعددة للجنسية دوراً أساسياً انطلاقاً من قواعدها في الدول الصناعية برغم أن هذه الشركات تعتبر توسعاً للشركات الكبيرة في الوطن الأم ، وامتداداً لنشاطها إلى مناطق تتعدى الحدود القومية لمراكزها ، إلا أن هذا التوسع أدخل تغيرات جذرية على هيكل الأسواق والقواعد الحاكمة للنشاط فيها ففسى السابق بعد أن كانت هناك حدود للسوق تتعين ضمن حدود الدولة القومية^(٢) فإننا نجده قد اتسع الآن ليضم مجموعة من الأسواق المتشابكة ، والتي تتجاوز حدود الدولة القومية إلى سوق واسعة وشاملة ومتشابكة تنتمي إلى إقليمى بكامله ، يضم بدخله عدة مجتمعات .

وتعد إسرائيل هي الفاعل الثاني في الساحة الشرق أوسطية وهي تتجاسس أو تتدخل في مصالح الولايات المتحدة ولمصالح مشتركة تتلقح إسرائيل من الولايات المتحدة دعماً غير مشروط سواء ذلك المتعلق بتدعيم القدرة العسكرية الإسرائيلية باسم تشجيع إسرائيل على السلام . وحل عقدتها الأمنية أو ما يتعلق بالدعم السياسي الذي اتخذ شكلاً جديداً بصرف النظر عن الالتزام بمبدأ مدريد الأرض مقابل السلام الذي انطلقت

^(١) حسين معلوم : مرجع سابق ، ص ١٢٤ .

^(٢) الأمام محمد محمود : الظاهرة الاستعمارية الجديد ومفازها بالنسبة للوطن العربي ص ٧٣ - ١٠٩ ، بخاصة ص ٨٢ في (العولمة والتحويلات المجتمعية في الوطن العربي ، مرجع سابق .

على أساسه المفاوضات^(١). وإذا كانت إسرائيل قد بقيت طويلاً محكومة بأولوية الحرب العسكرية فإنها لم تتأخر عن مواكبة الإستراتيجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط ، في اكتشاف النعم والمنافع التي يمكن أن تحققها لها (الشراكة الاقتصادية) وهي إن كانت قد راهنت خلال العقود الأربعة الأخيرة على تحدى المنطقة العربية ،وما كان يجلبه لها هذا التحدى في (سياق الحرب الباردة) من دعم خارجي فإنها تطمح الآن من خلال توقيعها على اتفاقيات (التسوية) إلى جعل هذه المنطقة عن طريق استغلال ما بها من إمكانيات واسعة مرتكزاً وقاعدة لإحداث طفرة اقتصادية وتكنولوجية داخلية ، تسمح لها بالدخول المنتج والاندماج العالي في السوق الرأسمالية ، فانفتاح السوق العربية الواسعة عليها هو اليوم الفرصة الملائمة تماماً لتجاوز وصفيّة (اقتصاد القلعة المحاصرة) المعتمد على التمويل الأجنبي والمساعدات الخارجية^(٢) إلى تأسيس إسرائيل الكبرى اقتصادياً حيث تصبح هي الفاعل المنتج للسلع التي تملأ الأسواق العربية ، ويستهلكها السكان العرب.

يؤكد ذلك الإشارة إلى خطة السلم التي اقترحها شيمون بيريز مهندس لمروحة * إسرائيل الكبرى اقتصادياً * وفيها ظهر بوضوح أن ما يريده الإسرائيليون في ظل الترتيبات الجديدة ، ليست (الأرض والسلام) ولكن مقايضة الجزء بالكل والخضوع لمعادلة جديدة لتقسيم العمل في المنطقة سوف تكون عناصرها - كما طرحها * بيريز * كما يلي (النفط السعودي + الأيدي العاملة المصرية + المياه التركية + العقول الإسرائيلية) بل إن ما يزيد الأمر وضوحاً هو ما جاء في كتاب * بيريز * المعنون * بالشرق الأوسط * الجديد : ١٩٩٣ حيث يذكر ما يلي : يسود السلام بين إسرائيل وجيرانها إلى خلق مناخ لإعادة تنظيم أساسية لمؤسسات الشرق الأوسط ، وإلى نوع جديد من التعاون * ويعتبر التنظيم الإقليمي مفتاح السلام والأمن ، وسوف يشجع الديمقراطية والتنمية الاقتصادية والتطور القومي ورفاهية الأفراد . إن إقامة السلام تتطلب ثورة في المفاهيم ، وأن هدف إسرائيل النهائي . . هو خلق مجتمع إقليمي من الدول بسوق مشتركة وهيئات مركزية منتجة ومصممة على غرار الجماعة الأوروبية^(٣) . وتعتبر تركيا هي الفاعل الثالث في النظام الشرق أوسطي وبرغم أن تركيا لها ميراثها التاريخي الطويل مع

^(١) حسين معلوم ، مرجع سابق ، ص ١٢٣.

^(٢) للمرجع السابق ، ص ١٢٥.

^(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٦.

العالم العربي ، باعتبار أنها كانت جزءاً من الخلافة الإسلامية التي تغيرت عواصمها من المدينة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة إلى إسطنبول ، حتى أصبحت الخلافة العثمانية آخر الخلافت الإسلامية ، ورغم اشتراكها في الدين الإسلامي مع العالم العربي وبقية العالم الإسلامي ، إلا أن التوجه العلماني الذي أسسه الزعيم أتاتورك وألزم به الجمهورية التركية التي أسسها في ١٩٢٣ ، وجعل تركيا تتسلخ عن عالمها العربي الإسلامي ، لتتولى وجهها شطر الغرب ^(١) الأمر الذي بدأت تركيا تستوعب معه كثيراً من قيم وثقافة المنظومة الثقافية الغربية ، وبسبب هذه القيم الغربية للرأسمالية تأسست مساحة واسعة من التباعد بين تركيا والعالم الثالث ومن بين مجتمعاته المجموعة العربية .

وإلى جانب بعض الترسيمات التاريخية ، فقد بدأت تركيا تدخل في حالة من عدم الانسجام مع العالم العربي ، بسبب المسألة الكردية ، حيث الاتهام الموجه إلى بعض الدول العربية وإيران بمساعدة الأكراد . وتشكل قضية المياه المشكلة الثانية التي تتفاعل حولها تركيا مع العالم العربي وبخاصة سوريا والعراق ^(٢) الأمر الذي يجعل من تركيا كوحدة في بناء النظام الشرق أوسطي تنف إلى جانب الولايات المتحدة وإسرائيل في مواجهة المجموعة العربية وإيران ، فلها مشكلاتها مع إيران بسبب المسألة الكردية ^(٣) ويبدو أن هذا الارتباط بدأت بدايته مع التعاون العسكري الأمريكي التركي في التعامل مع المسألة العراقية ، والتعاون العسكري التركي الإسرائيلي من خلال التعاون في صناعة السلاح أو في التدريبات العسكرية المشتركة .

وبالإضافة إلى قيم الثقافة الغربية ذات الطبيعة العلمانية في تركيا ، فإننا نجد أن التنمية التركية قطعت شوطاً على طريق التصنيع ، غير أنه برغم القاعدة الصناعية المكتملة نسبياً في تركيا ، فإننا لا نستطيع أن نضعها في مصاف الصناعة الغربية بل يمكن وضع النمو الصناعي كما وكيف ضمن الحالة الصناعية ومعدلات النمو في العالم الثالث ، غير أنها مقارنة بالحالة الصناعية في العالم العربي - باستثناء مصر - فإننا نجد أن الصناعة التركية يمكن أن يكون لها نصيب إلى جانب الصناعة الأمريكية الإسرائيلية

^(١) ليلى - علي : العالم الثالث ، مشكلات وقضايا ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٥ ، ص ٢٤٢ .

^(٢) اليسرى ، حمد : قضية المياه في الشرق الأوسط ، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية ، الرياض ، ١٩٩٩ ، ص ٢٢ .

^(٣) ديرة عوني : مرجع سابق ، ٦٥ .

في السوق الشرق أوسطية ، سواء كانت السلع المصنعة بفعل مؤسسات تركية أو كانت من إنتاج الشركات المتعددة الجنسية ، وهو ما يعني أن مشاركة تركيا في النظام الشرق أوسطى لصالحها أكثر منه لصالح العالم العربي.

وتعتبر إيران أحد الفاعلين الهامين في موقف التفاعل الشرق أوسطى. وتقع إيران على الشاطئ المقابل لمجتمعات الخليج ، ولها بعض المشكلات الحدودية مع بعضها، مثل مشكلة الجزر مع دولة الإمارات العربية ، ومشكلة شط العرب مع العراق⁽¹⁾. بالإضافة إلى ذلك ، فمذهبها شيعي على خلاف المذهب السني الذي يسود المجتمعات العربية ، غير أنها الأقرب إلى العالم العربي لعدة اعتبارات ، منها حالة العداء مع إسرائيل بسبب المسألة الفلسطينية ، إضافة إلى عدم انسجام سياساتها مع التوجهات الأمريكية أو التركية ، ثم هي قبل كل شيء ما زالت تؤكد انتماءها للجنوب في مواجهة الشمال ، وتسعى للحفاظ على الهوية في مواجهة العولمة .

وبرغم فترة التشدد الديني في أعقاب ثورة الخميني ، فإننا نجد أن التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي في إيران يتجه بحذر نحو التعامل مع القوى العالمية الرأسمالية ، الأمر الذي يفرض على إيران التخفيف من بعض تشدداتها تجاه الغرب ، وتخفيف درجة التشدد كما ظهر من الخلاف والجدل الذي دار بين آية الله على خامنئي وبين آية الله منتظري حول مراجعة مسألة ولاية الفقيه ، وحدود هذه الولاية ، معبراً بذلك عن حالة من التطور قطعاً الثورة الإيرانية ، فأصبحت أكثر ليبرالية وافتحاً ، وهي التطورات التي عبر عن بعض جوانبها انفتاح السياسة الإيرانية في عهد الرئيس خاتمي على الغرب ، وهي بداية مرحلة من التعاون الاقتصادي من المحتمل أن تكون مدخلاً لنوع من التعايش الثقافي .

ويسعى الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية إلى امتيعاب إيران في النظام الشرق أوسطى لعدة أهداف ، أولها التخفيف من توجهاتها المعادية للغرب من خلال التلويح بأوراق اقتصادية من شأنها التخفيف من الاندفاع الثوري للنظام الإيراني ومن خلال الالتقاء مع بعض النظم المحافظة على الصعيد العربي ، ومن خلال الارتباط بشبكة من العلاقات الاقتصادية مع دول النظام الشرق أوسطى ، بما في ذلك إسرائيل . قد

⁽¹⁾ Keddie, Nikki, the Roots of Ulamas Power in Modern Iran, (Islamic Studies XxiX, 1969). 31- 53, est 38.

لا يتحقق ذلك الآن ، ولكنه من المحتمل أن يحدث مع استمرار استقرار النظام وتعمق تفاعلاته.

ويعتبر العالم العربي في مجمله الفاعل الأخير وأكاد أقول الخامس من هذا النظم الشرق أوسطى إذا تحقق ، إذا لم يتم بتعديلات أساسية في موقفه بما يجعله يحقق استفادة إيجابية من مشاركته بدلاً من كونه الخامس الوحيد في هذا التفاعل . ذلك أن هناك بعض الظروف التي تجعل مشاركة غالبية مجتمعات النظام العربي من موقع التابع وليس المستقبل ، من موقع الخاضع للتفاعل وليس المشارك في صياغته. ومن هذه الظروف أنه نظراً للموقع المتوسط للعالم العربي واتساع مساحته فإننا نجد قد استوعب ذات مختلفة من حيث أصولها العرقية أو ديانتها أو حتى لغتها الأمر الذي يجعل مجتمعاته هدفاً للتفتيت إذا توفرت ظروف سلبية داخلية تأكدت بدعم خارجي، وإن لم يكن التفتيت فالعداوات والانقسامات بين الفئات التي تشكل أبنية هذه المجتمعات ، مؤثرات لذلك ما يحدث في العراق والسودان والصومال ولبنان والجزائر ، بل بعض مجتمعات الخليج^(١) ويتشمل الطرف الثاني غير الموالي للوضع العربي في امتلاك المجتمع العربي للطائفة النفطية إضافة إلى موقعه على ممرات عالمية حاكمية وعدم استخدام العائدات النفطية في تحقيق تنمية عربية شاملة وفعالة ، حتى أن القطرية أصبحت أكثر عمقاً من البعد القومي، وهو الأمر الذي جعل هذه المنطقة هدفاً تسعى مختلف القوى العالمية العظمى والمتوسطة للسيطرة عليها ، ولقد ساعد على ذلك قيام بعض مجتمعات النظام العربي بتحالفات قطرية ضيقة مع قوى العالم الخارجي على حساب التوجه القومي ، وفي المقابل غنخت القوى الخارجية هذه التوجهات ، ومن ثم غاب التكامل العربي والتنسيق العربي ، وحينما وقعت حرب الخليج الثانية أصبحت الفرصة مواتية للقضاء على أي كتل أو تكامل عربي^(٢) ويتصل الطرف الثالث باتجاه المجتمعات العربية للارتباط في تنميتها بالقوى الخارجية ، فقد اشتركت مجتمعات الخليج النفطية مع دول الغرب وبخاصة الولايات المتحدة في علاقات اقتصادية غير متكافئة ، بينما أدت إعادة بناء اقتصاديات المغرب العربي حول السوق الأوروبية نتيجة الاتفاقيات التفضيلية التي عقدت في نهاية السبعينات

^(١) محمد محمود الإمام : مرجع سابق ، ص ١٠٤ .

^(٢) البيئة العامة للاستعلامات ، وزارة الإعلام : سلسلة دراسات متخصصة ، (٣) مفهوم ظاهرة العولمة في العالم المعاصر ، بدون تاريخ ، القاهرة ، ص ٨١ .

إلى تزايد اعتماد الدول المغربية على أنواع أخرى من الصادرات ، وبدلاً من حوار الدول العربية مع أوروبا على أساس قومي ، أدى تباين المصالح القطرية والإقليمية إلى تدنى الحوار إلى المستويين القطري والإقليمي .^(١)

وفي محاولة لتنويع مصادر الدخل وفق منطق متسرع وغير مدروس، قامت بعض المجتمعات الخليجية بتأسيس بعض المناطق الصناعية أو الحرة التي تأسست فيها صناعات للتصدير ، يقتصر دور الدولة المضيفة لها على جباية بعض الإيرادات ، مع السماح لرأس المال الأجنبي بالعمل وفق منظومة قيمة تختلف عن القيم العربية وعن احتياجات التنمية العربية ، وكان من الطبيعي في ظل هذه السياسات أن يسمح للمستثمر الأجنبي أن يأتي بتكنولوجيا عربية تقل في إطارها الحاجة إلى تخصصات اللقاءات العربية وتتضاءل إلى عمالة عربية وافدة ، يستعاض عنها بعمالة أجنبية مستوردة من الدول المتقدمة أثبت معها بقيم ثقافية عربية وغربية على البيئة الثقافية العربية ، الأمر الذي أسس توترات بين العمالة العربية والوطنية أو القومية وبين الدول العربية المضيفة لهذه الصناعات .^(٢)

وحتى رؤوس الأموال التي عند بعض الدول نتيجة للدخول الربعية المتنوعة لم تجد طريقها إلى الاستثمار الداخلي من أجل بناء التنمية على المستوى القطري أو العربي، بل ظهر تفضيل الاتجاه إلى الاستثمار الخارجي^(٣) وهو الأمر الذي أفرغ بصورة دائمة الطاقة التمويلية لمشروعات التنمية ، وجعل هذه الأموال تحت رحمة السيطرة الأجنبية من ناحية ، كما وضعها أيضاً تحت رحمة تقلبات أسعار العملات العالمية ، التي كانت في أحيان كثيرة غير موثوقة .

ذلك يعني أن التفاعل العربي في موقف التفاعل الشرق أوسطي المستهدف ، سوف يكون تأثيره ضعيفاً على تشكيل التفاعل الحادث في النظام المقترح ، الأمر الذي يفرض البحث عن صيغ أخرى تدعم دوره وفاعليته ، من خلال إجراءات وسياسات تعيد التماسك والتكامل إلى النظام العربي ، وتجعله الأكثر قدرة على السيطرة على موارده وإمكاناته ، وأكثر إدراكاً لتوجيه هذه الموارد بما يدعم الدور العربي ويؤكد فاعليته

^(١) نفس المرجع ، ص ١٠٥ .

^(٢) نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

^(٣) نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

ويبلور هويته .

بيد أن لنا مجموعة من الملاحظات قبل أن تنتهي هذه الفقرة حول طبيعة النظام الشرق أوسطى قبل الانتقال إلى الفقرة التالية التي نحاول فيها استعراض تأثير المجتمع على العولمة والدولة في أقطار النظام الشرق أوسطى . من هذه الملاحظات ما يلي :

١- أننا إذا نظرنا إلى مجتمعات النظام الشرق أوسطى فسوف نجد أن مجتمعاته من نمط مجتمعات الموزايكو ، وهي مجتمعات تتكون في أغلبها من عدد من الأقليات ، الأمر الذي يعرض بعض هذه التجمعات إلى انفراط عقدها إذا غابت أو ضعفت البنية الثقافية والاجتماعية التي تضم هذه الجماعات مع بعضها البعض وهو ما يعنى أنه إذا خضعت هذه المجتمعات إلى التفكيك والعولمة ، فإن بعضها مائل إلى التآكل ، وإذا كان ذلك ينطبق على بعض المجتمعات العربية فإنه ينطبق بالتأكيد على تركيا وإيران ويصبح الفائز الوحيد من ذلك هي إسرائيل ، التي سوف تتحول مسن قوة بشرية صغيرة إلى قوة موازية لكثير من القوى الأخرى ، بناء على قوتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

٢- إن هذه التحولات التي تسير باتجاه العولمة هي تحولات مواتية للولايات المتحدة وإسرائيل ، وعلى حساب غالبية الأطراف الأخرى في النظام الشرق أوسطى . إذ تتبع هذه التحولات سيطرة الولايات المتحدة، بشراكة إسرائيل على موارد النظام ، وبخاصة النفط والمياه ، إضافة إلى الاستفادة من أسواقه لتصريف السلع المادية والمعنوية المنتجة ، وترتيباً على ذلك سوف تتميز علاقات مجتمع النظام بهاتين الدولتين بعد التكافؤ . وإذا كانت هذه التطورات تشكل تطورات إيجابية لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل فإنها تشكل قيمياً سلبية بالنسبة للأطراف الأخرى.

٣- إن من شأن هذه التطورات - إذا لم تشرع المجتمعات العربية باتخاذ الإجراءات والخطوات التي تعيد التماسك والقوة إلى مواقف - قد تؤثر على المراحل الباقية من عملية تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي لأنها سوف تشكل حينئذ تفاعلات بين عناصر ضعيفة وأخرى قوية في موقف التفاعل . ومن شأن ذلك أن يحسم التسوية لصالح العناصر القوية، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه التطورات قد تؤدي إلى نمو مظاهر الرقوض الاجتماعي في مجتمعات النظام الشرق أوسطى ، ولا نستثنى تركيا أو إيران من ذلك ، وقد يتخذ الرقوض ، لشكالات عديدة ، بدءاً من الرقوض الأصولي ، وحتى الرقوض الذي يتخذ شكل الانحراف الاجتماعي أو الثقافي أو الأخلاقي.

ثالثاً : مستقبل الثقافة فى ظل العولمة :

يعتبر نمق الثقافة والقيم أكثر الأنساق المحورية فى بناء المجتمع وحياة البشر . وتتشكل ثقافة أى مجتمع فى مصدرين : الأول للتراث الثقافى المتطور تاريخياً ، والذى ينتقل من جيل إلى آخر فى نوع من التراكم التاريخى المتنامى ، الذى يعبر عن خبرة المجتمع وثراء ماضيه الحضارى ، بينما يشكل التفاعل المعاصر الحادث فى المجتمع المصدر الثانى حيث تتم موازنة التراث مع الأحداث الواقعية واليومية المتجددة وهو ما يجعل التفاعل يفرز قيماً جديدة تضاف إلى الميراث الثقافى ، وتلعب دورها فى توجيه سلوكيات البشر فى مختلف مجالات المجتمع ، وكذلك فى إضفاء الطابع العصرى على التراث .

بالإضافة إلى ذلك فالثقافة علاقتها بالإنسان الفرد الذى يستوعب قيم الثقافة بداخله من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية والثقافية المختلفة والمتنامية وهو ما يعنى أن الإنسان فى سلوكه يكون موجهاً بقيم استوعبها بداخله ، وفى ذات الوقت هى موجودة خارجه فى عقل الجماعة تراقبه ، وبذلك فإذا انهارت ثقافة المجتمع لفتقد الإنسان القدرة على توجيه سلوكه وسقط أسير الانحراف والخروج على النظام .^(١)

بذلك تتشكل ثقافة المجتمع من مجموعة القيم التى توجه سلوكيات الفرد فى تفاعله مع الآخرين من البشر . وتنقسم القيم إلى ثلاثة أنماط من القيم : " القيم الوجدانية " وهى القيم المرتبطة بالموضوعات ذات الأهمية للإنسان كالقيم المرتبطة بـالله والوطن والأم ، ثم " القيم التفضيلية " وهى التى تشكل معايير يفاضل على أساسها الإنسان للاختيار بين الموضوعات ، ثم القيم الإدراكية ، وهى التى تتشكل من المعرفة التى يحصل عليها الإنسان من خلال التعليم والإطلاع والتفاعل العام وبذلك يعنى أن اختراق ثقافة المجتمع أو إشاعة الفوضى فى بنية الثقافة والقيم ، أو إحلال ثقافة وقيم جديدة محلها من شأنه أن يشيع الفوضى والاضطراب فى بناء المجتمع ، وهو ما قد يحدث للمجتمعات الشرق أوسطية كما منوضح ذلك .

^(١) ليلة ، على : البناية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، المقاميم والقضايا، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٣١١ .

بدائية نؤكد أنه ليس صحيحاً أن العولمة الثقافية هي الانتقال من حقبة - أو من ظاهراً - الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عليا جديدة هي الثقافة العالمية أو الكونية على نحو ما يدعى المروجون لفكرة العولمة ، بل إنها تعد بمثابة اغتصاب وعدوان رمزي على سائر الثقافات ، وهو فعل رديف للاختراق الذي قد يجري بالعنف المسلح فيهدر سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تفرض عليها العولمة . ذلك يعني أن العولمة هي نوع من السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات بواسطة مكتسبات العلوم والتكنولوجيا في ميدان الاتصال ^(١) والقول بسيطرة الثقافة الغربية لا يعكس واقع الحال لأنه في الحقيقة سيطرة الثقافة الأمريكية التي أصبحت تنتشر على امتداد العالم ، حتى أن الثقافات الأوروبية باتت تترك خطورتها ، وتنادي بما " استثناء الثقافي " ^(٢)

وإذا كانت اللغة تشكل البنية الرمزية التي بدونها يستحيل التفاعل الاجتماعي فإننا نجد أن اللغة هدف لهجوم ثقافات العولمة . واللغة هي جملة الرموز التي يتفاعل بها أبناء الأمة ، وإذا كانت تركيا قد أسست منذ الثورة الكمالية بناء لغويًا مشوها حيث المضمون العربي في أشكال أو صناديق لائمية ، فإن هذا التغير جعل منها مثالا حزينًا للتطور على ما يؤكد Gansen جانيس ^(٣) فإن ما يحدث للغة العربية سوف يكرر المأساة . واللغة العربية هي اللغة المشتركة بين جميع أبناء الأمة العربية ، لغة التراث المشترك ، ولغة العلم والثقافة العالمية ، وبالتالي لغة التحديث والحداثة. ولذلك كانت اللغة العربية هي في أن واحد ، الرابطة المتينة التي توجه الأمة على مستوياتها المتباينة ^(٤) . ولأنها تتصل بالتراث ، ولكونها لغة القرآن كذلك فقد تميزت عن لغات عديدة في العالم بامتداد نشاطها إلى ما يقارب السبعة عشر قرناً محتفظة بحيويتها ونشاطها . وقد أشار أحد اللغويين المعاصرين إلى أنها ظلت محتفظة بحيويتها واحتفاظها بمنظومتها الصوتية والنحوية الصرفية طوال هذه القرون . وهذا لم يحدث للغة أخرى كما يشهد بذلك علم اللسانيات . إن الأربعة قرون كانت فيما مضى هي الحد الأقصى الذي يبدأ بعده التغير التدريجي

^(١) بلقز ، وعبدالله : العولمة والهوية الثقافية : عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة ص ٣٠٩ - ٣٢٥
بخاصة ص ٣١٨ في العرب والعولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير أسامة الخولي ، بيروت، يونيو ١٩٩٨ .

^(٢) المرجع السابق ، ص ٣١٩ .

^(٣) Jansen, G.H, militant Islam, Harper/Row Publishers, New York. P. 82.

^(٤) محمد عابد الجابري ، مرجع سابق ، ص ٣٠٤ .

لمكونات المنظومة اللغوية ، بينما استطاعت اللغة العربية أن تواكب التطور التكنولوجي في الدلالات ، ويؤيد ذلك ما ذكره الكاتب الأسباني الحاصل على جائزة نوبل كاميليو جوزيسبلا من أن ثورة الاتصالات التي اختزلت الزمان ستؤدي إلى انسحاب أغلب اللغات قبلي نهاية القرن الواحد والعشرين ما عدا أربع لغات هي الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والعربية ، وإدراكه أن اللغة العربية ضمن هذه المجموعة أثارت حفيظة الغرب عامة .^(١) والهجوم على اللغة الوطنية يتم بأساليب عديدة أولها أن اللغة الإنجليزية هي لغة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات ، فمثلاً يلاحظ أن اللغة المستخدمة والمائدة في الإنترنت هي اللغة الإنجليزية إضافة إلى أن أغلب المعلومات الواردة على الشبكة واردة من الولايات المتحدة الأمريكية مما يجعل لها وضع الأفضلية في مجال مجتمع المعلومات العالمي ، وذلك الوضع له سلباته المتعددة أبرزها حرمان مستخدمي الشبكة من التعرف على المعلومات غير الأمريكية الأصل .^(٢) إضافة إلى التأثير على اللغة المحلية ، خاصة إذا ساعد على ذلك التحاق أجيال الشباب والصغار بالتعليم الخاص الذي يستخدم اللغة الأجنبية ، الأمر الذي يخلق حالة من الاعتماد على استخدام اللغة الأجنبية لتحل محل اللغة الوطنية أو المحلية ، التي تصبح غريبة وغير عصرية بالنسبة لأجيال عديدة في مجتمعها. يضاف إلى ذلك أن العولمة تتيح الفرصة للاستثمار الأجنبي فلينا نجد أن غالبية الشركات الأجنبية ، وحتى الفروع المحلية تشتغل بالتحدث بالإنجليزية أو الفرنسية كلغة لأداء الأعمال والمهام ، الأمر الذي يؤدي من ناحية إلى اتجاه من يرغب في العمل بالقطاع الخاص ، وبخاصة القطاع الخاص الأجنبي - وهو في الغالب ذو رواتب عالية - إلى ضرورة إتقان التعامل باللغة الأجنبية ولو على حساب لغته الوطنية، ومن ناحية ثانية فإن وجود الشركات الأجنبية بأسمائها الأجنبية يطرح مفردات غريبة على اللغة الوطنية في لغة التعامل اليومي ، إضافة إلى محاولة تقليدها من قبل الشركات الوطنية ، من حيث استخدام مفردات اللغة الأجنبية في أسمائها مثل " أمانكو " و " ميدكو " وغير ذلك من الأسماء التي تتداخل فيها ألفاظ محلية وأجنبية لتصنع لغة جديدة مما يؤدي على المدى الطويل إلى تشويه اللغة الوطنية ، الأمر الذي دفع وزير التموين المصري في عام ١٩٩٩

^(١) للتفريغ ، سهام : تعقيب ص ص ٤١ - ٤٢ بخاصة ص ٤٢ ، في العرب والعولمة ، مرجع سابق.

^(٢) الهيئة العامة للاستعلامات ، وزارة الإعلام : سلسلة دراسات متخصصة ، (٣) مفهوم ظاهرة العولمة في العالم المعاصر ، بدون تاريخ ، القاهرة ، ص ٨١.

إلى إصدار قرار بفرض تسمية الشركات العاملة في مصر ، والعلامات التجارية بأسماء عربية إلى جانب الأسماء الأجنبية وهو القرار الذي لقي معارضة من رجال الأعمال المصريين والغرفة الصناعية.

ويرتبط بذلك الاتجاه المتزايد في العديد من الجامعات المصرية لاستحداث أقسام للتدريس باللغات الأجنبية في مجال العلوم الإنسانية : كالحقوق والاقتصاد والعلوم السياسية فعلاوة على أن هذا التطور من شأنه أن ينشئ في إطار المعهد العلمي نفسه نظاماً هو أشبه ما يكون بالنظام الطبقي ، يقع في أدناه الدارسون باللغة العربية ، ثم يأتي الدارسون باللغة الفرنسية ، وفي القمة يأتي الدارسون باللغة الإنجليزية، فإن هذا التطور يضعف الارتباط باللغة العربية ويضعف الرغبة في دراستها لأن السوق تغلق أبوابها في وجهة الثقافات الوطنية .^(١)

من ناحية ثانية تعتبر ثقافة العولمة نوعاً من الشمولية الجديدة لأنها تنتهي إلى محاولة فرض ثقافة واحدة ونمط وحيد للحياة على الأمم، وتصادر الخيارات الاجتماعية والسياسية البديلة . والعولمة أيضاً وهي تبشر بانتهاء عصر الأيديولوجيات ، تفسح الطريق إلى أيديولوجيا وحيدة مهيمنة لا تعترف إلا بثقافة واحدة بما تتطوى عليه من أنماط إنتاج واستهلاك وحياة واحدة ، وهي ثقافة (نهاية التاريخ) التي تحاول أن تجعل وجهها الشائه بقناع مخادع وزائف من المصطلحات التي فقدت معناها : ديموقراطية وحقوق الإنسان وتعدد سياسي ، وتكنولوجيا تجعل حياة الإنسان أسهل وأكرم^(٢) . ولا يرجع انتشار هذه الثقافة إلى كونها أكثر إنسانية من غيرها ، ولكن لأنها ثقافة " الغالب " وانتشارها . إنما يرجع إلى هذا القانون الذي صاغه مفكرنا العربي عبدالرحمن بن خلدون (المغلوب مولع أبداً) بتقليد الغالب في زيّه وتحلته ومناظر عوائده^(٣) وكذلك لأن العولمة الثقافية جاءت إلى هذه المجتمعات ، سواء كانت مجتمعات العالم الثالث أو مجتمعات الشرق الأوسط وهي في أسوأ ظروفها وفي أقل الحالات استعداداً للاستفادة منها.^(٤)

^(١) مسعد ، نعين : تعقيب ص ص ٣١٩ - ٣٥٠ ، وبخاصة ص ٣٤٩ ، في العرب والعولمة ، مرجع سابق .

^(٢) منصور ، محمد إبراهيم : تعقيب ، ص ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ، بخاصة ص ٣٥٥ في (العرب والعولمة) ، مرجع سابق .

^(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

^(٤) شرف ، إرلى : تعقيب ، ص ص ٣٥٧ - ٣٥٨ ، وبخاصة ص ٣٥٧ ، في (العرب والعولمة) ، مرجع سابق .

ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى ظهور عديد من الظواهر الثقافية ذات الطبيعة المرضية بالأساس ، من شأن ثقافة العولمة الشمولية أن تسبب ردود فعل متشعبة عند الشعوب التي تشعر بضرورة الحفاظ على الذات والتراث والعولمة إلى الأصول . ففى مقابل هجمة العولمة تتبرى الحركات المدافعة عن الهويات والخصوصيات والأقليات للقيام بعملية تحصين عن طريق تنمية قواها الذاتية واختيار التكنولوجيا الملائمة لمواردها وحاجاتها وقد يتخذ الصراع منحى قومياً دينياً أحياناً واقتصادياً فى كل حين . إذن من الواضح أن هذه المجتمعات تتجه تحت ضغط العولمة الزاحفة إلى التمسك أكثر من أى وقت بمعنى خصوصياتها الثقافية، وكياناتها السياسية وتقاليدها وأصولها . سوف تكون العولمة الدافع الأساسى لتحريك الخصوصيات على أنواعها وبذلك نستطيع أن نقول بأن القرن الواحد والعشرين هو قرن الخصوصيات الثقافية . فقد فجرت العولمة الغازية العديد من الأصوليات دفاعاً عن الذات والشخصية الوطنية ، وسرعان ما بررت هذه الاتجاهات استخدامها بحجة أنهم سلاح الضعفاء أمام المستبدين ^(١) إذا حدث ذلك فسيان العولمة إذا نجحت فإنها قد تضرب الثقافة القومية العامة تلك التى تشكل الحزام الرابط للأمة ، وسوف يكون هذا الإضعاف للرابطة القومية العامة لصالح خصوصية أكثر ضيقاً . قد تكون مجتمعاً قوطياً أو جماعة إثنية ، أو حتى وحدة قبلية أو عائلية . لم نقل فى البداية إن المستقبل قد يحيل خريطة الشرق الأوسط إلى تشكيلة موزيكو !

وتشير الظاهرة الثقافية الثانية إلى انتشار ثقافة الصورة حيث تصبح الصورة المفتاح السحري للنظام الثقافى الجديد الذى يشكل وعى للإنسان بالعالم حيث تصبح الصورة هى المادة الثقافية الأساسية التى يجرى تسويقها على أوسع نطاق جماهيرى ، وهى تلعب فى إطار العولمة الثقافية نفس الدور الذى لعبته الكلمة فى التواريخ الثقافية السالفة. الصورة بعد ذاتها أصبحت بمثابة خطاب ناجز مكتمل ، يمتلك سائر مقومات التأثير الفعال فى مستقبله . أو لنقل هى لغة تكفى بذاتها فتستغنى عن الحاجة إلى غيرها ، وذلك أساس شعبيتها وخطورتها فى ذات الوقت . والصورة على عكس الكلمة ، باتت قادرة على تحطيم الحاجز اللغوى - مثلاً تستطيع العولمة الاقتصادية أن تفعل ذلك لكى تصل إلى أى إنسان فى عقر داره .

^(١) بقرعون ، كريم : تعقيب ، ص ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ، فى (العرب والعولمة) ، مرجع سابق.

وتعتبر ثقافة الصورة - برغم سرعة انتشارها وقدراتها على الاختراق - ثقافة هزيلة وفقيرة وسطحية ، هذه الثقافة تشبه سائر سلع الاستهلاك ، إنها نوع من المعلبات الثقافية ، تتضمن مواد مملوكة جاهزة للاستهلاك ، وشركات إعلامية تتنافس لتقديم سلعها إلى المستهلك ، ولا وقت للتفكير والتحصيص والتردد النقدي وسائر ما يمكن أن يحصى الوعى من السقوط فى إغراء الخداع وتنهال ملكة النقد ويتحول الوعى إلى مجال ممسحاح لكل أنواع الاختراق ، تتكفل التكنولوجيا بهندسة ذلك الإغراء وصناعة أسباب الجاذبية له ، وإذا أخذنا فى الحسبان أن هجوم ثقافة الصورة على الوعى يجرى على تواز مع امتداد التراجع المروع لمعدلات القراءة فى العالم ، لا تضح لنا معالم النفق المظلم الذى سوف تدخل إليه الثقافة والوعى فى عصر الصورة والإعلام السمعى البصرى ، حيث الضمور المتزايد لجسم المعرفة والتفقت الشديد لنظام القيم ، وتكريس منظومة جديدة من الثقافة التى تؤكد على القيم النفعية والفردية والأناية، والنزعة المادية الغريزية المجردة من أى محتوى إنسانى . ستغرق ثقافة العولمة على الجسم ما سيفيض عن حاجته من الإشباع ، غير أنها ستقتل الروح، وتذهب بالمحتوى الأخلاقى والإنسانى للبشر .^(١)

الظاهرة المرضية الثالثة التى سوف تعاني منها الثقافة القومية من جراء فعل ثقافة العولمة ، تتمثل فى مجموعة من الاضطرابات فى إطار الواقع الاجتماعى بفعل التفكك الثقافى ، وإذا كانت المجتمعات العربية والشرق أوسطية تعاني عموماً من انقسام ملحوظ بين ثقافة النخبة وثقافة الجماهير حيث توجد فجوة واسعة للغاية بين النخبة المثقفة والجماهير نتيجة تشيوع الأمية ، والتى لا تقل معدلاتها فى العالم العربى عن مستين فى المائة ، الأمر الذى يؤكد القول بوجود حلقة ضيقة من المثقفين تكاد تتخاطب مع نفسها ، وفى نفس الوقت دائرة واسعة من الأميين لا يقرءون ولا يكتبون ، يخضعون فقط لعمليات تزييف الوعى التى تمارسها وسائل الإعلام . وذلك يعنى أن العقل الشعبى يتشكل بعيداً عن تأثير النخبة المثقفة ، والتى عجزت لأسباب تكوينية ، وسياسية وثقافية عن أن تعد جسورها إلى الجماهير .^(٢)

ويزداد الأمر فداحة حينما لا يتوقف الاختراق الذى تمارسه العولمة عند حدود تكريس الاستتباع الحضارى بوجه عام بل يصبح فعلها أكثر خطورة حينما تعمل على

^(١) عبدالإله بلقزيز : المعرفة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٦.

^(٢) الهيئة العامة للاستعلامات ، مرجع سابق ، ص ١٩.

تكريس الثنائية والانتهاز في الهوية الوطنية القومية، ليس الآن فقط ، بل على مدى الأجيال الصاعدة القادمة . ذلك أن الوسائل السمعية البصرية ، والمرئية واللامرئية التي تقيس هذا الاختراق وتكرسه وإنما تملكها وتستفاد منها فئة معينة هي النخبة العصرية وحواشيها، التي تستطيع امتلاكها ، والتعامل مع لغاتها الأجنبية ، بحكم التعليم (العصري) الذي تتلقاه ، أما (عموم الشعب) وعلى رأسه النخبة التقليدية فهو في شبه عزلة ، يجتر بصورة أو بأخرى ثقافة (الجمود على التقليد) ، والنتيجة استمرار وإعادة الإنتاج للثنائية نفسها ، ثنائية التقليدي والعصري ، وثنائية الأصالة والمعاصرة، في الثقافة والفكر والسلوك .^(١)

وإذا كانت الحالة الطبيعية لأي مجتمع أن تكون ثقافته مرتبطة ببنائه ارتباطاً عضوياً ، تكون هذه الثقافة نتاجاً للتفاعل الاجتماعي والحادث في المجتمع ، إضافة إلى ما يقدمه التراكم التاريخي ، فإنه نظراً لأن ثقافة العولمة واردة من الخارج فإنها لا تكون في العادة مرتبطة عضوياً ببناء المجتمع القومي وذلك لكونها ليست تعبيراً عن تمثيل الناس لمحيطهم ، أو تعبيراً عن نظام اجتماعهم المدني ، وبذلك يشكل وعي البشر بثقافة أو بقيم ثقافية لا توجد صلة بينها وبين النظام الاجتماعي الذي ينتمون إليه . وحين يتفاعل البشر وفق منظومات من الأفكار والقيم لم تخرج من رحم التطور الاجتماعي الطبيعي ، لا يبقى ثمة ما يدعو إلى استنصار الأمر ، إذ من رحم هذا الانفكاك والتجافي بين الثقافي والاجتماعي ستتبلور أنواع أخرى من التجافي والخلل فسي البنى الاجتماعية ، مما سيعرضها إلى تشويه مضاعف يضاف التشوه الخلقي الأصلي الذي نشأ ، حدائثة رثة شهدتها هذه البنى دون تقديم مقدمات أو تمهيد بأصول .^(٢)

من الظواهر المرضية التي تعاني منها البيئة الثقافية كذلك انتشار ثقافة الاستهلاك في مجتمعات تعيش نسبة عالية من سكانها دون خط الفقر ، فسبب الارتفاع المفاجئ في دخول بعض الشرائح الاجتماعية بسبب عائدات النفط أو العمل في مجتمعاته، تراوح مع وجود الإعلان والإعلام بسلع تشبع حاجات لدى الأفراد أو تؤسس هذه الحاجات لهم ، يتجه الأفراد إلى السوق الاستهلاكي من خلال السلع أو حتى الصور ، ونظراً لأن الغرب يعد مصدراً لكثير من هذه السلع ، فإن شعوراً يتخلق لدى البشر بتقليد

^(١) عبدالإله بلقزيز : العولمة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٦ .

^(٢) محمد محمود الإمام ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

الثقافة الغربية ، وهو الأمر الذي يؤدي إلى ضعف إدراك أهمية التأكيد على مقومات الثقافة الذاتية . ومن خلال الاستهلال والشره الغريزي الذي ينتاب الإنسان ، يصبح تمجيد ما هو أجنبي والميل إلى استهلاكه باعتباره أحد رواد المكافئة الاجتماعية ^(١) ونتيجة لذلك تضعف أو تتلاشى المشاعر المرتبطة بالهوية الوطنية أو القومية . ويندفع للبشر رغماً عنهم - إلى الارتباط بما هو أجنبي وخارجي على حساب ما هو قومي ومحلي .

ومن الطبيعي أن تؤدي هذه الانهيارات في بنية الثقافة والقيم إلى عديد من الظواهر والسلوكيات التي تظهر كرد فعل لذلك . فقد يلتحق البعض بركب الأصولية الثقافية باعتبارها هروباً من الانهيار بحثاً عن اليقين ، أو بحثاً عن قيم نقية يمكن أن توجه التفاعل الاجتماعي أو شوقاً إلى الصدق في عالم ممتلئ بالإعلان الكاذب ، بينما قد يسلك البعض الآخر طريقة الانحراف الاجتماعي حيث عالم الجريمة الواسع إما بحثاً عما يشبع الحاجة إلى الاستهلاك أو انتقاماً بسبب الحرمان من الإشباع فسي سياق يقدم إغراء باحتماليته ، في حين قد ينحرف البعض الثالث أخلاقياً حيث يمارس البشر سلوكيات عارية من التوجيه الأخلاقي .

رابعاً : العولمة ومستقبل المجتمع في الشرق الأوسط :

يتكون بناء المجتمع عادة من مجموعة من النظم الاجتماعية التي تشكل مجالات متداخلة يعيش في نظامها البشر ويدخلون في علاقات اجتماعية مع بعضهم البعض تعبر عن تفاعلهم مع بعضهم البعض لإشباع حاجاتهم المتبادلة . ويضم بناء المجتمع تكوينات اجتماعية عديدة يدخل فيها النظام العائلي والتعليمي والطبيعي والسياسي والاقتصادي ، وفي العادة تكون هذه النظم الاجتماعية متداخلة بنائياً ووظيفياً ، وكذلك بحيث يؤدي الخلل في العلاقات بين هذه النظم ، أو بعجز بعضها عن الأداء الوظيفي المحدد له ، إلى اعتلال المجتمع وعجزه عن متابعة تطوره بالمعدلات الملائمة . ^(٢)

ونظراً لأن أيديولوجيا العولمة تطلو على ثقافة المجتمع وبنائه ، وتغرس فيها عناصر غريبة عليها أو حتى تتناقض معها ، ولأن عناصر العولمة مفروضة بقوة الإعلام

^(١) على تيلة : البنية الوظيفية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، المفاهيم والقضايا ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢ .

^(٢) السيد بن : مرجع سابق ، ص ٣٣ .

والإعلان، أم يأى من الآليات الأخرى للقوى العظمى ويتحالف من قنلات ومؤسسات داخلية ، فإن النتيجة سوف تتضح من خلال حدوث كثير من الانهيارات والتشوهات الاجتماعية التى سوف نعرض لبعض مظاهرها فيما يلى :

أول هذه المظاهر أن الإعلام ذاته هو الذى يلعب الدور الفاعل فى هذا الانهيار ، حيث تبرز العولمة الانفصالية من خلال البث التلفزيونى عن طريق الأقمار الصناعية ، وبصورة أكثر عمقا من خلال شبكة الإنترنت التى تربط البشر فى أنحاء المعمورة^(١). وهو ما يعنى أن الإعلام قد امتلك الأولوية لإحداث التغييرات المطلوبة على الصعيدين المحلى والعالمى بحيث امتلك الإعلام سلطة وهيمنة ، الأمر الذى دفع زبيجنتور بريجسكى مستشار الرئيس كارتر فى الفترة (١٩٧٧-١٩٨٠) إلى التأكيد على أهمية أن تقدم الولايات المتحدة التى تمتلك ٦٥% من المادة الإعلامية العالمية (نموذجاً كونيا للحدثة) ، يحمل القيم الأمريكية التى يذمونها دوما فيما يتعلق بالحرية وحقوق الإنسان ، ونظراً لامتلاك الولايات المتحدة لتكنولوجيا متقدمة للاتصالات والمعلومات ، فقد انتشبت الحدثة الأمريكية على مستوى العالم بسرعة فائقة فى الأوساط العليا والشعبية .^(٢)

وبالتدور الذى استطاع فيه الإعلام تحقيق التدفق الحر والسريع للمعلومات والمعارف ومن ثم التقريب بين الثقافات ، فإنه قد عمل فى نفس الوقت على تخريب العلاقات بين الأنظمة والمجتمعات وتسويغ استخدام العنف والقوة تحت مختلف الذرائع . لقد أصبحت العولمة مرادفة لمعنى تكثيف الإحساس بالتواصل والاقتراب الذى تحمله عمليا آلة التطور المتسارع لثورة الاتصالات وتبادل المعلومات ، وفى نفس الوقت تتجاوز المستمر للفوارق الفعلية بين الشمال والجنوب ، بين الدول الغنية والفقيرة^(٣) بالإضافة إلى ذلك فقد فرض انتشار شبكات البث الفضائية فى مجتمعات الجنوب وسيطرت عليها فى غالب الأحيان. وقد أدى ذلك إلى تحرر المواطن من قيود الإعلام الرسمى بكافة أشكاله حيث يجد أمامه موجات من التدفق الإعلامى الغربى والعالمى الذى من الممكن أن يسهم فى تنمية معارف ومذكراته وتطويع وعيه برؤية التغييرات

(١) الجميل ، سوار : تعقيب ص ص ٣٨-٤٣ ، بخاصة ص ص ٣٩-٤٠ ، فى (العرب والعولمة) ، مرجع سابق.

(٢) صباح ، بسن على ، تعقيب ص ص ٧١-٧٢ ، بخاصة ص ٧١ ، فى (العرب والعولمة) مرجع سابق.

(٣) عوض ، محمود : تعقيب ص ص ٢٢٦-٢٢٣ وبخاصة ص ٢٢٠ ، فى (العرب والعولمة) ، مرجع سابق .

والتطورات في مختلف أرجاء العالم ، الأمر الذي أضعف ارتباط الإنسان بأحداث مجتمعه المحلي لصالح اهتمامه بمتابعة الأحداث عالميا ، وهو ما يهدد - إذا تكثف التأثير بإسقاط الإنسان - سيكولوجيا - لولائه لوطنيته وليكون مواطنا عالميا ^(١) ولقد ساعد على فاعلية الجهاز الإعلامي الانهيار الذي طرأ على الأسرة والمدرسة ، كمؤسسات تقليدية للتنشئة الاجتماعية ، إذا كان من الثابت أن الأسرة قد شكلت في الماضي المؤسسة الأقوى للتنشئة الاجتماعية لكونها التي تنتج الوجدان الثقافي والوطني بواسطة منظومة القيم التي تلقاها أفراد الأسرة باعتبارها هي الآداب العامة الواجب احترامها والمقدسات التي يتعين التزام الأيمان بها . وإذا كان الطفل يلقن في إطار الأسرة مع لغته ميادئ عقيدته والقوالب الأخلاقية العامة والعليا لسلوكه فإنه يلقن كذلك بعضاً من المبادئ المؤسسة للشعور بالأنا الجمعي أي هوية الجماعة الوطنية التي ينتمي إليها ^(٢). قد يحدث أن يخرج الإنسان على هذه المبادئ أو يتمرد غير أنها تظل دائما مرجعيته التي يلجأ إليها حينما يحتاج إلى التوجيه.

ما نلاحظه أن الأسرة وغالب التكوينات القبلية سوف تصاب بالتفكك والانهيار وتوضح ذلك أن البنى القبلية مثلا هي التكوين القبلية الرئيسي في مجتمعات الخليج مهددة بأن تنفصل على منظومتها إذ أنه من المتوقع أن يؤثر سيل المعلومات الجديد على البنى القبلية والعشائرية الطائفية الراسخة على صعيد الواقع العربي ، لكونه سوف يقوم بتشكيل الوعي الظاهر للأفراد والجماعات وهو الوعي الذي يتناقض مع الواقع المحدد تاريخيا ، لأن هذا الوعي قد تشكل من عناصر غريبة على المجتمع ، ومن ثم يظل هذا الوعي حالة ذهنية فوقية عابرة وغير مؤثرة تسبب التشويش واللبس أكثر مما يساعد على وضوح الرؤية ^(٣) . ولا يتوقف الأمر عند انفصال الوعي عن البنية القبلية الواقعية ولكن الأوضاع قد تتطور في اتجاه الأسوأ فتصاب الأسرة بالتفكك نتيجة لخضوعها للتحويلات الاجتماعية الثقافية العميقة المرتبطة بالحدثة . ومن المظاهر المثيرة لهذا التفكك فقدان الأسرة بصورة متزايدة للقدرة على الاستمرار كمرجعية قيمية وأخلاقية للأبناء ، بسبب

^(١) عبد الإله بلقزيز : المولمة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٢ .

^(٢) الأنصاري ، محمد جابر : تعقيب ص ٥٥ - ٥٦ ، بخاصة ص ٥٦ ، في (العرب والمولمة) ، مرجع سابق .

^(٣) عبد الإله بلقزيز : المولمة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٣ .

نشوء مصادر جديدة لإنتاج القيم وتوزيعها وفي مقدمتها الإعلام ، وإضافة إلى اضمحلال قوة السلطة الأبوية مع عدم وجود منظومة من القيم التي يمكن أن تحل محلها ، الأمر الذي أدى إلى حالة من الاستباحة والتسيب القيمي تجعل الفرد أعزل من أية دفاعات ، بل مصاباً بمرض ضعف المناعة القيمية المكتسبة .^(٩)

ومن الطبيعي أن ينهار النظام التعليمي مثلما انهارت الأسرة والعلاقات القرابية ، ولعل الظاهرة الأولى التي تعتبر مؤشراً على الانهيار التعليمي هي ظهور ما يسمى بالتعليم المغترب الذي يفتح عادة إلى الأسس العلمية التي طورتها القوى الرأسمالية بما في ذلك اللغة وأنوات التعبير الأخرى ، وكذلك التأهيل الذي يتم على أيد أجنبية ، الأمر الذي يؤسس لدى الدارسين نوعاً من الارتباط الثقافي بالوطن أجنبية أو مواقع خارجية تفصلهم تدريجياً عن واقعهم المحلي^(١٠) وإذا كانت المدرسة هي المؤسسة التي يتم في إطارها التعليم فإنها تعتبر كذلك مؤسسة الإنتاج الاجتماعي ، التي تواصل التأكيد على ما غرسه الأسرة ، وتنقل به إلى مدى أبعد وتتمثل موطن القوة في المدرسة في أنها تؤدي وظيفتها على نحو نوعي متميز ، فضلاً عن قدرتها على صقل تكوين الفرد الاجتماعي وتنمية ملكة التحصيل والإدراك لديه بدرجة لا تجيدها الأسرة . تنفرد المدرسة بكونها تنتقل بوعي من حدود الجماعة الطبيعية إلى رحاب الجماعة الوطنية ، وعند هذه النقطة بالتحديد تؤدي المدرسة وظيفة إنتاج الثقافة الوطنية ذات الطبيعة الشاملة التي تربط الفرد بالمجتمع ككل.

غير أن النظام التعليمي والمدرسة يواجهان إخفاقاً مروعاً ، حيث يشار لهذا الإخفاق بمؤشر كمي وآخر كيفي ، ويتمثل الأول بالعجز عن تحويل التعليم في المجتمعات العربية المعاصرة إلى حق عام لكافة الفئات الاجتماعية وانحصاره تقريباً في المجال الحضري ، إضافة إلى انخفاض معدلات الاستفادة ، فإلى جانب حرمان شرائح كبيرة من التعليم ، فإن من يحصل عليه لا يتزود بالمستوى اللازم.

والنتيجة هي حرمان جيش هائل من حقه في التحصيل والتكوين، إما بسبب شح الإمكانيات وضعف الموارد والبنى الأساسية للتعليم أو بسبب الطبيعة التصرفية للنظام المدرسي الأمر الذي يدفعه إلى لفظ الكثيرين . ويتعلق المؤشر النوعي بفقد محتوى

(٩) محمد محمود الإمام : مرجع سابق ، ص ٩٠.

(١٠) عبدالله بلقيز ، المولمة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٣.

برنامج التكوين التعليمي وقصوره عن الاستجابة للحاجات المعرفية والعلمية ، والذي يؤدي في النهاية إلى تخريج أفراس ودفعات متلاحقة من أنصاف المتعلمين ممن لا تستفيد من طاقاتهم المتواضعة المؤسسات الإنتاجية^(١) التي تسعى إلى تطوير المجتمع . وتعتبر ظاهرة التفتيت للمجتمعات القومية من الظواهر التي يمكن أن تتخلق بتأثير العولمة ، حيث تعمل هذه الأيديولوجيا على بعث قوى تعمل في اتجاه تفتيت التكامل القومي في بعض هذه التجمعات ، وتمثل هذه القوى في الولاءات القائمة على العرف أو العنصر أو الدين أو اللغة وغيرها من صور التعبير الثقافي عن جماعات الأقليات المختلفة في العالم تلك التي يوجد لها في العادة جذور تاريخية تدفع للانقسام ، وهو ما تشجعه أيديولوجيا العولمة ، تأكيداً لذلك ما تحاوله الولايات المتحدة من دعم الأقليات الدينية كآلية من آليات التفتيت.

فمثلاً نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية بغير تفويض من أي طرف دولي قررت باعتبارها القوة العظمى حالياً - أن تقوم بدور الزعيم الأخلاقي الكوني فهي حامية الديمقراطية والمدافع عن حقوق الإنسان ، كما تواترت الألباء أخيراً أنها تريد أن تنصّب نفسها في وظيفة المراقب العام للاضطهاد الديني في العالم .^(٢)

ذلك أن إبراز الجماعات داخل إطار الدولة القومية وتشجيع هذه الجماعات من الخارج من شأنه أن يضعف الدولة ، لكي تصبح أكثر تماسكاً أمام تدخلات قوى العولمة التي تسعى أساساً إلى استباحة السوق الداخلية ، هذا بالإضافة إلى أن سقوط الروابط القومية من شأنه أن يتيح الفرصة لإعادة ترتيب الوحدات وفق نظم إقليمية غير تلك التي كانت تنتمي إليها ، وهي نظم من شأنها أن تبرز مهمة القوى الخارجية العظمى سواء في الحصول على المادة الخام إن وجدت ، أو السيطرة على الأسواق وهي مسألة مؤكدة.

وتعتبر البطالة والحد من الهجرة إلى المجتمعات المتقدمة أو التفتيت من الظواهر التي سوف تعاني منها المجتمعات في ظل العولمة. وتوضح ذلك أننا بينما نجد أن جانباً كبيراً من الاستثمارات يتجه إلى تمويل تكنولوجيا الإنتاج المتقدمة ، فإننا نجد أن هذه التكنولوجيا تعجز عن خلق فرص عمل إضافية إن لم تؤد إلى تراجع هذه الفرص وهو ما

(١) فايق ، محمد : تعقيب من ص ١٤١ - ١٤٢ ، بخاصة ص ١٤١ ، في (العرب والعولمة) ، مرجع سابق.

(٢) محمد محمود الإمام : مرجع سابق ، ص ٦٥ .

عرف * بالنمو غير المصحوب بفرص عمل Jobless Growth^(١) وهو ما يعنى أن هناك علاقة بين ارتفاع مستويات التكنولوجيا الحديثة وبين ارتفاع معدلات البطالة على الرغم من ارتفاع معدلات النمو الاقتصادى ، وهو ما حدث بوضوح فى الولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوروبا واليابان وكندا ، وهو ما يعنى أن التنمية فى ظل الثورة الصناعية الثالثة يمكن أن تحدث دون أن تخلق فرص عمل أو وظائف جديدة وهو شئ لم يكن معروفاً من قبل ، وعليها أن نأخذ فى الاعتبار ونحسن فأخذ بوسائل التكنولوجيا الحديثة لتنمية مجتمعاتنا .^(٢)

ويرتبط بذلك احتمالية انخفاض معدلات الهجرة سواء إلى مجتمعات الخليج أو إلى المجتمعات الصناعية الغربية ، ويرجع انخفاض الهجرة إلى مجتمعات الخليج لأن هذه المجتمعات استكملت تقريباً بناء مراقفها الأساسية إضافة إلى أنها تتبع تنمية لا تؤدي إلى توفير فرص عمل لعمالة خارجية ناهيك عن إنها بدلت تعاني هي نفسها من ارتفاع معدلات بطالة الوطنيين المؤهلين لديها ، أما وقف تيارات الهجرة إلى المجتمعات الغربية الصناعية فيرجع بالأساس إلى لجوء الحكومات فى هذه الدول بمسبب تفاقم مشكلات الركود والبطالة فى البلدان الصناعية الرأسمالية إلى مقاومة الهجرة إليها بعد أن كانت الهجرة إلى مجتمعات الشمال منفذاً أمام قوة العمل فى البلاد النامية ومصدراً مهماً من مصادر النقد الأجنبى . وفى هذا الإطار نشير إلى أنه برغم أن العولمة قد تحدد مضمونها فى منطقة الرأسمالية العالمية على أنه الحراك الحر وغير المقيد للملغ ولرؤوس الأموال، فإننا نجد أن الحراك الحر لقوة العمل مقيد^(٣) وهو ما يشير إلى الممارسة الانتقائية لعناصر العولمة من قبل المجتمعات الرأسمالية .

كذلك نستطيع رصد مجموعة من الظواهر التى سوف تحدث فى مجتمعات الشرق الأوسط وهى قد بدأت الآن تحدث بالفعل . من هذه الظواهر : ارتفاع عدد السكان المعرضين لتيارات العولمة وفى هذا الإطار نلاحظ الارتفاع الواضح لنسبة السكان الذين يتفاعلون مع العالم الخارجى وتتأثر به كل مجتمع أو أمة . وفى المجتمع المصرى مثلاً

(١) محمد فايق : مرجع سابق ، ص ١٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(٣) أمين ، جلال : العولمة والدولة ص ١٥٣ - ١٧١ بخاصة ص ١٥٥ ، فى العرب والعولمة (ندوة) ، مرجع سابق .

تجد أن ١/١ السكان على الأقل يتعاملون بصورة مباشرة أو غير مباشرة مع السياحة وحدها ونسبة مماثلة تتلقى تحويلات أفراد أسرهما العاملين خارج مصر ولقد دخلت الواردات كل بيت تقريباً ، خاصة تلك التي تضم تكنولوجيا الاتصال والمعلومات ^(١) يضاف إلى ذلك الاتصال بالخارج من خلال البث الإعلاني والإعلامي ، وبخاصة ذلك البث الموجه لشريحة الشباب التي تعتبر أكثر الشرائح تأثراً بمضامين العولمة.

إلى جانب ذلك ترمى الأجيال الجديدة بالجملة في أحضان العولمة وبخاصة جيل الشباب ، حيث تشير التوجهات الجديدة للأجيال القادمة والشابة على أنها إن تقبل طواعية وبمزيد من الألفة على الإنترنت والقنوات الفضائية والمعرفة الموسوعة والمعلوماتية فحسب بل على النشوة من التقاليد الجديدة ذات الطبيعة الاستهلاكية والمادية ، وسيفل أو ينكش كثيراً لذلك التواجد المرتبط بالخصوصيات والموروثات والأيدولوجيات الروحانية التي تواجه العولمة اليوم وبخاصة في عالمنا الإسلامي برودود فعل انكماشية وانتكاسية أو هجومية. وإن كانت التجارب قد دلت على أن من يقف في طريق العولمة ونظامها العالمي ، فإن الأخيرة على استعداد لأن تحاصره وتهدهدته وتقنعه بأساليب مباشرة وغير مباشرة لتحقيق أغراضها السياسية والاجتماعية .

إضافة إلى ذلك تبرز على الساحة مجموعة من الأوهام والمواقف التي تشير إلى اعترا ب الإنسان عن المجتمع ، أو رفض متابعة التطور الحادث حوله . ويتمثل أول هذه الأوهام في ادعاء تأكيد العولمة على الفردية. حقيقة الفرد في فرديته . فمن شأنه هذا الوهم أن يعمل على تخريب الرابطة الجامعية التي تجعل الفرد يعي أن وجوده إنما يكمن في كونه عضواً في جماعة أو طبقة أو أمة ، وهو ما يعني أن وهم الفردية يستهدف إلغاء الهوية الجمعية والطبقية والقومية وكل إطار اجتماعي آخر ليبقى الإطار العالمي (أو العولمي) وهو وحده الموجود ، وهو الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى تكريس النزعة الانانية وطمس الروح الجماعية. ^(٢)

كذلك الاعتقاد في وهم احتمالية غياب الصراع الاجتماعي وهو ما يعني أن قبولنا للعولمة يعني الاستسلام لجهات الاستغلال سواء كانت شركات أو وكالات أو أدوات اتصال وإعلام ترمخ العولمة ، وبعبارة أخرى أن هذا الوهم يفرض علينا أن نطعن أنفسنا

^(١) سيار الجميل : مرجع سابق ، ص ٢٠٣ .

^(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

مع الهيمنة وأن نستسلم لعملية الاستشباع الحضارى الذى يشكل الهدف الأساسى للعولمة.^(١)

كذلك ظهور المواقف المستقبلية ، ففى مواجهة طوفان العولمة قد يمارس البشر أحد موقفين إما الرفض المطلق والانغلاق الكلى . وما يتبع ذلك من ردود فعل سلبية ومحاربة ، أو مواقف القبول التام للعولمة وما تمارسه من اختراق ثقافى واستئباع حضارى شعاره (الانفتاح على العصر) و (المراهنة على الحداثة) . هذه المواقف من نوع المواقف اللاتاريخية التى لا تواجه المشاكل بعقل واثق من نفسه ، متمكن من قدراته ، وإنما تستقبلها بعقل مستقيل لا يرى صاحبه مخرجاً من المشاكل إلا بالهروب منها ، إما إلى الوراء وإما إلى الأمام ، رؤيته إلى العالم ذات طبيعة سحرية ، يقفز دائماً من الواقع إلى اللاواقع.^(٢)

من المواقف التى قد تظهر كذلك كرد فعل لعولمة المجتمعات الانغلاق فى مواجهة العولمة ، أو الانفصال عن المجتمع المحلى والاعتزاب عنه . وفيما يتعلق بالانغلاق فهو موقف سلبى موجه ضد الاختراق الثقافى والاجتماعى ، لا ينال من الاختراق ولا يمس ، ولكنه يتجه إلى حماية الذات بقصد تهيتها ، وحينما تحصن الذات فى مواجهة ظاهرة عالمية تدخل جميع البيوت وتعمل فعلها بالإغراء والعدوى والحاجة ، ويفرضها أصحابها فرضاً بتخطيط واستراتيجية ، فإن الانغلاق فى هذه الحالة ينقلب إلى موت بطئ ، قد تتخلله بطولات مدهشة غير أن صاحبه محكوم عليه بالإخفاق ! والاعتزاب مثل الانغلاق موقف محكوم على صاحبه بافتقاد الذات والهوية ، يتجه أصحاب هذا الموقف إلى الارتواء فى أحضان العولمة والاندماج فيها ، يؤكد أصحاب الموقف أنه لا فائدة فى المقاومة ولا فى الاتجاه إلى التراث ، بل يجب الانخراط فى العولمة من دون تردد ومن دون حدود لأنها ظاهرة حضارية عالمية لا يمكن الوقوف ضدها ولا تحقيق لأى تقدم أو نمو خارجها ، الأمر يتعلق بقطار يجب أن نركبه ، وهو ماضى فى طريقه بنا أو من دوننا .^(٣)

^(١) نفس المرجع ، ص ٣٠٥.

^(٢) نفس المرجع ٣٠٦.

^(٣) Stephen Crook: Op. Cit, P. 79.

ذلك أن تأثير العولمة سوف يعمل على تغيير بنى المجتمع كما فرض التفسير على بنية الثقافة والقيم ، على أن يكون التغيير فى اتجاه الانفصال عن القومية والارتباط بالعالمية أو (العولمة) ، وإن حمل الإنسان معه فى حراكه خصوصيته أو محليته.

خامسا : العولمة ومستقبل الدولة فى الشرق الأوسط :

لا شك أن العولمة فرضت تحولا هائلا على الدولة القومية فلم تعد الدولة هى * اللواتيات * * الهوبزى * الذى يسيطر بالسيف على المجتمع وما يضم من مواطنين بل تحولت فى ظل العولمة إلى دولة ذات طبيعة أنثوية تطعم المواطنين من ضرعها ، حتى هذا الضرع يبدو على وشك الجفاف الآن . للدولة الهوبزية كانت ذات طبيعة ذكورية ، بينما الدولة فى ظل العولمة سوف تصبح ذات طبيعة أنثوية تكتفى بتنظيم البيت لمساكنه ، والقيام على خدمتهم ^(١) وهو تطور تاريخى طويل بدأ مع نشأة الدولة القومية حيث يمكن اعتبار هذه النشأة الخطوة الأولى فى اتجاه العولمة.

لقد كان ظهور الدولة القومية نقطة بداية فاصلة فى تاريخ المجتمعات المعاصرة حيث قامت الدولة مرتبطة بظهور المجتمع القومى ومن ثم بدأت الدولة تؤكد تجانس البشر فى المجتمع استنادا إلى صيغة المواطنة . وفى هذا الإطار يمكن القول بأن شيوخ المجتمعات القومية يعتبر فعلا من أفعال العولمة ، بمعنى أن نشر فكرة المجتمع القومى كمجتمع كبير يتجاوز الإقطاعات الصغيرة كان تطورا جوهريا فى التسجيل بالعولمة ^(٢) . بحيث أصبحت الدولة القومية هى وحدة التعامل الدولى وارتباطا بذلك وقعت الاتفاقيات بين الدول ، ونشأت المؤسسات الخاصة بتنظيم العلاقات بين الدول ^(٣) .

لقد أدت الدولة أربعة وظائف تاريخية لعبت دورا أساسيا فى انتشار العولمة فهى أولا قد حققت التجانس الداخلى للمجتمع القومى التى تجسد إرادته الدولة القومية ، بحيث أصبح الولاء للدولة بالأساس وليس لأى تنظيمات وسيطة بين الفرد والدولة ، وهى وظيفة أكدتها الفلسفة الهوبزية بوضوح.

(١) السيد بن : فى مفهوم العولمة ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٣) جلال أمين : مرجع سابق ، ص ١٥٨ .

وفي عصر الرأسمالية التجارية ، وهو العصر الذي شهد تبلور الدولة القومية تدخلت الدولة تدخلاً في الاقتصاد القومي الحديث النشأة فقد كان عليها أن تنشئ هذا الاقتصاد إنشاء بتوحيد السوق القومية ، وإزالة العقبات أمام انتقال السلع من مقاطعة إلى أخرى ، وتوفير الأمن اللازم لهذا الانتقال ، وخلق الطرق ومد الترع ، وفرض سياج جمركي حول الدولة لحماية الصناعة الناشئة من منافسة دول أخرى كانت تقوم بالمهمة نفسها ، وفي الوقت نفسه كانت الدولة تتدخل أيضاً تدخلاً فعالاً خلق عملية الإنتاج نفسها فتعرض المواصفات الواجب إتباعها في إنتاج السلع التي كانت تنشئ الجيش القومي اللازم لفتح مستعمرات جديدة لتسويق ما تنتجه. ^(١)

وحيثما قامت الثورة الصناعية بدأت الدولة تقوم بدور آخر فلم يعد ضرورياً أن تتدخل الدولة تدخلاً مباشراً في عملية الإنتاج التي أصبح من المناسب تركها لقرارات أرباب العمل أنفسهم كما تراجع دور الدولة في حماية منتجاتها من المنافسة الخارجية . وارتقاع شعار (دعه يعمل دعه يمر) كشعار المقصود به أن تترك الدولة المنتجين وشأنهم، وأن تترك التجارة الدولية والداخلية حرة. وحيثما حل الاستعمار الحديث في النصف الثاني من القرن الماضي، والنصف الأول من القرن العشرين شمرت الدولة عن ساعدها وقامت بالتواجب الجديد المطلوب منها خير قيام ، تجيش الجيوش لفتح للمستعمرات الجديدة واحتلال بلاد بعيدة والدخول في حرب لمنع دولة أخرى من الحصول على مستعمرة ، أو احتلال بلد بدلاً منها كما قامت بمهمة إشعال الحملات الوطنية وترسيخ الشعور بالولاء للأمة والدولة. ^(٢)

ثم قامت الدولة الأوربية وبخاصة الدولة الاستعمارية بنقل بناء الدولة الحديثة إلى المستعمرات أي إلى مجتمعات العالم الثالث وذلك حتى تؤسس وحدات مناظرة تيسر عملية استغلال هذه المجتمعات.

ويمكن القول بأن الدولة في العالم الثالث قد مرت هي الأخرى بثلاث مراحل ففي الخمسينات إلى التسعينات حيث عصر الحرب الباردة كانت دول العالم الثالث قد حصلت لمجتمعاتها على الاستقلال إما كحصص لنضال وطني، أو بطريق مسلمي من خلال الرحيل السلمي للاستعمار وقد حاولت الدولة أن تقوم تنمية وطنية فعالة وقدم الدعم لها

^(١) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

^(٢) على ليلة : العالم الثالث ، مشكلات وقضايا ، مرجع سابق ، ص ٣٠٥ .

من قبل المعسكر الشرقي والغربي على السواء، كل معسكر يحاول استعلاءها على المعسكر الآخر . ومن ثم تدفقت المعونات على دول العالم الثالث بمعدل ليس له نظير من قبل أو من بعد . وقد اتخذت المعونات صورة معونات للحكومة وليس صورة الاستثمار المباشر ، أو معونات للقطاع الخاص . كان لابد أن يقوى دور الدولة نتيجة لذلك ، وأن يؤدي كل هذا إلى نشوء عصر الدولة القوية في العالم الثالث ، دولة تذكّر بشدة بالدولة في عصر التجاريين . فالدولة تتدخل في كل صغيرة وكبيرة ، في الاقتصاد والمجتمع ، وهي تعلن عن خطط خمسية طموحة للتنمية ، وهي تفرض سياجاً جمركياً عالياً لحماية صناعاتها الناشئة ، وهي تقوم بجهد جبار في القيام بمشروعات البنية الأساسية ، وفي كثير من الأحيان تتبنى الاشتراكية ، أي تقوم الدولة بدور فعال لإعادة توزيع الدخل حتى في البلاد المتحالفة مع الدول الرأسمالية ، حيث تجد نفسها مضطرة لرفع شعارات من هذا النوع ، والمؤسسات الدولية ، كالبانك الدولي وصندوق النقد الدولي ، تيدى تسامحاً غريباً أمام كل هذه الأفكار بل هي نفسها تتكلم برضا عن نظام التخطيط وعن دور الدول في الاقتصاد .^(١)

وقد بدأت المرحلة الثانية مع نهاية الستينات وأوائل السبعينات حيث انتكست الثورة في العالم الثالث ، وقشلت غالبية تجارب التنمية في تحقيق الآمال المعقودة عليها ، بل وحققت بعض هذه التجارب معدلات نمو سلبية ، وواجه كثير من مجتمعات ودول العالم الثالث مشكلات طاحنة وتجارب مريرة ، ولقد تراكب ذلك مع بداية تيار العولمة الجديد ، وبزوغ نجم الشركات المتعددة الجنسية ، ومن ثم كان على الدولة أن ترخى قبضتها شيئاً فشيئاً على الاقتصاد والمجتمع تحقيقاً لمصالح هذه الشركات . فالأسوار الجمركية يجري هدمها ، ونظام التخطيط يتم إلغاؤه ، والاشتراكية تصبح مضغرة في الأقواء ، وإعادة توزيع الدخل وما يقدم دعماً للمبلغ الضرورية يقال إنه يتعارض تعارضاً صريحاً مع اعتبارات الكفاءة ويضر بالتنمية .^(٢)

ثم تأتي المرحلة الثالثة لتجد أنفسنا في مواجهة الدولة الضعيفة ، حيث تظهر الدولة بصورة جديدة لا تخلو من سمات كوميدية ، دولة لها المظاهر الخارجية لدولة ذات سيادة وتبشر صورياً كل المهام التي كانت تبشرها من قبل ، ولكنها تقوم بوظيفة تكاد

^(١) المرجع السابق ، ص ١٦١ .

^(٢) نفس المرجع ، ص ١٦٢ .

تتخسر في وظيفة (الجلاد والتسليم) أى سحب يدها من كل ما كانت تضع يدها فيه من قبل ، أو تسليمه للأجانب ، مع القيام بالترويج لهذه الوظيفة والزمع بأنها تحقق المصلحة العامة : مصلحة الأمة بما في ذلك مصلحة الفقراء أيضا . فهي مشلا تبوسع الشركات والمشروعات التي تأسست في عهد الدولة القوية ، تبيعها للشركات الدولية العملاقة ، وتسمى هذا خصخصة أو تخصيصية ، أو اسما من هذا النوع لا يفصح عن هوية المثترى . وهي تسحب الدعم المقدم للفقراء وتسميه تثبيتا اقتصاديا ، وهي تفتح الباب على مصراعيه أمام السلع المستوردة تحل محل المنتجات الوطنية وتسمى ذلك تكييفها هيكليا .^(١)

ولا تخضع الدولة الضعيفة في مجتمعات العالم الثالث فقط لظاهرة العولمة ، ولكن تخضع لها كذلك الدولة العظمى في المركز ، وإن كانت آليات العولمة تعمل لصالح الأخيرة وعلى حساب الأولى . ولعل أفضل تشخيص لذلك الرد الذي قدمه وزير المالية الأمريكي روبرت روبن ردا على رئيس وزراء ماليزيا الذي هاجم شرور العولمة والمضاربين في أسواق العملات والأسهم ، كما انتقد الدول الكبرى لإجبارها البلدان الأسبوية على فتح أسواقها للمتاجرين بالعملات لتدمير اقتصادياتها إذ قال * اعزنى محمد، ولكن على أى كوكب أنت تعيش ، أنت تتكلم عن العولمة كأن ذلك يتضمن خيارا متاحا لك . العولمة ليست خيارا وإنما حقيقة واقعة ، يوجد اليوم سوق عولمة واحدة . والطريقة الوحيدة الممكن أن تنمو فيها هي اللجوء إلى أسواق السندات والأسهم للحصول على الاستثمارات ، وبيع ما تنتجه مصانعك في أسواق العولمة التجارية. كما أن أهم حقيقة حول العولمة هي أن أحدا لا يسيطر ، أسواق العولمة تشبه الإنترنت ، لا يوجد أحد في مركز السيطرة ، لا جورج سورس ولا القوى الكبرى ولا أنا *.

فسوق العولمة اليوم عبارة عن قطيع إلكتروني من متاجرين مجهولين بالعملات والأسهم وسندات المشاركة يجلسون وراء أجهزة الكمبيوتر . . وهؤلاء لا يعترفون بالظروف الخاصة (لأى دولة) ، وإنما يعترفون فقط بقواعدهم ، وهي إلى حد بعيد مشقة. فهم يحددون نسبة الادخار التي يجب أن تحققها دولتك ، ومستوى الفوائد ونسبة عجز الموازنة للنتائج المحلي الإجمالي ، ومستوى عجز ميزان المدفوعات الجاري . فالقطيع

(١) الأطرش ، محمد : العرب والعولمة : ما العمل ، ص ص ٤١١ - ٤١٢ بخاتمة ص ص ٤١٢ - ٤١٣ في (العرب والعولمة) ، ندوة ، مرجع سابق.

يرعى في ١٨٠ دولة ، لذلك ليس لديه وقت لأن ينظر إلى وضعك بالتفصيل، إنه يتوصل إلى أحكامه بصورة خاطئة عما إذا كنت تعيش إستقداً إلى قواعده.^(١)

وتؤثر العولمة على الدولة من بعدين ، حيث يضم البعد الأول التأثيرات أو المتغيرات التي تطرأ على الدولة من خارجها ، بينما يضم البعد الثاني المتغيرات التي تضعف الدولة من داخلها. وفيما يتعلق بمتغيرات إضعاف الدولة من الخارج ، نجد أن المتغير الأول يتعلق بدور الدولة العظمى في إضعاف الدولة المحلية في الشرق الأوسط . حيث بدلت دولة القوى الكبرى تتعامل مع المجتمع من خلف ظهر الدولة. وفي إطار تراجع دور الدولة المحلية الآن أو استغناء الرأسمالية الكوكبية عن ومساطة الحكومات تفضل الشركات المتعددة الجنسية التعامل المباشر في مجتمعاتنا ، سواء من خلال القطاع العام أو القطاع الخاص بدون الحاجة إلى مساندة الدولة المحلية لتفتح لها الباب ، فأهل الجنوب يهرولون الآن لطرق الباب من جهتهم .^(٢)

ونتيجة لذلك بدلت الدولة تعجز عن السيطرة على الفضاء الواقع داخل حدودها فلقد يسرت تكنولوجيا الاتصال الحديثة ممثلة في الأرقام الصناعية والتقنيات الفضائية اختراق معظم المجتمعات حيث أصبح تأثيرها يفوق وسائل الثقافة التقليدية والمحلية ، وغيرها من الوسائل القابلة للمراقبة وال ضبط ونظام القنوات المتعددة أو ما يطلق عليه (التلفزيون بلا قنوات) الذي يتيح للمشاهد مشاهدة ما يرغب فيه في الوقت الذي يريده دون قدرته على التحكم في ذلك من الخارج ، ودون قدرة من الدولة وأجهزتها على مراقبة ما يبت فيها أو يعرض . ويجسد ذلك مشكلة الإنترنت بالنسبة لجهاز الكمبيوتر الشخصي أو مشكلة استخدام الأطباق الهوائية بالنسبة لجهاز التلفزيون الأمر الذي يجعل السلطات المحلية في أي دولة سواء من العالم الثالث أو العالم الغربي ، عاجزة عن منع أفرادها من التقاط البث التلفزيوني أو استقبال وسائل الإنترنت أو إرسالها.^(٣)

ومن الطبيعي أن يؤثر ذلك الكثير من الشكوك والمخاوف لدى الحكومات والشعوب في أن واحد ، فالحكومات تحكمها المخاوف السياسية التي يمكن أن تنجم عن بث برامج معادية بأنظمة الحكم ، أو بث أفكار وأيديولوجيات تهدد الاستقرار السياسي

^(١) إسماعيل صبري عبدالله : مرجع سابق ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

^(٢) الهيئة العامة للاستعلامات ، وزارة الإعلام ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

^(٣) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

والاجتماعى فى هذه الدول ، وبالإضافة إلى الحكومات هناك قوى سياسية واجتماعية مؤثرة فى العديد من المجتمعات عبرت عن خشيتها من هذا النظام الإعلامى المقترح لما قد يمثله من تهديد لانساق وتقاليد وعادات الشعوب .^(١)

ويتبدى عجز الدولة من احتمال انسحابها الكامل ، فإذا كانت العولمة قدرا لا يمكن تجنبه ، وإذا كان اقتصاد السوق هو الصيغة التى يجب أن نأخذ بها شئنا أم أبينا ، فمن المنطقى التأكيد على ضرورة وجود دولة قوية فى ظل نظام السوق ، حتى تستطيع السوق أن تقوم بدورها ، وحتى يمكن أن تتدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية باعتبارها سلطة وليس منتجا ، وأعنى السلطة التى تحدد شروط مباشرة النظام الاقتصادى وإصدار السياسات النقدية والمالية والتجارية . وبذلك لا تتناقص سلطة الدولة مع تطور الحياة الاقتصادية ، فالاقتصاد الحر لا يعنى غياب دور الدولة عن الحياة الاقتصادية . وإنما يعنى أن تترك الدولة مجال الإنتاج المباشر للسلع والخدمات للأفراد والمؤسسات الخاصة ، ويعنى ثانيا أن تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية بوسائل أخرى أكثر فاعلية من حيث مراقبة الكفاءة الإنتاجية^(٢) غير أن القوى العظمى من خلال ضغوطها أو من خلال آلية الشركات المتعددة الجنسية لن تترك الدولة حرة لأداء دورها بحجمه الطبيعى، وإلا تعرضت للعقاب الذى يودى بالدولة ذاتها ، ومن ثم تعمل على إضعافها حتى تصبح الأسواق مفتوحة بلا عوائق أو قيود. ويمثل المتغير الثانى المتصل بالضغوط الخارجية الممارسة على الدولة فى الدور الذى تلعبه الشركات المتعددة الجنسية ، فنظرا لانتشار أعمال الشركات المتعددة الجنسية فى أكثر من تجمع وأكثر من اقتصاد فإنها لا تبقى العملية الاقتصادية داخل نطاق اقتصاد بعينه ولكنها توزع عناصرها بين عدد من الاقتصاديات ، وحينما تحول الشركة مراعاة التوازن فى البناء الاقتصادى ، فإنها لا تهتم بتوازن اقتصاد بعينه ولكن بتوازن البيئة الاقتصادية للشركة ذاتها ، بغض النظر عن مواجهة الاقتصاديات المحلية للتهيار ، ولعل أبرز مثال على ذلك ما فعلته شركة "رينو" الفرنسية التى قامت بتعديل حجم نشاطها ، لأنها رأت أن فى ذلك مصلحتها دون أن تهتم بمدى أضرار ذلك بمصلحة دولة بلجيكا أو بمصلحة العاملين فى الشركة من مواطنى

^(١) نفس المرجع ، ص ٥٦.

^(٢) محمد محمود الإمام : مرجع سابق ، ص ٨٣.

هذه الدولة .^(١)

ولم تكثف الشركات المتعددة الجنسية بالالتفاف على الدولة والتخلص من القيود التي تفرضها ، بل سعت إلى احتواء الدولة وتسخيرها لخدمتها ، حيث تقنع الدولة بدور " مديرة " المنزل (House Keeper) وفق ما تملبه إدارة الشركات المتعددة الجنسية وما يخدمها من مؤسسات دولية^(٢) دون أن تكون الدولة القومية مستفيدة من ذلك ، كأن الوظيفة الأساسية والاقتصادية للدولة الآن ومستقبلاً هي إعداد المجتمع للاستغلال دون أن تحاول الدفاع عن المجتمع في مواجهة هذه الشركات.

وفي هذا الإطار نستطيع أن نقول إنه إذا كانت الدولة في مرحلة سابقة تقوم بالتخطيط لتطوير مجتمعها وتنميتها ، وإنها إذا كانت قد تخلت عن مركزية التخطيط لصالح آليات السوق فإن ما حدث يتمثل في أن وظيفة التخطيط قد انتقلت إلى الشركات المتعددة الجنسية فهي تخطط لأنشطاتها سواء فيما يتعلق بالمواد الأولية أو تصريف السلع في الأسواق بما يساعد على التحقيق الدقيق بأهدافها ومصالحها وهو ما يعني أن هذه الشركات قد استبدلت تخطيطها بتخطيط الدولة التي تركت مجتمعها لترسم مستقبل تطوره هذه الشركات^(٣) . وهو ما يعني أن الشركات المتعددة الجنسية بدلت حل تدريجياً محل الدولة ، كما حلت الدولة محل الإقطاعية ، وذلك بسبب التقدم التكنولوجي وزيادة الإنتاج والحاجة إلى أسواق أوسع . فلم تعد حدود الدولة القومية هي حدود السوق الجديدة ، بل أصبح العالم كله مجالاً للتسويق سواء كان تسويقاً لسلع تامة الصنع أو تسويقاً لمستلزمات وعناصر الإنتاج أو تسويقاً لمعلومات وأفكار . وبذلك قفزت الشركة المنتجة فوق أسوار الدولة ، وأخذت هذه الأسوار تفقد قيمتها الفعلية ، بل أصبحت أكثر فأكثر أسواراً شكلية سواء تمتثلت في حواجز جمركية أو حدود ممارسة السياسات النقدية والمالية أو حدود الملطحة السياسية أو حدود بث المعلومات والأفكار أو حدود الولاء والخضوع . الحواجز الجمركية تخطاها هذه الشركات ، إما بالاستثمار المباشر داخل البلد المطلوب غزوه ، أو عن طريق اتفاقيات وجولة أورجواي .^(٤)

^(١) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

^(٢) جلال أمين ، مرجع سابق ، ص ١٦٥ .

^(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

^(٤) كريم بقرادوني : مرجع سابق ، ص ٥٨ .

وتعتبر العولمة الرأسمالية ذاتها هي المتغير الخارجى الآخر الذى يسعى إلى إضعاف الدولة القومية . لقد كان هناك تناقض أساسى بين الرأسمالية والدولة القومية التى تفرض القيود داخل حدودها حيث تمارس سيادتها ولقد حولت الرأسمالية الالتفاف حول الدولة القومية بأنظمتها المالية والنقدية والتشريعية ونجحت فى الكثير من الأحيان ، غير أن الدولة القومية ظلت فى نهاية الأمر عائقا أمام متطلبات توسيع السوق . ومع ظهور الشركات متعددة الجنسية والانتقال إلى مرحلة دولة الإنتاج ، ومع اشتداد أزمة الرأسمالية مع بداية السبعينات واشتعال المنافسة بين دولة المركز ، أصبح من الضرورى إقصاء الدولة القومية نهائيا من الطريق حتى يفتح الباب واسعا أمام تكوين سوق عالمية موحدة بالكامل لأول مرة فى تاريخ الإنسانية .^(١)

وإذا كانت العولمة تنادى بحقوق الإنسان ، فإنها التى انتهكت هذه الحقوق ، حينما انتهكت الميادة الوطنية سواء من خلال الشركات المتعددة الجنسية أو من خلال المؤسسات الدولية . فعندما تدعو العولمة إلى تهميش دور الدولة وإضعافها ، فإن ذلك يأتى فى سياق أفكارها وتطبيقاتها الليبرالية الجديدة على أرض الواقع . فهى تريد دولة ضعيفة ، من المسهل السيطرة عليها ، تريد استخدام الدولة فى المجتمعات النامية كحارس لمصالحها^(٢) التى ليست بالتأكيد مصالح مجتمع الدولة القومية . بالإضافة إلى ذلك هناك مجموعة المتغيرات التى سوف تضعف الدولة من داخلها وتتصل هذه المتغيرات بقيام المؤسسات والتنظيمات الداخلية بسلب الدولة لأهم وظائفها ، أو بالأصح تخلى الدولة عن وظائفها لهذه المؤسسات . الأمر الذى سيؤدى فى النهاية إلى وجود الدولة كعضو بلا وظيفة حقيقية أو إسهام حقيقى فى الوجود البنائى للمجتمع ، الأمر الذى سوف يفرض التأكيد على ثانويتها أو عدم أهميتها .

ويتمثل المتغير الداخلى الأول فى إضعاف الدولة فى تخلى الدولة عن وظائفها الإنتاجية ، حيث تصدر الدولة التشريعات لتوسيع صلاحيات وفعاليات القطاع الخاص - أجنبى أو محلى - والعمل على تقليص دور القطاع العام ، وهو الأمر الذى سوف يؤدى فى النهاية إلى إضعاف موارد الدولة ، إلى جانب تشكيل قوة ضاغطة على الدولة تتشكل من رجال الأعمال الذين سوف يسعون إلى تحقيق نجاحات اجتماعية ولو على حساب

(١) الحمش ، منير : تعقيب من ص ٥٣ - ٥٤ بخاصة ص ٥٤ فى (العرب والعولمة) ، مرجع سابق .

(٢) السيد يس : العولمة والطريق الثالث ، مرجع سابق ، ص ٩٨ .

البعد الاجتماعي الذي سيكون له تأثيره على غالبية البشر في المجتمع ، وإذا لم تستطع الدولة حماية البعد الاجتماعي وإذا لم تستطع السيطرة على الإنتاج أو على الأكل تنظيمه وتوجيهه ، فإن ولاء المواطن سوف يتجه إلى جماعة الضغط الجديدة ، منصرفاً عن الدولة ، بل إن الدولة ذاتها قد تجد نفسها في مرحلة ما ، تستجدي بقاءها واستقرارها من هذه الجماعة الجديدة المضاعطة .

وتمثل الجماعات أو المنظمات الطوعية المتغير الثاني الذي يشكل نغماً لفاعلية الدولة ، وسواء قامت المنظمات الطوعية بدعم خارجي لأداء وظائف ذات أهمية بالنسبة للمجتمع المدني ، حتى تهمش وجود الدولة بالنسبة للمجتمع ، أو أن المجتمع المدني قد أسس هذه التنظيمات الطوعية تلقائياً ، لتقوم بإشباع احتياجات عجزت الدولة عن توفير إشباع لها ، ومن المؤكد أن وجود هذه المنظمات وأداءها لمهامها في نطاق الواقع الاجتماعي يعد مؤشراً أساسياً على تآكل أو عجز فاعلية الدولة في هذه المجالات . وذلك يعني أن إحياء المجتمع المدني في مختلف أنحاء العالم ، وتحول المنظمات الطوعية إلى طرف فاعل في النظام الدولي يضغط على الدولة في بعض الأحيان لإدراكنا أن ثمة علاقة بين عناصر عديدة تدفع بالدولة إلى منطقة الاحتواء الخافتة في خلفية المسرح.

وتشكل شركات الحراسة والأمن المتغير الثالث ، الذي يمكن اعتباره - على الأقل - مؤشراً على انسحاب الدولة ، وإذا كانت الوظائف الأساسية للدولة القومية في الفلسفة الهوبزوية وكل فلسفات العقد الاجتماعي وهو التراث الذي مهد لإنشاء الدولة ، تتمثل في توفير الأمن الداخلي وضبط التفاعل الاجتماعي إضافة إلى حماية المجتمع من أي عدوان خارجي ، فإن ما نلاحظه اليوم هو تآكل الوظيفة الضبطية للدولة في المجال الداخلي ، مؤشر ذلك شركات الأمن العديدة التي صرح بقيامها ، للتتولي هي صليات الحراسة والضبط والحفاظ على الأمن ، الأمر الذي دفع إلى انكماش الوظيفة الأمنية التي إذا سحبت من يد الدولة ، سوف تبقى لها وظيفة حراسة المجتمع ضد أي عدوان خارجي ، بينما اختراق ما هو خارج حدود الدولة أصبح يقوم بإعادة تشكيل بنية المجتمع بداخلها. وأخيراً فإن اتجاه الدولة القومية إلى صيغة اللامركزية في الإدارة والتنمية ، وهي الصيغة التي تتخلى الدولة المركزية من خلالها عن كثير من سلطاتها للسلطات المحلية ، من شأنه أن يختزل مؤسسة الدولة إلى عنصر ضئيل ومحدود وثانوي في بناء المجتمع القومي وهو عنصر يكمل الصورة العامة دون أن يكون فعالاً في تشكيل هذه الصورة وذلك يعني أنه إذا اكتملت هذه التطورات التي بدأت الآن فإنه سوف يصبح مؤشراً على انهيار الدولة القومية واستقلالتها.

مقال فى الحوار

أ.د. حامد طاهر *

الحوار هو إحدى السمات الحضارية التى ينتقل بها الإنسان من حالة العزلة والتوحش، إلى الحياة المدنية والاجتماعية . وهو فى نفس الوقت وسيلة التفاهم بين الأفراد والشعوب من أجل تبادل المصالح وتحقيق المنافع . وعندما يفشل الحوار بين الأفراد تحدث القطيعة ، كما أنه عندما يتوقف بين الدول تقع الحروب . وليس صحيحاً ما يقال إن

* أستاذ الفلسفة الإسلامية ، ونائب رئيس جامعة القاهرة.

الحرب هي أحد أنواع لغة الحوار ، فليس في الحرب حوار على الإطلاق ، لأنه لا يوجد حوار في حال القتل والتدمير ، وإنما هي غريزة الغضب ، حين تعبر عن نفسها بصورة وحشية ، وهذا ما يجعلنا نقرر أن الحوار مرتبط بالعقل والمصلحة والعمران ، وأنه بقدر ما يكون هناك حوار متصل بين الدول يبتعد شبح العدوان والتخريب.

ومن ناحية أخرى فإن استمرار الحوار في المجتمع ، وتعدد مستوياته ، وتنوع موضوعاته - تعد علامة صحية على حيوية هذا المجتمع ، واتجاهه إلى مزيد من التقدم، وتحقيق الازدهار . وفي المقابل من ذلك ، فإن المجتمع الخالي من الحوار تسوده العزلة ، وينخر فيه الضمور ، على الرغم مما قد يبدو على سطحه من الهدوء والاستقرار . وكما قيل بحق إنه لا يوجد مكان أكثر هدوءاً واستقراراً من القبور !

دوائر الحوار :

للحوار دوائر متعددة . تبدأ من دائرة حوار الإنسان مع نفسه . والواقع أن هذا الحوار لا يتوقف أبداً . وهو يتجلى بصورة واضحة قبل اتخاذ القرارات ، وكذلك بعدها. وهذا هو المستوى الواقعي الذي تترتب عليه نتائج عملية في الحياة اليومية . ولا شك أن درجة الثقافة والوعي بالبيئة المحيطة إلى جانب الذكاء الشخصي ^{١٢} تعدّ عوامل هامة في جودة اتخاذ القرارات المناسبة في مختلف المواقف التي يتعرض لها الإنسان .

لكننا ينبغي أن ننتبه إلى أن حوار الإنسان مع نفسه قد ينتقل إلى

مستوى خيالي خالص، وهو ما يطلق عليه عادة أحلام اليقظة ، أى الحوار مع النفس حول أمور غير قابلة للتحقيق . وليس هذا المستوى مرفوضاً كله ، بل إنه مطلوب بجرعات محددة ، يكون الغرض منها حفز صاحبها إلى مزيد من العمل وبذل الجهد ، أما خطورته فتتمثل فى الاستقامة له ، وإيمانه على نحو مريض ، والأكثر خطورة أن الحوار يتحول من الحديث بين اثنين إلى حديث من طرف واحد ، وإصغاء كامل من الطرف الآخر (الإنسان ونفسه).

وتتمثل الدائرة الثانية فى حوار الإنسان مع أفراد أسرته ، وأصدقائه . وأهم ما يميز هذا النوع هو الحرص على مصلحة الإنسان، وشيوع روح المودة، وتناول مختلف الموضوعات بدون حرج ، لكن أهم ما يقسده هو الاختصار على سماع رأى الذى يتمشى مع ميول الإنسان وأهوائه ، ونفوره من الرأى الذى يتعارض معها . هنا ينقطع الحوار ، ولا يبقى إلا صوت واحد ، هو الصوت الذى يريد أو يرغب الإنسان فى سماعه . وعند التحليل الأخير، لن يكون هذا الرأى إلا رأيه هو ! إن الحوار الحقيقى يحتاج إلى احتكاك عقول بعضها ببعض ، وهذا الاحتكاك هو الذى يولد وجهات النظر المختلفة ، والتى لا تخلو كل واحدة منها من فائدة . وكما قال (بول فاليرى) بحق: " علينا أن نغتنى بخلافاتنا" والمقصود أن نستفيد من الآراء الأخرى باعتبارها وجهات نظر للموضوع أو للمشكلة المطروحة من زوايا متعددة ، قد نتيج لنا مالا نتيجها النظرة الواحدة من منظور واحد.

أما الدائرة الثالثة فتتمثل فى حوار الإنسان مع زملاء العمل . وهنا ينحصر الحوار فى مجال أو مجالات محددة ، ويحركه فى الغالب

حب الغلبة ، والمنافسة ، لكنه عندما يخلو من المطامع والأغراض الشخصية ، وينصب على مصلحة العمل ، وتحسين وسائل الأداء ، أو زيادة الإنتاج فإنه يكون مثمراً للغاية. ومما يساعد على ذلك وجود القدوة على رأس العمل، الذي يهيئ الظروف المناسبة للحوار البناء ، من خلال اجتماعات ، تشيع فيها روح الديمقراطية ، وعدم الخوف من التعبير عن مختلف الآراء، وتشجيع أصحاب الأفكار الجديدة والمبادرات.

وهنا لا بد من التوقف قليلاً عند كلمة مأثورة في ثقافتنا العربية تقرر أن " اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية " . وهي عبارة جميلة جداً تتضمن قاعدة ذهبية من قواعد الحوار ، لكننا نلاحظ عدم تطبيقها فسي حياتنا اليومية ، ولا في معاملتنا مع الآخرين . فنحن نغضب جداً ممن يختلف معنا في الرأي ، ويسرع المنافقون فيصورونه لنا على أنه عدو يسعى لتدميرنا ، وهكذا يتحول صاحب الرأي المخالف إلى " جبهة أخرى " تستحق التدمير ، بدلاً من أن نواصل الحوار معه بهدف الوصول إلى أرضية مشتركة ، أو نقطة وسط.

ومن التجارب المتكررة التي مرت بي في هذا المستوى أن صاحب الرأي الآخر أو المختلف قد يخونه التعبير ، فيذكر ألفاظاً قد تسيء إلى من يحاوره ، وهنا يتحول الحوار إلى عراك شخصي ، ويبتعد تماماً عن الموضوعات التي كانت أساساً للحوار. وهكذا قد تتسبب زلة لسان في إفساد حوار ، كان من الممكن أن يؤدي إلى نتائج جيدة.

وإلى جانب ذلك ، هناك عبارات قد يستخدمها المحاور فتهدئ من عدوانية الطرف الآخر ، وأحياناً ما تقوم بتخديره . وقد لاحظت كثيراً أن بعض الأشخاص كان يحشو حديثه بألفاظ (حضرتك ، سيادتكم ، سعادتكم . . إلخ) بينما ينطوى الحديث على الكثير من المغالطات والأخطاء ، ومع ذلك كانت تغتفر له . وهذا هو ما يطيب لى أن أطلق عليه مصطلح " مخدرات الحوار " . وبالطبع فإنها لا تؤثر إلا فى المدمنين على سماع المديح ، أو الذين يفضلون عدم استخدام عقولهم .

وأخيراً نصل إلى دائرة للحوار أكثر اتساعاً وتنوعاً ، وهى حوار الإنسان مع المجتمع . ولا شك أن هذه الدائرة تشمل حشداً متنوعاً من أنواع الحوار التى يجريها الإنسان مع أشخاص قد يرغب فى إقامة علاقات معهم ، أو تضعهم الظروف فى طريقه . فمثلاً عندما تسافر فى قطار أو طائرة تجد نفسك بجوار شخص لا مفر من أن تتبادل معه بعض كلمات المجاملة ، التى قد تتحول إلى حوار ينتهى عادة بانتهاء الرحلة . فى هذا النوع من الحوار عليك أن تستخدم كل ثقافتك التى حصلتها حتى تكون على مستوى الحدث - كما يقولون ، فلا ينبغي أن تبدو أقل من محاورك معرفة أو اطلاعاً . وعلبك فى هذه الحالة أن تتقبل منه بعض الآراء التى قد لا تروق لك ، كما أن عليك أن تجعل الحديث عذياً وتحافظ على استمراره . هنا يتخلل الحوار الكثير من الابتسامات ، وهز الرأس موافقة ، ويكاد ينعدم الخلاف .

لكنك حين تضطر لاستدعاء من يصلح لك التلاجة أو التليفزيون فى المنزل ، عليك أن تجرى حواراً من نوع آخر تماماً . فأنت تريد تحقيق مصلحتك بأقل مبلغ ممكن ، والطرف الآخر يبالغ فى حجم

الإصلاح ، وبالتالي يزيد الأجر . وهنا يدور حوار قد تعلقو نبراته وتهبط، وتستخدم فيه وسائل متعددة منها التهديد بالتعامل مع عامل آخر، ومنها الإغراء باستمرار التعامل معه في المستقبل ، ومنها الاستعطاف والاسترضاء حتى يصل الحوار إلى الهدف المطلوب ، وهو تحقيق مصلحة كلا الطرفين .

وهكذا فإن دائرة حوار الفرد مع المجتمع تتسع وتتنوع لتشمل أحياناً حواراً مع تلميذ في مدرسة ، أو طالب في جامعة ، أو عامل في مصنع ، أو فلاح في حقل ، أو شخص على مقهى ، أو بائع في محل ، أو شرطى في مخفر . . . وكما يتضمن حواراً هادئاً ومعقولاً فإنه قد يشمل حواراً صاخباً و متهوراً . وهنا ينبغي على الإنسان أن يكون على وعى بمستويات الثقافة الموجودة في المجتمع ، وأن يجيد التعامل مع كل منها دون استعلاء عليها ، أو تفريط لحقوقه فيها . ولا شك أن إجراء الحوار مع كل من هذه الأطراف المتنوعة يتطلب لغة خاصة، وأسلوباً في الإقناع يتناسب مع صاحبه . وهو يشهد أننا لم نعد أمام " حوار " واحد ، وإنما أمام " حوارات " متعددة . وهذا يقودنا إلى الحديث عن أنواع الحوار .

أنواع الحوار :

للحوار أنواع كثيرة ، تختلف باختلاف المنظور إليها ، فهناك أنواع للحوار من حيث شكله ، وأنواع أخرى من حيث طابعه ، وأنواع ثالثة من حيث نتائجه ، وفيما يلي كلمة مختصرة عن كل نوع منها تبعاً للمنظور الخاص بها :

أ) الحوار من حيث شكله

هناك نوعان أساسيان هما الحوار الشفهي ، والحوار المكتوب .
ومن الواضح أن الأول منهما هو المستخدم في سائر شئون الحياة اليومية ، وهو يتميز بالحيوية والسرعة ، ويهدف إلى تحقيق المصالح العاجلة ، مستخدماً الحجج الخطابية والعاطفية إلى جانب القليل من الحجج العقلية .

أما الحوار المكتوب فيمكن وصفه بأنه حوار العقل والمنطق ، وهو يمتلئ بالحجج البرهانية والجدلية ، ولأنه لا يسعى لتحقيق مصالح عاجلة أو قريبة فإنه يتسم بالطول ، ويقدر من البرود ، لأنه يناقش أفكاراً ، واللجوء فيه إلى العاطفة أو الانفعال يعد أمراً معيباً . كذلك فإن التجريح الشخصي يهبط بقيمته ، ويخرجه عن المستوى اللائق به .

وللحوار المكتوب أصول يجب الالتزام بها ، وآداب ينبغي مراعاتها . فمن ذلك مثلاً : الأمانة في عرض وجهة النظر الأخرى ، وتحديد نقاط الخلاف الرئيسية ، والرد على كل منها بموضوعية ، وتوثيق المعلومات الواردة بقدر الإمكان ، مع بيان الأساس أو الأسس التي يستند إليها الرد والمردود عليه ، وفي كل ذلك ينبغي إظهار الاحترام اللائق لصاحب الرأي الآخر ، والابتعاد تماماً عن الإساءة إليه أو الاستهزاء به ، حتى ولو كانت آراؤه ضعيفة ، وحججه متهافئة .

وفي ثقافتنا العربية صفحات كثيرة ورائعة تعد نماذج جيدة على الالتزام الكامل بأصول الحوار وآدابه . ويكفي أن لدينا علماً خاصاً بذلك ، هو " علم آداب البحث والمناظرة " . لكننا نعثر أيضاً على مناظرات تمثل أنواعاً من الحوار ، الذي لم يتحقق فيه هذا الالتزام ،

أو تحقق بدرجات متفاوتة ، وجرى فيه تجريح الخصوم ووصفهم بالكفر
والفسق والفجور ، كما تم تشبيههم أحياناً بالخنازير والكلاب !

ب) الحوار من حيث طابعه

توجد ثلاثة أنواع من الحوار ، أولها الحوار الهادئ الحميم الذى
يدور عادة بين أطراف متفقة سلفاً فى رأى والتوجهات. وهذا الحوار
على الرغم من أوصافه التى تحظى من الجميع بالقبول والرضا، إلا أنه
قد يتحول بالتدريج إلى نوع من الحوار مع النفس ، أى حوار من طرف
واحد ، لا يوجد فيه سوى رأى واحد ، يُوافق عليه المتحاورون.

وثانيها الحوار الموضوعى الذى يدور عادة بين أطراف مختلفة
فى الرأى، يعرض كل منهم وجهة نظره ، مدعماً لها بالأدلة ،
وموضحاً بالأمثلة، لإقناع الأطراف الأخرى ، ثم يقوم غيره بعرض ما
لديه ، وهكذا يسير الحوار بنظام وموضوعية ، مع إتاحة الفرصة
للتعقيبات ، وإعطاء كل واحد من المتحاورين الوقت المناسب والمحدد
له ، حتى يتبلور فى النهاية رأى صحيح ، يحظى بإجماع الحاضرين
أو بأغلبية الأصوات.

فى مثل هذا النوع من الحوار ، ينبغي أن تتصحب المناقشات
حول الأفكار ، وليس الأشخاص ، حول أسلوب العمل وليس القائلين
عليه ، حول قيمة النتائج والوصول إلى أفضل عائد منها ، ومن
المفترض أن يبدأ الحوار ويتطور فى وجود مجموعة من
الحقائق المعلنة أمام الجميع ، وأن يستعان فى ذلك بالأرقام
الموثقة والرسوم البيانية الصحيحة.

أما النوع الثالث من الحوار ، فهو الحوار المتشنج ، وهو الذى يدور عادة بين أطراف مختلفة سلفا ، لا يسمح كل منها بقبول أى رأى من الطرف الآخر ، بل إنه يسعى بكل الوسائل لإسكاته ، أو التشويش عليه، إما برفع الصوت ، أو بتحريك الأيدي، أو حتى بالتهديد بالضرب. وأحيانا ما يحدث من أحد الأطراف انسحابه من جلسة الحوار لواحد من سببين : إما لكى لا يتيح أى فرصة للطرف المخالف له للتعبير عن رأيه ، حتى لا يعرف وينتشر ، وإما لحرصه على أن يفوز هو نفسه فى الحوار ، حتى ولو كان رأيه ضعيفا ، وأدلتة متهاوية. فى مثل هذا النوع من الحوار يسود التعصب ، وضيق الأفق ، وتغلى النفوس بالغضب ، ويسعى المحاور أو المحاورون من جبهة واحدة إلى ضرورة القضاء المبرم على خصومهم . ولا شك أن هذا الجو لا يسمح للحقيقة أن تظهر، ولا للأراء الصائبة أن تعبر عن نفسها ، وبالتالي تفشل عن تحقيق الأهداف المرجوة منها.

جـ) الحوار من حيث نتائجه

هناك ثلاثة أنواع ، أولها الحوار العقيم ، الذى يدور أساسا حول مشكلة زائفة ، أى مشكلة من اختراع شخص أو أشخاص تكون لهم مصلحة خاصة فى شغل الناس عن مصالحهم الحقيقية . ومن ذلك مثلا الحديث عن مشكلة شاب يقتل والديه (حالة فردية) وإهمال مشكلة قتلى المواصلات العامة على الطرق (ويصل عددهم إلى عدة آلاف سنويا) ، أو مشكلة الدروس الخصوصية (حالة عارضة) وإهمال مشكلة كيفية

الارتقاء بمستوى التعليم (ظاهرة أساسية)، ومشكلة الغزو الثقافي (مفتعلة) وإهمال مشكلة ضعف الترجمة (وهي سبب رئيسي في ركود الحركة الثقافية) . ومما هو ملاحظ أن الحوار حول مشكلة زائفة يكبر ويتعاطم لكنه يظل يدور في حلقات مفرغة ، لأنه ببساطة لا يعالج مشكلة حقيقية ، أي عقبة تقف في سبيل الفكر والسلوك الإنساني .

وفي مثل هذا النوع من الحوار ، يقوم المحاور باستعراض عضلاته الثقافية إن صح التعبير ، وكثيراً ما يبتعد عن الموضوع ، محلقاً في آفاق أخرى بعيدة ، ومتحدثاً عن مجتمعات أخرى مختلفة ، وتجارب لا تمت للواقع بصلة . . ولو تأمل القارئ حديثه جيداً ، بل لو تأمل هو نفسه حديثه لأدرك أنه لا يقدم شيئاً ذا فائدة ، والسبب بسيط للغاية ، لأنه يضيع وقته وجهده في محاولة حل لغز من صنع عقله ، وليس له علاقة بالواقع.

وعلى العكس تماماً من هذا الحوار العقيم ، يوجد الحوار المنتج أى الذى يتناول مشكلة حقيقية ، ويكون الهدف منه الوصول إلى حل محدد لها . فى هذا النوع من الحوار ، يجرى إلقاء الضوء على نشأة المشكلة ، وتطورها ، وأهم مظاهرها ، ومدى خطورتها ، تمهيداً لاقتراح الحل أو الحلول المناسبة لها . وقد قال أسلافنا بحق إن " تحديد المشكلة يعد جزءاً من حلها " ، لكن ذلك لا يحدث إلا إذا اشترك فى مناقشتها عدد من المحاورين ، الذين تدفعهم الرغبة الصادقة فى التوصل إلى الحلول ، من خلال حوار يكشف مختلف جوانب المشكلة ، فى لغة دقيقة وواضحة ، وباستخدام مصطلحات محررة من الفوضى والغموض . إن المحاورين فى مثل هذا العمل يكونون أشبه بالبنائين ،

الذين يعرف كل منهم دوره فى تشييد البناية المتكاملة . ولا شك أن حواراً كهذا لابد أن يخلو من الاستطراد والمهاترة ، وأن يجرى فى جو من الجدية والاحترام ، حتى يصل إلى هدفه بكل سلاسة ويسر .

وإلى جانب كل من النوعين السابقين ، يوجد نوع ثالث من الحوار ، يمكن أن نطلق عليه حوار الاستكشاف ، وهو الذى يسعى إلى تحديد المشكلة ، وليس بالضرورة التوصل إلى حل لها ، وذلك عندما تكون تلك المشكلة من الصعوبة والتعقيد والتشابك مع غيرها من المشكلات الأخرى . . حينئذ يتم حوار لمحاولة تفكيك المشكلة المعقدة إلى عناصرها البسيطة ، وبيان علاقات التداخل والاتصال بينها وبين المشكلات الأخرى المرتبطة بها . ولنأخذ مثلاً على ذلك : مشكلة الإسكان ، التى ترتبط بمشكلة العمل ، ومشكلة البطالة ، ومشكلة التضخم ، ومشكلة الزواج . . الخ . ومن الواضح أن مثل هذا النوع من الحوار لا يتطلب فقط مجموعة متحاورين ، بل مجموعات من سائر التخصصات ، تركز كل واحدة جهودها حول نقطة محددة ، ثم يتبادل الجميع ما توصل إليه كل منهم .

ولا شك أن هذا الحوار يحتاج إلى إعداد جيد مسبقاً ، وإلى إدارة حكيمة وحازمة ، حتى تستطيع أن تنسق بين تلك " الحوارات " ، وأن تجمع بينها أخيراً فى منظومة واحدة . وهنا لا يوجد مجال للمزايدة أو استعراض العضلات ، وإنما المطلوب هو الاختصار والتحديد وبلورة المفاهيم وتحديد العلاقات فى صيغ شبه رياضية ، حتى تكون أساساً جيداً للتعامل معها والإفادة من معطياتها .

شروط الحوار المنتج :

إن النتائج لا تأتي من فراغ ، فإذا كنا نطمح إلى أن تكون حواراتنا منتجة، بمعنى أن تضعنا على طريق الفعل ، فلا بد أن نتبع نماذجها الجيدة ، وأن نفحص أسباب نجاحها ، كما ينبغي أن نرصد بكل دقة الشروط التي تساعد على هذا النجاح . ويمكن أن نسجل هنا أهم هذه الشروط فيما يلي :

١- توافر مرجعية يعترف بها كل من المتحاورين . وهذه المرجعية قد تكون قوانين العقل ، أو مبادئ الدين ، أو سلطة التقاليد ، أو تحقيق المصلحة . .

٢- وجود حكم يلتزم كل من المتحاورين بطاعة أو امره وتنفيذ ملاحظاته . ومن المعروف أن هذا الحكم هو الذي يقوم بدور التنظيم والفصل في أثناء المحاورة ، وله الحق في إنهاؤها عندما تحيد عن أهدافها.

٣- إعطاء الفرص المتكافئة لكل الأطراف ، سواء في الوقت المحدد للحديث ، أو في إبداء الملاحظات والتعقيب.

٤- استغلال المحاور للوقت المخصص له ، وعدم إضاعته في مقدمات غير ضرورية ، أو استطراد غير مطلوب ، وأن يتميز حديثه بالتركيز ، وترتيب المعلومات ، والتصريح بالنتيجة التي يريد الوصول إليها.

٥- ضرورة الإصغاء الكامل عندما يتحدث الطرف الآخر ، وعدم ملاحظته بالموافقة ، أو مقاطعته بالمخالفة . وهذا يعنى تسجيل الملاحظات عليه ، وإبداءها عندما تعطى له الكلمة .

٦- احترام شخص المحاور ، وعدم الإساءة إليه بألفاظ أو عبارات غير لائقة ، وكذلك عدم الاستهزاء به حتى ولو بالتلميحات والنظرات !

٧- أن يكون لدى أطراف الحوار الاستعداد لسماع وجهات النظر الأخرى ، والاعتراف بالحق عند ظهوره . ولا شك أن هذا الشرط يتطلب " شجاعة أدبية " ينبغى أن تكون من أخلاقيات المحاور الحقيقي .

فإذا أردنا بعد ذلك أن نتعرف على عناصر القوة وعوامل الضعف في الحوار ، أمكننا خلال استعراض عشرات - ولا نقول مئات الحوارات - أن نستخلص أهم هذه العناصر والعوامل :

عناصر القوة في الحوار :

١- الإلمام الجيد بجوانب المشكلة التي يدور الحوار حولها (نشأتها، تطورها، مظاهرها ، مدى خطورتها) .

٢- يمكن للاستشهاد بالنصوص الدينية ، عندما يتعلق موضوع الحوار بذلك ، أن يكون من أهم العناصر التي تقوى جانب المحاور ، وتضعف من موقف المحاور الآخر .

٣- استخدام المعلومات التاريخية ، بشرط الدقة فى إبرازها ، وأن تكون فى موضعها تماما، أى أن يكون توظيفها من أجل تأكيد معلومة معينة ، أو دحض معلومة أخرى لدى المحاور الآخر .

٤- الاستعانة بلغة الأرقام مما يضيف الكثير من المصداقية على حديث المحاور . وهنا أيضا لابد من التأكد من مصدرها ، حتى لا ينهدم بناء المحاور ، إذا ثبت عدم صحة رقم واحد مما استعان به .

٥- تطعيم الحديث بالحجج المنطقية ، التى تتمثل أهميتها فى سهولة تصديقها من المتابعين للحوار . وكلما استخدمها المحاور بوضوح كانت أقوى تأثيرا .

٦- استمداد الأمثلة من الحياة الواقعية ، لشرح وتفسير الحقائق العلمية والنظريات ، حتى يكون الحوار حيا ، وقريبا من أذهان المتابعين .

٧- استخدام اللغة المقنعة ، وأعنى بها اللغة التى تتسم بالدقة والوضوح ، مع الابتعاد عن الأساليب القديمة ، والكليشيهات التى فقدت طزاجتها من كثرة الاستعمال .

٨- إجادة طرح الأسئلة والتساؤلات ، فهى تعتبر دائما وسيلة من وسائل الهجوم، حتى لا تتاح للمحاور الآخر فرصة طرحها .

٩- عدم إهمال الإجابة على أى سؤال يطرحه المحاور الآخر ، لكى لا تبقى ثغرات مفتوحة فى الحوار .

١٠- وأخيرا كلما توافر لدى المحاور معلومات كافية عن يحاوره كان فى موقع أفضل ، ولا يعنى هذا استخدام معلومات شخصية ضده أثناء المحاوره ، وإنما الإشارة عند اللزوم لبعض أفكاره التى سبق أن أعلنها من قبل.

مظاهر الضعف فى الحوار :

- ١- الظهور بمظهر التردد والنسيان .
- ٢- محاولة تذكر المعلومات ، أو الأسماء ، أو الأرقام مما يؤدى إلى إملال المتابعين للحوار .
- ٣- الخروج عن موضوع المحاضرة ، بكثرة الاستطراد .
- ٤- حشو الحديث باللوازم الشخصية كالتقسم ، أو ألفاظ التفخيم (حضرتك ، سيادتكم . . إلخ).
- ٥- مقاطعة المحاور الآخر أو التشويش عليه أثناء حديثه.
- ٦- تعمد الإساءة الشخصية للمحاور الآخر .
- ٧- الانفعال والتلويح بالأيدى فى وجه المحاور الآخر .

كيف نعلم شبابنا الحوار ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال الهام ، لابد أن نحسم الإجابة حول سؤال آخر يسبقه ، وهو : هل الحوار موهبة أو اكتساب ؟

والواقع أننا نشهد العديد من المفكرين الذين برعوا فى فن الحوار براعة فائقة ، إلى درجة أن براعتهم لم تقتصر فقط على إعجاب المعاصرين لهم ، وإنما استمرت لدى الأجيال اللاحقة . وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى سقراط وأفلاطون وأرسطو من العصر الإغريقى ، والأشعرى وابن قتيبة وابن حزم فى الثقافة الإسلامية ، وشكسبير وفولتير وكانط من الثقافة الغربية . وهذه فقط مجرد أمثلة ، لكننا إذا رحنا نتتبع سير هؤلاء المحاورين العظام وجدناهم يمتلكون مقدرة فريدة على تحليل الآراء ونقدها ، والرد القوى المقنع على أصحابها . ويدهشك بالفعل أن رأى قد يبدو قويا ومتناسكا ولكنه عندما يتم تناوله على قلم واحد من المحاورين الكبار تجده قد تهاوى ، وسقطت حججه أمام القوة العقلية الهائلة التى يقابلها بها . فإذا ما بحثنا أقوال هؤلاء المحاورين الكبار وجدنا أنهم عاشوا فى عصور معينة ، وأنهم تعرضوا لمثل ما تعرض له معاصروهم من المفكرين والمتقنين ، وهذا يجعلنا نسرع إلى القول بأن القدرة على الحوار من المواهب التى تمنح للإنسان ، وليست من الخبرات التى يقوم باكتسابها ، وإلا لكان كل من عاش فى بيئة سقراط أو أفلاطون ، ونهل من ثقافتهما أصبح على نفس مستواهما .

لكننا من ناحية أخرى نلاحظ أن البيئة الثقافية والواحدة لا تنتج دائما متقنين متشابهين (وإلا لكان الأمر بشعا للغاية !) ، وإنما تساعد أصحاب الاستعدادات المختلفة على تنمية قدراتهم ، وتفجير طاقاتهم ، كل بحسب ما هو مستعد له . فهناك المفكر الهادئ الذى لا يحب أن يدخل فى أى معركة فكرية ، وهناك المفكر الشجاع الذى يقبل التحدى

على الفور حين يفرض عليه ، كما أن هناك المفكر الجسور الذى يسعى بنفسه إلى مواطن الخلاف لكي يحركها ، ويصبح طرفا فيها . وهكذا فإن البيئة الثقافية والفكرية تقوم بدور كبير فى تهيئة الجو المناسب لظهور أصحاب القدرة على الحوار .

هنا يمكن أن نجيب على السؤال المطروح ، وهو كيف نعلم شبابنا أو نساعدهم على إجابة الحوار ؟ من المؤكد أن كل إنسان (بدون استثناء ومنذ الطفولة) لديه استعداد للتفوق فى مجال ما . وأن البيئة التى ينشأ ويتطور فيها من أهم العوامل على إبراز هذا الاستعداد . لذلك فلا مفر من التوقف عند البيئة الأولى التى ينشأ فيها الإنسان ، وهى الأسرة ، وقد قيل بحق إنه يكتسب من خلالها أكثر من ٨٠% من عاداته التى تصحبه حتى آخر عمره . لذلك فلا بد أن نسأل :

١- هل يتحاور الكبار فى الأسرة أمام الأطفال فى الموضوعات العامة ، وفى شئون الأسرة؟

٢- هل يتيح الوالدان لأبنائهما فرصة التعبير عن طلباتهم بدون خوف ؟

٣- هل يمكن للطفل أن يرفض بعض قرارات الأسرة أم عليه دائما أن يرضخ لها ؟

٤- هل يسمح للطفل أن يجلس مع ضيوف الأسرة ، ويقول رأيه بصراحة ؟

٥- هل يمكن للطفل أن يستضيف أصدقاءه فى المنزل ، ويتحدث معهم أمام أسرته ؟

٦- هل تتق الأسرة فى الطفل لنقل رسالة إلى أحد الجيران أو المعارف ؟

فإذا انتقلنا مع الطفل ، الذى أصبح صبيا ، ويا فعا ، وشابا فى كل من المدرسة والجامعة (متحسرين بالطبع على أولئك الذين يتسربون من التعليم !) كان من حقنا أيضا أن نسأل :

- هل يتيح المعلمون والأساتذة للتلميذ أو الطالب فرصة مناسبة وبدون حرج لى يقول إنه لم يفهم هذه النقطة أو تلك ؟

- هل تقدم له مادة علمية تحتوى على وجهات نظر متعددة ، ويكون له حق تبني واحدة منها ؟

- هل يسمح له أن يقف بين زملائه ، ويعلن عن رأيه بكل صراحة فى المقرر الذى يدرس له ؟ أو فى بعض عناء غيره ؟

- هل يقابل عند الاعتراض بالقدر اللازم من الاحترام ، أم أنه يصبح عرضة للسخرية والاستهزاء ؟

- هل يسأل أثناء الاختبارات أو الامتحانات عن رأيه فى القضية المطلوب منه الحديث عنها ، أم عليه فقط عرضها كما هى ؟

- هل تتاح له ممارسة الأنشطة التى تساعد فى التعبير عن نفسه كالإذاعة المدرسية ، وصحافة الحائط ، والمسرحيات ، والندوات ، والمناظرات .. إلخ

وننتقل بعد ذلك إلى دائرة العمل ، ومع أن الكثيرين يغفلونها في الحديث عن البيئة ، فإنها لا تقل أهمية عن كل من المدرسة والجامعة . لأن الإنسان يتعلم منها الكثير ، والتعلم فيها يمتاز بطابعه العملى التطبيقى . كما أن الجو الذى يسود دائرة العمل يختلف من مكان لآخر ، تبعاً لطبيعته من ناحية ، وللمسؤولين عن إدارته من ناحية أخرى . وهنا يمكن أن نسأل :

- هل يتاح للعاملين مناسبات (كالاجتماعات الدورية أو غيرها) لإبداء وجهات نظرهم فى أسلوب العمل ، ونظام المكافآت والحوافز ؟

- هل يغضب المسؤولون عن الإدارة من النقد الموضوعى ؟ وكيف تكون ردود فعلهم عند سماعه ؟

- هل يسمح بطرح أفكار جديدة لتحسين الأداء ، أو رفع كفاءة الإنتاج؟ وطريقة تقبلها من الإدارة ؟

- إلى أى مدى ، تكون وسائل الاتصال بين الإدارة والعاملين سهلة وميسورة ؟

- هل تفرض التعليمات الجديدة من الإدارة ، أم تجرى مناقشتها مع العاملين قبل تطبيقها ؟

- هل تستمع الإدارة شفوياً لشكاوى العاملين ، أم أنها لا تقبل منهم إلا طلبات مكتوبة ؟

- هل تعقد الإدارة مع العاملين اجتماعات (أسبوعية - نصف شهرية - شهرية - فصلية - سنوية) ؟ وكيف يجرى الحوار فيها ؟

وأخيرا نصل إلى وسائل الإعلام باعتبارها قد أصبحت بالفعل ذات أثر مباشر على توجيه الرأي العام ، وتكوين ثقافة أفراد المجتمع . والواقع أن دور وسائل الإعلام، وخاصة التلفزيون ، قد تجاوز كثيرا دور كل من الأسرة والمدرسة . فقد دخل هو نفسه إلى الأسرة ، واحتل مكان الصدارة فيها ، ولم ينج من تأثيره حتى الأب والأم ، فكيف بالصغار ؟ أما المدرسة فقد تخلت عن التلفزيون في شد انتباه التلاميذ ، كما عجزت عن تقديم المدهش والرائع كما تفعل صوره الملونة ، وبرامجه المتنوعة والمبهرة . وأنا أسأل المتشبهين بمواقع التعليم التقليدية سؤالا واحدا هو : هل تستطيع المدرسة أن تحرك عقل التلميذ وتستثير خياله كما يفعل التلفزيون ؟

إن من الواجب علينا أن ندرك دور وسائل الإعلام الحديثة ، وأن نقدر إمكانياتها الهائلة في " تعليم الحوار " للشباب . ونحن هنا لا نطمح إلى إيجاد منظومة متكاملة لتحقيق هذا الهدف ، وإنما يكفى الاتفاق على الحد الأدنى من الأسس والمبادئ التي ينبغي مراعاتها ، والالتزام بها قدر الإمكان . ومن أهمها:

١- تحديد مسئولية رؤساء تحرير الصحف ، ورؤساء قنوات الإذاعة والتلفزيون في استبعاد أنواع الحوار الهابط ، والاحتفاء بالنماذج الجيدة من الحوار البناء.

٢- تنقية الحوار من الألفاظ البذيئة ، والعبارات أو التلميحات التي تستهزئ أو تزدرى الآخرين .

٣- احترام آراء الأطفال ، وتقدير وجهة نظر المرأة ، والإصغاء الكامل لكل من يريد التعبير عن نفسه من مختلف الفئات، أيا كان

مستواها الثقافى .

٤- تقديم ندوات الحوار المتعدد الآراء ، مع تطبيق الضوابط التى تجعله متطورا، وبناء ، وينتهى إلى نتيجة محددة .

٥- بذل المزيد من الجهد للارتقاء بمستوى الحوار فى الأعمال الدرامية بين الشخصيات ، لما لذلك من أثر مباشر على ثقافة المشاهدين .

٦- ضرورة إتقان الصحفيين والمذيعين فن السؤال والتساؤل ، وهو الفن الذى بدونه لا يمكن إجراء أى حوار ناجح مع شخصية كبيرة أو طفل صغير .

إننا نؤكد على أهمية كل العناصر السابقة التى تتعاون فيما بينها لتكوين البيئة اللازمة، والظروف المناسبة لإنتاج الحوار الجيد ، وازدهاره فى المجتمع من أجل تحقيق أفضل النتائج له ، ومما لا شك فيه أن مثل هذه البيئة ستكون قادرة على إفراز العناصر البشرية القادرة على إجراء الحوار وإدارته ، على النحو الذى يجعل منه الوسيلة المثلى لمناقشة قضايا المجتمع ومشكلاته ، بهدف تقديم الحلول المناسبة لها . إن العقل الإنسانى يستطيع وحده أن ينتج فكرة عبقرية ، لكن العقل الأخرى التى تناقشه فيها هى التى يمكنها أن تنقل تلك الفكرة من مجال النظر إلى واقع التطبيق . وليس " الإجماع " الذى هو أحد مصادر الشريعة سوى اتفاق العلماء على رأى واحد منهم ، بعد أن تمت مناقشته، وتأكد صوابه .

حوار المجتمعات :

أعتقد أنه بإمكاننا الآن ، وبعد أن حاولنا بيان أسس الحوار الجيد داخل المجتمع، أن نتحدث عن حوار بين مجتمعين أو أكثر . ولكي ينجح مثل هذا الحوار ، لابد أن يكون كل من المجتمعين راغباً في التعرف على المجتمع الآخر، وحريصاً على تقوية علاقته معه . لذلك فمن غير الممكن قيام حوار بين مجتمعين في حالة عدا ، أو في حالة حرب (كما سبقت الإشارة) . كذلك لا يمكن تصور قيام حوار بين المجتمعات بعيداً عن دائرة المصالح المشتركة بينهما، بل إن مثل هذا الحوار ينبغي أن يقوم بدور في تقريب هذه المصالح ، وتوزيعها بعدالة على كلا الطرفين . أمر ثالث هام ، وهو أن الحوار لا ينجح بمجرد البدء فيه، وإنما من خلال استمراره ، وتعدد مستوياته ، وتنوع مجالاته. والدليل على ذلك أننا قد شهدنا الكثير من الحوارات تفشل بسبب افتقادها العناصر التي تضمن استمرارها ، ومن ذلك مثلاً قيام حوار سياسي بين بلدين دون أن تدعما مصلحة اقتصادية ، أو قيام حوار ثقافي دون أن يكون مدعوما بعلاقات اجتماعية أكثر اتساعاً . وأخيراً فإن الحوار بين المجتمعات يتطلب قدراً من الندية ، لا أقول من كل الجوانب ، وإنما في الكثير منها . ونحن نعلم جيداً أن حوار الكبير مع الصغير يتحول إلى تلقين ، وحوار الغنى مع الفقير يفضي إلى الصدقة ، وحوار القوى مع الضعيف ينتهي بالسيطرة .

وقد شاع في الآونة الأخيرة مصطلحات " الحوار بين الحضارات ، والحوار بين الثقافات ، والحوار بين الأديان . . . " وكلها مصطلحات جيدة لمسميات وهمية ، لا وجود لها في الواقع . وحقيقة ما

يحدث أن الأطراف الضعيفة هي التي تسعى إلى ذلك دون أن تكون هناك رغبة فعلية من الأطراف الأكثر قوة وهيمنة . لذلك فإن اجتماعات تعقد، وندوات تقام ، تتحدث فيها أطراف مختلفة الثقافات والخصائص والأديان ، كل عما لديه، ويستمع إليه الآخرون دون أن يدخلوا في حوار حقيقي ، ثم تنتفض الجلسات ، ويعود كل طرف إلى مكانه، دون أن يكون قد تحققت نتيجة واحدة ، اللهم إلا تعرف هؤلاء المجتمعين على بعضهم البعض، وقد كان من الممكن أن يحدث ذلك دون الدخول تحت مظلة الحوار المزعوم.

ليس معنى هذا أنني أهاجم هذا النوع من الحوار ولكنني فقط أنبه إلى قلة جدواه. وستظل ثمرته ضامرة طالما لم يتم على أسس واضحة ، أهمها " تحقيق المصلحة " بين المجتمعات الراغبة في إقامة علاقات تعاون حقيقي فيما بينها .



قائمة الأبحاث
التي صدرت في الأجزاء السابقة
من سلسلة "دراسات عربية وإسلامية"

الجزء الأول

- قراءة في الترجمة العبرية لمعاني القرآن الكريم
- من قضايا المنهج في علم الكلام
- المضاربة بمال الوديعة أو القرض في الفقه الإسلامي
- مفهوم السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية
- التجربة الأخلاقية عند ابن حزم الأندلسي
- دراسة الواقع اللغوي أساس لحل مشكلات اللغة العربية في التعليم
- فاعلية المعنى النحوي في بناء الشعر
- الواقعية ما هي ؟ دراسة تطبيقية لقصص المدرسة الحديثة
- قضية التأثير على شعراء التروبادور
- أ.د. عبدالرحمن عوف
- أ.د. حسن الشافعي
- أ.د. أحمد يوسف
- أ.د. مصطفى حلمي
- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. المصطفى بدوي
- أ.د. محمد حماسة عبداللطيف
- أ.د. حمدي السكوت
- أ.د. أحمد درويش

الجزء الثاني

- مفهوم التطور في الفكر العربي
- تحليل ظاهرة الحصد عند الحارث المحاسبي
- التأمين في الفكر الفقهي المعاصر
- تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها
- تعدد أوجه الإعراب في الجملة القرآنية
- تقسيم جديد لتاريخ الأدب العربي لبلاشير
- المرايا الشعرية لدى نازك الملائكة
- موقف نقاد الرومانسية من شعر شوقي
- قضية ترجمة الشعر
- د. محفوظ عزام
- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. محمد بلتاجي
- أ.د. أحمد طاهر حنين
- أ.د. محمد حماسة عبداللطيف
- ترجمة د. أحمد درويش
- أ.د. محمد فتوح أحمد
- أ.د. طه وادي
- أ.د. رجاء جبر

الجزء الثالث

- تأثير الفقه الإسلامى فى القانون الإنجليزى
- ابن باجه وفلسفة الاعتراض
- ظاهرة البخل عند الجاحظ
- العناصر الفكرية والفنية فى رسالة الغفران
- قضية زواج المرأة فى الخليج من خلال الشعر العربى
- النقد الجديد وفلسفة العصر

الجزء الرابع

- القراءات القرآنية : رؤية لغوية معاصرة
- تجديد الفكر الإسلامى عند محمد إقبال
- انتشار الإسلام فى الهند
- بناء مصر الحديثة : محاضرة مجهولة لمطه حسين
- احتكاك العرب بالسرطان وأثره اللغوية
- اللغة العربية ودور القواعد فى تعليمها
- أثر المبرد فى النحو العبرى
- نظرية النظم عند عبد القاهرة الجرجانى

الجزء الخامس

- عقوبة السجن فى الشريعة الإسلامية
- الوثائق الإسلامية
- حركة التأليف فى العالم العربى المعاصر
- حركة الروى فى القصيدة العربية
- الأصوات وأثرها فى المعجم العربى
- الثروة اللغوية العربية لأطون شال
- نظرية الاكتمال اللغوى عند العرب
- منهج شوقي ضيف فى الدراسات الأدبية
- قراءة القصة القصيرة

- أ.د. محمد عبدالهادهى سراج
- أ.د. محمد إبراهيم الفيومى
- أ.د. حامد طاهر
- د. جابر قميحة
- د. نوريه الرومى
- أ.د. عبدالحميد إبراهيم

- أ.د. أحمد مختار عمر
- د. عبدالمقصود عبدالغنى
- د. محمد عبدالحميد رفاعى
- ترجمة أ.د. حامد طاهر
- د. علاء القنصل
- أ.د. محمد حماسة عبداللطيف
- د. منلوى ناظم
- أ.د. أحمد درويش

- أ.د. محمد عبدالهادهى سراج
- د. عبدالنواب شرف الدين
- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. محمد حماسة عبداللطيف
- د. رفعت القرنوائى
- ترجمة د. سعيد بهيرى
- أ.د. أحمد طاهر حستين
- أ.د. يوسف توفل
- د. حسن البندارى

الجزء السادس

- صراع مع الطبيعة أو صراع مع الفن
- أ.د. محمود الربيعي
- العنصر المهم في حركة التجديد الشعري
- أ.د. عبدالحكيم حسان
- استدعاء الشخصيات التراثية الهندية في منظومة جاويد نامة
- أ.د. محمد السعيد جمال الدين
- التحليل النصي للتصيدة : نموذج من الشعر القديم
- أ.د. محمد حماسة عبداللطيف
- الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث
- أ.د. حامد طاهر
- الوظائف اللغوية للزوائد في النحو العربي
- د. محمد صلاح الدين بكر
- قضية تأويل القرآن بين الغزالي ومعاصريه
- د. محمود سلامة
- حديث عيسى بن هشام
- د. عصام بهي
- العلمانية والمنظور الإيماني
- د. عبدالرازق قسوم
- تكوين النص الشعري عند حازم القرطاجني
- أ.د. حسن البنداري

الجزء السابع

- إعداد الداعية المفتي
- أ.د. حسن الشافعي
- المنهج الإسلامي في التنمية
- أ.د. يوسف إبراهيم
- إحياء الفلسفة بين مصطفى عبدالرازق ومحمد إقبال
- أ.د. حامد طاهر
- العلاقات الإسلامية البيزنطية
- أ.د. عليہ الجنزوري
- حركات التجديد الدينية ودورها في نشر الحضارة الإسلامية في غرب أفريقيا
- أ.د. عبدالله عبدالرازق
- الإنتاج الفكري وحق المؤلف
- أ.د. شعبان خليفة
- محاولات التيسير في النحو العربي (القسم الأول)
- أ.د. صلاح روى
- الثنائية في الفكر البلاغي
- أ.د. محمد عبدالمطلب
- نظرية الأخذ القني عند حازم القرطاجني
- أ.د. حسن البنداري

الجزء الثامن

- نحو استكمال علامات الرسم الإملائي في القرآن الكريم لمحمد حميد الله
- أضواء جديدة على تفسير سورة يوسف من خلال اللغة المصرية القديمة
- رؤية الجبرتي للحركة السلفية في مصر وشبه الجزيرة العربية
- المترجمة ودورها في الفكر العربي
- المنهج في كتاب سيبويه
- محاولات التيسير في النحو العربي (القسم الأخير)
- المصطلح ودلالته في الدرس الصوتي عند العرب (القسم الأول)
- التراث والأصول الأوروبية للجدثة
- نقاد المتخصص وتوثيق الشعر عند ابن سلام
- ترجمة د. محي الدين بلتاجي
- أ.د. رمضان السيد
- د. نازك زكي
- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. صلاح الدين أبو بكر
- أ.د. صلاح روى
- د. رفعت القروناني
- أ.د. عبد الحكيم حسان
- د. حسن البنداري

الجزء التاسع

- عنوق ابن قتيبة للنظم القرآني
- نحن وقضية التراث الفلسفي عند العرب
- خمس مشكلات حقيقية أمام الفلسفة الإسلامية في العصر الحاضر
- المصطلح ودلالته في الدرس الصوتي عند العرب (القسم الأخير)
- محاولات تفسير النحو العربي
- نحو أدب إسلامي مقارن
- عبدالله الطائي وأفاق الشعر المعاصر
- عمود الشعر في المصطلح النقدي
- أ.د. منير سلطان
- أ.د. عاطف العراقي
- أ.د. حامد طاهر
- د. رفعت القروناني
- أ.د. صبري إبراهيم السيد
- أ.د. الطاهر أحمد مكي
- أ.د. أحمد درويش
- أ.د. توفيق القيل

الجزء العاشر

- موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية
- المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة
- فلسفة التاريخ الإسلامي
- صعوبات فلسفية في كتاب سيبويه
- مظاهر معاصرة الجيلين لدى شيوخ شعراء الخليج
- ملاحم الشاعر بريشة القصاص
- أ.د. محمد شامة
- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. عبد الحميد إبراهيم
- أ.د. عبد الرحمن أيوب
- أ.د. أحمد درويش
- د. إخلاص فخري

الجزء الحادي عشر

- مشكلة التخلف الحضاري عند المسلمين
- تصنيف العلوم عند العرب
- جهود الشيخ أبو زهرة في تطوير الدراسات الفقهية
- اللغة العربية بين المدرسة والجامعة في دولة الإمارات
- صور الثقافة والتربية في الأدب العربي القديم
- التشكيل الفني للشعر بين الالتزام الاجتماعي والصنق النفسي
- شعر المناسبات (نظرة متصفة)

- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. عاطف العراقي
- أ.د. محمد أحمد سراج
- د. أحمد طاهر حسنين
- أ.د. أحمد درويش
- د. محمود محمد عيسى
- د. إخلاص فخرى عمارة

الجزء الثاني عشر

- المنهج العلمي التجريبي في الحضارة الإسلامية
- الإسلام من وجهة نظر المسيحية لجارديه
- توظيف العلوم الطبيعية في بناء علم كلام إسلامي
- العلاقة التاريخية بين الأفغانى وناصر الدين شاه
- الشخصية العلمية الموضوعية في البحث
- النقود الإسلامية في الأندلس لخيرى يروسي
- نحو الكلام ، لا نحو اللغة
- تقويم برنامج التعليم الجامعي الأساسي
- منهج شوقي ضيف وآراؤه في التعليم

- أ.د. عمار الطالبي
- ترجمة أ.د. حامد طاهر
- د. رزق الشامي
- أ.د. مريم زهيرى
- أ.د. محفوظ عزام
- ترجمة أ.د. عبدالله جمال الدين
- أ.د. أحمد كشك
- أ.د. على الشرهان
- أ.د. على الحديدي

الجزء الثالث عشر

- حق الإنسان في مستوى لائق من المعيشة بموجب الإسلام
- ولاية الفقيه ونظام الحكم في الإسلام
- نظرية المعرفة عند الفارابي
- القاهرة الكبرى : دراسة في جغرافية المدن
- دليل عملي لطلاب الدراسات العليا
- التداخل بين النحو وعلم المعاني
- حاضر الوضع الأدبي في مصر
- تنويع الحكم التصوري في النقد العربي القديم

- أ.د. محمد شوقي الفنجري
- د. أمية أبوالمعود
- أ.د. عبدالفتاح الفاوى
- أ.د. جمال حمدان
- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. محمد فتوح
- أ.د. حمدي السكوت
- أ.د. حسن البنداري

الجزء الرابع عشر

- أحكام للشريعة بين الثبات والتغير
- الإباضية : الطائفة والمذهب
- دار العلوم : رائدة على مبارك
- الثقافة في التليزيون بين الأسالة والمعاصرة
- القيمة اللغوية لخصائص ابن جني
- إشكالية الفكر والفن
- للبالى : سيرة حياة وتجربة إنسان

الجزء الخامس عشر

- نظريات الإسلاميين في الكلمة
- التمايز بين الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية
- ابن باديس وفلسفته في الإصلاح والتربية
- نيروزيه ابن سينا
- مستقبل الحوار بين العرب وأوروبا
- اللغة العلمية في العصر العباسي
- الأطر الفكرية في شعر شوقي

الجزء السادس عشر

- تساق الجمل في النص القرآني
- مشكلة المخدرات في ميزان الشريعة الإسلامية
- الفكر الإباضي ودوره في تأكيد الشخصية المعانية
- مالك بن نبي وفلسفته الإصلاحية
- فكرة شئونة المعنوم عند المتكلمين
- الفلسفة اليهودية لايساتين
- ضمير الغائب بين التعريف والتكثير

- د. محمد المنسي
- أ.د. عبدالفتاح القاوي
- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. سامية أحمد عطى
- د. حسام اليهنساوي
- أ.د. صلاح رزق
- أ.د. ماهر حسن فهمي

- أ.د. أبو العلا عفيفي
- أ.د. محمد إبراهيم القويومي
- أ.د. عبدالفتاح القاوي
- د. إبراهيم محمد صقر
- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. محمد حسن عبدالعزيز
- أ.د. أبو القاسم أحمد رشوان

- د. مصطفى عراقي حسن
- أ.د. محمد بلتاجي
- أ.د. حسن الشافعي
- د. جمال رجب سيدي
- د. يوسف محمود
- ترجمة أ.د. حامد طاهر
- أ.د. السيد أحمد علي محمد

الجزء السابع عشر

• القرآن والنحو :

- نظرة على مراحل العلاقة التاريخية
- البيان القرآني وtheme الشعر
- مقاتل بن سليمان والبلاغة القرآنية
- آراء صرفية لأبي العلاء المعري
- تجربة الاغتراب عند الشعراء العباسيين
- قضايا العصر في شعر أبي الصوفي
- المنهج الفلسفي في قراءة الأعمال الأدبية

الجزء الثامن عشر

- * الكتاب المنشور " يوم القيامة
- أصول الدية ومراحل تقويمها في السعودية
- ابن النفيس : فيلسوف مسلم
- مستقبل ثقافة المسلم في ظل التقدم العلمي
- ظاهرة الترخص عند أمن اللبس
- الحذف لكثرة الاستعمال
- تنوع التشكيل الشعري في قصائد أنس دواد
- قراءة نقدية في قصيدة المرافف الأعمى لأمل دنقل

الجزء التاسع عشر

- مقال في العقيدة
- الإيسيسكو ومستقبل العالم الإسلامي
- أثر العقيدة الإسلامية في تكوين جماليات الفن الإسلامي

• نظرية النحو الكلي

- شرح النص الأدبي : منهج وتطبيقه
- لمحمد غنيمي هلال

- أ.د. علي أبوالمكارم
- أ.د. حسن طبل
- د. سعيد عبدالعظيم
- أ.د. السيد أحمد علي
- د. صالح الخضيرى
- د. سمير عبدالرحيم هيكل
- أ.د. حامد طاهر

- د. محيي الدين واعظ
- د. عبدالرحمن العفيلى
- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. يوسف محمود
- أ.د. تمام حسان
- د. كمال سعد أبوالمعاطي
- د. أخلاص فخرى عماره
- د. عبدالمطلب زيد

- أ.د. حامد طاهر
- أ.د. عبدالعزيز التويجى
- د. محمود محمد صادق
- د. نعمان محمود جبران
- أ.د. حسان اليهنساوى
- تحقيق: د. جمال الدين رضوان

الجزء العشرون

- السنة والبدعة
- المضمون الأخلاقي في كتاب كلية ودمنة
- رأي في "ليس"
- الجملة المركبة في اللغة العربية
- التوافق : أحد مظاهر علاقة علم العروض بعلم الصرف

فضيلة الشيخ: محمد الخضرجين
أ.د. حامد طاهر
أ.د. أحمد عبدالدايم
د. سعود غازي ضيف الله
د. محمد جمال صقر